نقولا زيادة

الجغرافية والرحلات عند العرب

الأهلية للنشر والتوزيع

الجغرافية والرحلات عند العرب

الى زوجتي
وفاء لحبها وتشجيعها لي وصبرها عليّ

نقولا زيادة

الجغرافية والرحلات عند العرب

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ۱۹۸۰

طبعة أولى: بيروت ١٩٦٢

بيروت ، الحمراء ، بناية الدورادو ، هاتف ٣٥٤١٥٦/٣٥٤١٥٧ ص.ب. ١١٣٥٤٣٣

المحتويات

القسم الثالث

القِسْمُ الأوّل

العَرَبُ وَالجغرَافيّة

مقدمة

عندما نحاول تقرّي ما عرفه العرب عن الجغرافيه نجد شيئاً لا يستهان به يرجع الى ما قبل الاسلام وخاصة عن الانواء. وهذه المعرفة سببها الاصلي هذا الاهتمام بالتجارة البحرية والبرية التي كان العرب يمارسونها بكثرة. ومع ان الذي وصلنا من هذه المعلومات قليل من حيث نوعه، فمما لا ريب فيه ان كمية اكبر من تجارب العرب واختباراتهم البحرية والبرية فيما يتعلق بالرياح والامطار اصبح جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن اتصل بهم، كما ان بعض الذي عرفوه هم كان جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن سبقهم.

وبعد الفتوح العربية الاسلامية، ولما اصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً هاماً من العمل الاداري للدولة، صار وصف الاقاليم والعناية بها جزءاً من اخبار الفتوح والمغازي والتنظيم. ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب. وهنا نجد اول استقلال لما يصح ان يسمى الجغرافية الادارية او السياسية عن الفتوح والمغازي واخبارها. هذه الجغرافية الادارية تبدو واضحة في كتاب « المسالك والممالك » الذي وضعه ابن خرداذبه في اواسط القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) وفي كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر. فالاول يمكن اعتباره تقريراً عن جباية المملكة العباسية كما يمكن ان نجد في الثاني وصفاً للطرق والمسافات وتقديراً لجباية الدولة.

وباستقرار الدولة وكثرة تنقل الحجاج والتجار واهل العلم والرحالين،

واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين ما يرون ويشهدون ويسمعون، اخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الاقاليم والمناطق دراسة وافية، مع كثير من التحرر من القيود السابقة. وصارت المعرفة الجغرافية نفسها هي الاصل.

ويمكن القول بأن هذه الفترة أي القرن الرابع (العاشر للميلاد) تمثل دور النضج في الجغرافية العربية. وقد استمر هذا فيما بعد لمدة لا يستهان بها. ونلاحظ أربعة اتجاهات او تطورات في التأليف الجغرافي العربي[1]. الاول العناية الشديدة باقطار العالم الاسلامي على ما يبدو من كتابات البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي[2]. والثاني نوع من التخصص في قطر واحد. فالهمذاني وضع « صفة جزيرة العرب » والبيروني كتب عن الهند وابن فضلان وصف بلغار الفولغا. والاتجاه الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية، وهذا شيء بدأ في القرن الخامس (الحادي عشر). فالبكري وصف معجمه بقوله « هذا معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار والقرى والامصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة »[3]. وكتاب ياقوت الحموي « معجم البلدان » خزانة ادب وعلم واخبار وتاريخ وجغرافية[4].

---

١ – راجع للمؤلف « رواد الشرق العربي في القرون الوسطى » القاهرة، المقتطف، ١٩٤٣ ص ٥٦ – ٦٢، وللمؤلف ايضاً « الرحالة العرب »، القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٦ ص ٣٧.

٢ – المقدسي، شمس الدين « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ليدن، بريل، ١٩٠٦ ص ١ و٤٣ والأصطخري، ابي اسحق ابراهيم « مسالك الممالك » ليدن، بريل ١٩٢٨ ص ٢ و١٢ وابن حوقل، ابو القاسم محمد « صورة الارض » ليدن، بريل، ١٩٣٨ ص ٥. راجع ايضاً قدامة بن جعفر « نبذ من كتاب الخراج » ليدن ١٨٨٩ ص ٢٣٤.

٣ – البكري، عبد الله بن عبد العزيز « معجم ما استعجم »، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥ ص ١.

٤ – زيدان، جرجي « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الثالث، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩١٣، ص ٨٩ للمؤلف « رواد الشرق العربي » ص ٥٧ « الرحالة العرب » ص ٣٧ – ٣٨.

ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن (الرابع عشر)، من نوع «نهاية الارب» للنويري و «صبح الاعشى» للقلقشندي و «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري وغيرها. هذه الكتب اعتنت بما يصح ان يسمى الجغرافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية اي بشؤون العمران عامة. والذي يقرأ بعض فصول هذه الموسوعات يرى الى أي حد اهتم المؤلفون بجمع معلوماتهم ومتابعة التطور في الاقطار المختلفة على ترتيب زمني.

والكتابة الجغرافية في هذه الفترة الطويلة تبدو لها ميزات واضحة. فمن ذلك اعتمادها على المشاهدة الشخصية والحس. ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات ومن ذلك ندرة الاحصاءات[1] عند الجغرافيين ان لم نقل انعدامها.

فالمشاهدة والمعرفة الشخصية المباشرة يقول ابن حوقل عنها «واعانني على تأليفه [تأليف كتابه] تواصل السفر وانزعاجي عن وطني... الى ان سلكت وجه الارض باجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها.»[2] والإصطخري يقول «ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها...»[3]

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الاحيان. فالبعض ذكر ذلك،

١ - راجع متز، آدم، «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري»، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥، ج ٢ من الترجمة العربية ص ٢٢٥ وما بعدها. «واخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة ان بمدينة بلرم قصبة صقلية ما يزيد عن مائة وخمسين حانوتاً للقصابين، واراد ان يتخذ من ذلك دليلا على كثرة عدد اهلها». ابن حوقل ص ١١٩.

٢ - ابن حوقل، «صورة الارض»، ص ٣ - ٤.

٣ - الإصطخري ص ٢.

والبعض الآخر سكت عنه. وقد حذر المقدسي قراءه انه «لم ينقل عن احد، ولكنه خبر ودون وكتب». وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين[1]. وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث مبنياً دائماً على الدرس والاختبار منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل. ولما جاء ابو الفدا تناول في مقدمة كتابه «تقويم البلدان» من تقدمه من الجغرافيين بالنقد. فاظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبه لم يحققوا الاسماء، وغيرهم لم يحقق الاطوال. اما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال[2]. والواقع ان كتابه يصح ان يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة).

وثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات، ذلك هو الادريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤ م. وصاحبه لم يزر جميع الممالك الاسلامية الشرقية لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار.

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية[3]. فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي. والخرائط التي رسمها الادريسي كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للاوروبيين مدة طويلة بعد عصره.

ويمكن القول اجمالاً بان الجغرافيين من العرب عرّفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والغرب بالعالم الاسلامي خاصة. وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية أيام الادريسي، اذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحالين.

---

١ – المقدسي، ص ٤ – ٥.

٢ – راجع للمؤلف «رواد الشرق العربي» ص ٦٠.

٣ – Miller, Konrad, Mappae Arabica (Erster Band Erster Heft, Stuttgart) 1926 pp. 24. – 25.

ويجدر الاشارة هنا الى ان مؤرخي الابحاث الجغرافية متفقون على ان فضل العرب على الفلك كان عظيماً جداً.

وكانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة. فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين. ورحل الناس في طلب العلم من قطر الى آخر. فقد كان العلم منتشرة مراكزه في انحاء العالم الاسلامي، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم. ورحل القوم في سبيل الاتجار، فقد كانت الاسواق الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها مرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط. وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم الى حيث يرجون الربح الوفير. اضف الى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق اذا ضاقت بهم ارضهم، وجوابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون. وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الامر. فلما ذهبت الوحدة السياسية، بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة. بل لعل الرحلة كانت اقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الاسلامي درجة من المعيشة، ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير تحتم على افراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والادبي.

وقد دوّن كثير من رحالي العرب اخبار اسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، واتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عادتهم بالمديح، وعابوا ما فيهم من ضعف، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم. فقال عنهم «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات

النساء... فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال.»[1]

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها. اما الرحالة فينقل ما يشاهد، وتكون صورته جزئية، ولكنها ثمينة في هذه الناحية. فبينما يذكر المقدسي أو ابو الفدا كل شيء عن اقليم الشام، نجد ان ابن جبير - وهو سائح - لا يتناول مدن الغور ابداً لأنه لم يصل اليها، وابن بطوطة يذكر فلسطين وخاناتها واماكن المكس والتفتيش فيها لانه جاء البلاد براً من مصر.

١ - ابن جبير. ابو الحسن محمد، «رحلة ابن جبير» ليدن، بريل، ١٩٠٧ ص ٢٩٦.

الفصل الأوّل

المدرسة اليونانية العربية

في المكتبة العربية ما لا يقل عن اربعين كتاباً من امهات الكتب تبحث في الجغرافية، وهو تراث ضخم. ونحن نستطيع ان نتتبع تاريخ التأليف الجغرافي في اللغة العربية في ادواره الاولى، فنجد ان مجموعة الجغرافيين الذين كتبوا في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) كانوا متأثرين الى درجة كبيرة بالمعرفة اليونانية الرومانية. واذا جاز لنا تسمية هذه المجموعة من النتاج الجغرافي لسميناها الجغرافية اليونانية مترجمة او معربة.

ويمثل هذه المدرسة ابن خرداذبه صاحب « المسالك والممالك »، واليعقوبي مؤلف « كتاب البلدان »، وابن رسته واضع « الاعلاق النفيسة »، والخوارزمي الذي ألّف « كتاب صورة الارض »، وابن الفقيه وقد وضع « كتاب البلدان »، والكندي مؤلف « رسم المعمور من الأرض »، وقدامة بن جعفر وهو الذي خلف لنا « كتاب الخراج ». وقد أخذ هؤلاء المعرفة الجغرافية اما عن اليونان رأساً او عن الترجمات او الخلاصات السريانية والارمنية. وعندما نقول المعرفة الجغرافية اليونانية فاننا نعني بطلميوس وآراءه الجغرافية. والذي نعرفه هو ان الجغرافيين العرب لم يتركوا لنا ترجمة كاملة لجغرافية بطلميوس، ولكن الخوارزمي الفلكي خلف لنا خلاصة له عملها سنة ٨٣٠ م.

ويتضح أثر بطلميوس في جغرافيي هذه المدرسة في امرين اثنين بشكل خاص اما الاول فأخذ الاطوال والعروض والمواقع عنه. واما الأمر الثاني فهو ان هؤلاء الجغرافيين قبلوا بتقسيم العالم الى سبعة أقسام على ما قسمه

بطلميوس. وكتاب الكندي المسمى « رسم المعمور من الارض » هو في الواقع اقتباس لبطلميوس.

وقد كان الخوارزمي معاصراً للخليفة المأمون. وكتاب « صورة الارض » وضع اما في اواخر عهد هذا الخليفة العالم او في عهد خليفته المعتصم على ما يرى بارتولد. والخوارزمي يورد في كتابه الاسماء القديمة والحديثة (اي المعاصرة له) مما يدل دلالة واضحة على اهتمامه ببطلميوس وتأثره به. والخرط التي رسمها الخوارزمي هي في الواقع تعريب لخرط بطلميوس. وقد كان هذا طبيعياً بالنسبة الى مؤلفين كان ذلك اول عهدهم بالاتصال بمثل هذا النوع من المعرفة. وقد اشترك هذا العالم في وضع الخرط التي طلبها المأمون للارض.

والكندي (توفي ٨٧٣/٢٦٠) كان معاصراً للخوارزمي في اواخر ايامه، ومع ان شهرة الكندي تعود الى انه فيلسوف، فقد اعتنى بالجغرافية والذي يجب ان نذكره دوماً ان العلماء والفلاسفة في تلك العصور كانوا ينظرون الى المعرفة نظرة الوحدة، ولذلك فليس من غرابة في ان يضع الفيلسوف كتاباً في الجغرافية.

وابن خرداذبه فارسي الأصل بغدادي النشأة، وقد تولى ادارة البريد في الجبال. وقد وضع كتابه « المسالك والممالك » في اواسط القرن التاسع الميلادي.

وينتسب اليعقوبي الى العباسيين. وقد تنقل في ديار الاسلام بحيث قضى سنوات طويلة في اسفاره، وعاد الى بغداد حيث توفي (٨٩٧/٢٨٤). وقد كان حريصاً على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية وعن المجتمعات التي تعرف اليها. لذلك يمكن اعتباره من اوائل الذين اهتموا بالجغرافية البشرية. واليعقوبي شديد التعلق ببغداد، بحيث بدأ كتابه بوصفها.

يحدثنا المؤلف عن نفسه فيقول « اني عنيت في عنفوان شبابي... بعلم اخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت اسفاري ودام تغربي. فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه

ومصره... وبلده... وزرعه...»[1]. وعندما يصف بغداد يقول « وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الارض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء».[2] فاذا انتهى من ذلك رجع الى تقسيم بطلميوس في عرضه للعالم فتحدث عن الربع الأول بلداً بلداً وهكذا حتى يأتي على وصف العالم المعروف.

وقد وضع ابن رسته موسوعته « الاعلاق النفيسة » وخص الجغرافية بجزء منها (هو الجزء السابع). وكان ذلك في اواخر القرن الثالث للهجرة (حول ٩٠٠ م) وقد اهتم بالنواحي الفلكية. ومن هنا نجد اثر بطلميوس عنده اوضح منه عند غيره. فالاقسام الاولى من الكتاب الأرض وعلاقتها بالفضاء وخطوط الزوال والاجرام وتقسيم هيئة الأرض وما الى ذلك من الموضوعات بطلميوسية لحماً ودماً.

فاذا فرغ من ذلك انتقل الى المدن والممالك يصفها ويجمع اخبارها. وهو في ذلك مثل غيره من الجغرافيين في تلك الفترة، يجمع بين الحقائق وبعض الأساطير. لكن معرفته، مثل معرفتهم، غزيرة، وكثير منها مبني على المشاهدة.

وقد وضع ابن رسته كتابه وهو مقيم باصفهان ولذلك فاننا ننقل وصفه لهذه المدينة. يقول « سألت ان اصف لك اصبهان وتربتها وهواءها وطيبها وسقيها واحوالها وسائر اسبابها التي تبين بها من سائر البلدان الموصوفة فضائلها المذكورة عجائبها، اذ كنت من اهلها. وكان ما اودعته كتابي من ذكر غيرها من البلدان انما هو عن خبر قد يصح ويسقم وحكايات احتجت الى التعويل فيها على تقليد من لعل الضرورة دعت الى تعديله وقبول قوله، اذ كانت احاطتي بعلم احوال ما ذكرتها من البلدان ومسافات ما بينها وعجائبها وتفاضل بعضها على بعض وما لها من الخاصيات متعذرة علي، وعلى كل من

١ - اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب « كتاب البلدان » ليدن، بريل ١٨٩١ ص ٢٣٢.
٢ - نفس المكان ص ٢٣٣.

حاول ما قصدت له، ولم يكن لأحد ان يطالبني به. واذ كان ما انعت به اصبهان انما هو عن عيان او حكاية عمن لا يقدر فيها على تزييد لأن العمل فيه لا يكون على قول واحد وليس بمتعذر ان يتعرف المشكوك فيه بجماعة لا يتفق اقاويلهم على غير حق، وانا اذكر من امرها جملة موجزة اقتصر عليها لما اخشاه من تطويل الكتاب وارجو ان يكون ما اورده مقنعاً ان شاء الله.

« اصبهان كورة واسعة الرقعة قد اجمع الناس على انها ثمانون فرسخاً في مثلها ومن قصبتها الى كورة شيراز من بلاد فارس ثمانون فرسخا ليس في ذلك اختلاف بين احد من السابلة والتجار الذين يكثر اختلافهم.

« ... وتربتها اصح الترب تبقى بها الثمار سنة مثل العنب على رقة قشره والصيني مع كثرة مائه والتفاح والسفرجل والرمان حتى يجمع فيها بين العتيق والجديد منها، وتبقى بعد ذلك ايضاً مدة. ويقال انه اذا بلغ ما يجلب من تفاحها وسفرجلها الى بغداد النهروان اشتم روائحها في القصبة واستقبل وابتيع. ثم بها معادن الفضة الا أنها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الجوهر، ومعادن ظاهرة ومواضع مضارب كانت مضروبة وأواري وآثار للمواضع المسكونة ومن اماكن للسبك وما كان يحتاج اليه في استخراج الفضة من الحجر وتخلصها منه، كل ذلك قائم بين ظاهر. وكان العمل فيها قائماً حتى جاء الله بالاسلام وكان اهلها مجوساً فأخذوا بالجزي ولم يكونوا عهدوها فشغلوا عن العمل فيها فتعطلت. وبها معدن الصفر وعليه للسلطان خراج عشرة آلاف درهم. وبها معدن الاثمد الفائق الذي يجلب الى الآفاق وكذلك التوتيا.»[1]

---

١ - ابن رسته، ابي علي احمد بن عمر «كتاب الاعلاق النفيسة»، ليدن، بريل ١٨٩١ ص ١٥١ - ١٥٦.

ابن خرداذبة - المسالك والممالك

صفة الأرض

قال ابو القاسم ابن خرداذبه « صفة الارض انها مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو جاذب لها ومن جميع جوانبها الى الفلك. وبنية الخلق على الأرض ان النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، لأن الارض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد. والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب. وهذا طول الأرض وهو اكبر خط في كرة الأرض كما ان منطقة البروج اكبر خط في الفلك وعرض الارض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش. فاستدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلثمائة وستون درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع اربع وعشرون اصبعاً والاصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ. وبين خط الاستواء وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة اصطرلابية واستدارتها عرضاً مثل ذلك. الا ان العمارة في الارض بعد خط الاستواء اربع وعشرون درجة ثم الباقي قد غمره البحر الكبير. فنحن على الربع الشمالي من الأرض والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه، وكل ربع من الشمالي والجنوبي سبعة اقاليم. وذكر بطلميوس في كتابه ان مدن الارض على عهده كانت اربعة آلاف ومائتي مدينة.»[١]

المسافة الى المشرق من البصرة في البحر

« من البصرة الى عبادان اثنا عشر فرسخاً، ثم الى الخشبات فرسخان ثم

---

١ - ابن خرداذبه، « المسالك والممالك » ليدن، بريل، ١٨٨٨ ص ٤ - ٥.

تصير الى البحر فشطه الايمن للعرب وشطه الايسر لفارس وعرضه سبعون فرسخاً وفيه جبلا كسير وعوير وعمقه سبعون باعاً الى ثمانين باعاً. ومن الخشبات الى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخاً واهلها لصوص يقطعون على المراكب ولا زرع لهم ولهم نخل وابل قال اعرابي:

رمـــى بـــه في موحش القفـــار بساحـــــل البحرين للصغـــــار

«ومنها الى الدردور مائة وخمسون فرسخاً ثم الى عمان خمسون فرسخاً، ثم الى السحر مائتا فرسخ. ومن سحر الى عدن مائة فرسخ وهي من المراقي العظام ولا زرع بها ولا ضرع وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلزم. وهذا البحر هو البحر الشرقي الكبير ويخرج منه العنبر الجيد وعليه الزنج والحبشة وفارس وفيه سمك طول السمكة مائة باع ومائتا باع، يخاف منها على السفن فتنفر بضرب الخشب على الخشب. وفيه سمك مقدار الدراع يطير، وجوهه كوجوه البوم، وفيه سمك طول السمكة عشرون ذراعاً في جوفها مثلها وفي الاخرى مثلها الى اربع سمكات، وفيه سلاحف استدارة السلحفاة عشرون ذراعاً وفي بطنها مقدار الف بيضة وظهورها الذبل الجيد. وفيه سمك على خلقة الجمال، وفيه طير تجمع من قذى البحر عند سكونه فتبيض وتفرخ على وجه الماء لا تخرج الى الارض».[1]

الطريق الى المدينة

« فمن اخذ على المدينة فمن المعدن الى العسيلة فيها آبار مالحة ستة واربعون ميلاً، ثم الى بطن نخل كثيرة الماء ستة وثلاثون ميلاً، ثم الى الطرف فيها ماء السماء اثنان وعشرون ميلاً، ثم الى المدينة وهي طيبة خمسة وثلاثون ميلاً، قال صرمة الانصاري:

فلما اتانـــــا اظهر الله دينـــــه واصبـــح مسروراً بطيبــة راضيـــا

---

١ - نفس المكان ص ٦٠ - ٦١.

وقال العباس بن الفضل العلوي:

وعلى طيبة التي بارك الله عليها لخاتم المرسلينا

« ويقال لها يثرب ايضاً وكان عليها وعلى تهامة في الجاهلية عامل من قبل مرزبان البادية يجبي خراجها وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملّكوها على المدينة على الأوس والخزرج وفي ذلك يقول شاعر الانصار:

تؤدي الخرج بعـــد خراج كسرى وخرج من قريظـــة والنضـــير »[1]

مسلك التجار اليهود الراذانية

« الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة، ثم يمضون الى السند والهند والصين. فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم، ثم يحملونه الى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي. فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وان شاءوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض. »[2]

---

١ - نفس المكان ص ١٢٨.

٢ - نفس المكان ص ١٥٣ - ١٥٤.

« وفي بلاد الروم على بحر الخزر بلاد تدعى المستطلة، المطر بها دائم الشتاء والصيف لا يقدر أهلها على دياس زروعهم وتذريتها، وانما يجمعونها في البيوت في السنبل فيخرجون منها بقدر حاجتهم فيفركونه بالايدي ثم يطحن ويخبز في بلادهم بزاة كثيرة في كثرة الغربان عندنا انما هي اقاطيع وليس يقدرون مع كثرتها على اتخاذ الدجاج.

واهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء فمطر صنعاء وما والاها حزيران وتموز وآب وبعض ايلول من الزوال الى المغرب. يلقى الرجل نصف النهار فيكمله فيقول عجل قبل الغيث لانه لا بد من المطر في هذه الايام.»[١]

اليعقوبي - كتاب البلدان

طريق مكة من مصر

« ومن اراد الحج من مصر وخرج من مصر الى مكة فاول منزل يقال له جب عميرة، به يجتمع الحاج يوم خروجهم، ثم منزل يقال له القرقرة في صحراء لا ماء بها ثم منزل يقال له عجرود به بئر قديمة بعيدة الرشاء زعقة الماء ثم الى جسر القلزم. فمن اراد ان يدخل مدينة القلزم وهي مدينة على ساحل البحر عظيمة فيها التجار الذين يجهزون الميرة من مصر الى الحجاز والى اليمن وبها مرسى المراكب واهلها اخلاط من الناس، تجارها أهل يسار. ومن القلزم ينزل الناس في برية وصحراء ست مراحل الى ايلة ويتزودون الماء لهذه الست المراحل ومدينة ايلة مدينة جليلة على ساحل البحر المالح وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب وبها التجارات الكثيرة واهلها اخلاط من الناس وبها قوم يذكرون انهم موالي عثمان ابن عفان وبها برد حبرة يقال أنه برد رسول

١ - نفس المكان ص ١٥٦.

الله ﷺ يقال انه وهبه لرؤبة بن يحنه لما صار الى تبوك.ومن ايلة الى شرف البعل ومن شرف البعل الى مدين وهي مدينة قديمة عامرة بها العيون الكثيرة والانهار المطردة العذبة والاجنة والبساتين والنخل واهلها اخلاط من الناس. ومن اراد ان يخرج منها الى مكة اخذ على ساحل البحر المالح الى موضع يقال له عينونا فيه عمارة ونخل وبه مطالب يطلب الناس فيها الذهب ثم الى العونيد وهي مثلها ثم الى الصلا ثم الى النبك ثم الى القصيبة ثم الى البحرة ثم الى المغيثة وهي تبعل ثم الى ظبة ثم الى الوجه ثم الى منخوس.وبمنخوس غاصة يخرجون اللؤلؤ ثم الى الحوراء ثم الى الجار ثم الى الجحفة ثم الى قديد ثم الى عسفان ثم الى بطن مر ومن اراد ان يسلك على طريق مدينة الرسول ﷺ اخذ من مدين الى منزل يقال له اغراء ثم الى قالس ثم الى شغب ثم الى بدا ثم الى السقيا ثم الى ذي المروة ثم الى ذي خُشب ثم الى المدينة فهذه المنازل من مصر الى مكة المدينة.»[1]

أبن رسته - الاعلاق النفسية

صفة مدينة صنعاء

« هي مدينة اليمن ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا اكثر اهلاً وخيراً ولا اشرف اصلاً ولا اطيب طعاماً منها.وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة اذا اعتدلت وطابت ويفرش الفراش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة. وتدرك عندهم الحنطة دفعتين والشعير والارز ثلاث دفعات وأربعاً ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك في السنة دفعتين ايضاً.وهي مدينة كثيرة الاهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض الا انها مزوقة اكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة منها ما اساسها من الجص والآجر وسائرها حجارة مهندمة حسان.وبعض ارضي بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص واكثر

---

١ - اليعقوبي ص ٣٤٠ - ٣٤١.

سطوحها مفروشة بالحصا لكثرة أمطارها ولامطارها اوقات معلومة عندهم علامات لذلك لا يخطئون ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الخريف تمام اربعة اشهر ثم تنقطع الامطار عندهم فلا يمطرون اصلاً الى مثل ذلك الوقت من العام الآخر واكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحث بعضهم بعضاً على الفراغ من اعمالهم حذراً من المطر فينشؤ السحاب مع فراغهم فيمطرون اكثره من وقت العصر الى وقت المغرب.فيجرف السيل جميع ما يكون فيها من القذى ويغسل تلك الكورة باسرها ويجري ذلك الماء الى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الامر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه. ولم يكن لهم سور في القديم واحدث ذلك بعد فتنة ابن يعفر ملكهم ولمدينتهم شارع يشقها بنصفين وينفذ الى واد يجري فيه السيول ايام المطر في عرض دجلة او اقل منها ويسمى السرار وعلى ضفتيه قصور مبنية من الجص والآجر والحجارة. وعامة هذه القصور للدباغين واليه ينفذ فوهة ازقتها وسوقها في ناحية مما يلي قبلتها وبعض هذا الشارع ولكل واحد من ازقتها بابان يفضي احدهما الى هذا الشارع والآخر الى سور البلد ومسجد جامعها بقرب سورها مبني من حجارة وجص وهو مسجد كبير.وذكر فقهاء تلك الناحية ان هذا المسجد بني بأمر رسول الله ﷺ بعهده وان في موضع المحراب قبر نبي من الانبياء وكان يعظم ذلك قبل بناء المسجد في المتقدم من اجل ذلك وانه تولى بناءه رجل من اصحاب النبي (ﷺ). وقبالة المسجد الجامع بالقرب منه على قدر عشر اذرع قلعة اساسها من الصخر وهي تعرف بغمدان موضع التبابعة بناها سام بن نوح. وذكر فقهاؤهم انه اول بناء بني بعد الطوفان وسمكها مرتفع جداً وقد نقض عامة حواليها واستعمل ما خرج منها من الحجارة حتى قال بعضهم انه اكتفى بما خرج منها من الحجارة عن نقل الحجارة اليها من غيرها، وفي هذه القلعة بئر يستقى منها الماء الى هذه الغاية ويقولون لها بئر سام ابن نوح، وفيها بئر اخرى وهي البئر التي وجد فيها قتيل من المسلمين في خلافة عمر فاشترك

في قتله سبعة نفر فقتلهم عمر جميعاً به وقال « لو تمالى عليه اهل صنعاء لقتلتهم به ». وهذا حديث معروف رواه سعيد ابن المسيب عن عمر وغيره عن عمر. واذا ارتقى المرقى الباقي من بناء غمدان اشرف على جميع صنعاء، ولمسجدها اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعهم في كل صلوة احدهم على اثر الآخر الا في صلوة المغرب خاصة ثم يأخذون جميعاً في الاقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة الى الصف فاذا انتهوا الى الصف يكونون قد فرغوا من الاقامة. وفي كل منزل من منازلهم بئر يستقى منها للشرب ويفضل ماء الآبار على مياه العيون الجارية عندهم ووصف فقيه منهم انه وزن ماء من آبارهم قليلاً مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر اخف من ماء دجلة. وبقرب كل مسجد من مساجدهم الا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضى كل مصهرج، وفيه طاق كبير قد عقد من حجارة بقرب الجزارين ذكر اهلها انه ذبح في هذا الموضع في الزمن الاول ستة عشر نبياً. وطعامهم البر النقي والعلس وهو شبيه بالحنطة الا انه ادق من الحنطة في سنابل لا تشبه سنابل الحنطة عليها قشرتان احديها قشرة المسنبلة والأخرى قشرة مقاربة لقشر الارز فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة.

وعندهم فواكه سرية مثل انواع التفاح والبرقوق وهو الخوخ ومن انواع الإجاص ما ليس بخراسان والكمثرى انواع كثيرة وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً عنب وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل اربعين يوماً يقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عنهم ابداً وعندهم باقلى رطب وقصب سكر وجوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر والقثاء وانواع الخضر والاترج عندهم كثير كبار حلو الطعم والوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن الوان وربما وجد كلها في وقت واحد وعندهم العسل الكثير. ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد. ومن عندهم يجلب الادم والنعال المشعرة والانطاع والبرود

المرتفعة والمصمت والاردية يبلغ الثوب من البرد عندهم خمسمائة دينار والوان الفصوص والاواني بقرانية وسعوانية والجزع وانواع الخرز يبلغ الفص من البقراني مائة دينار واكثر، ولهم سوق على حدة لا يباع فيها الا المزامير قد شدوها حزماً ونضدوها في حوانيتهم ولهم خانات كثيرة ومجال فيها خلق كثير يعملون اواني الجزع وانواع الخرز. وليس لشيء من مساجدها رحبة الا المسجد الجامع، ووجوههم قوم من نسل سيف بن ذي يزن في غاية السراوة والنبل يتقدمون في ذلك وجوه سائر الكور وهم قوم يرجعون الى سخاء وكرم، وللحوم ضأنهم وبقرهم خاصية وذلك انها لا تنضج الا على الجمر والوقود يسخنها ولا ينضجها. وضياعهم أجلّ ضياع واكثرها فاكهة واحسنها عمارة وهي على ثلاثة اصناف صنف منها على العيون وصنف على الآبار يستقى منها بالإبل والبقر وصنف وهي اثراها واكثرها قيمة على ماء السد والسد سكر قد اتخذ على فوهة جبال قد احاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على اسافل ذلك السد افواهاً يجرون منها المياه في انهار قد احتفروها الى ضياعهم وكانت قراهم عشرية قبل ولاية ابن يعفر فوظف ابن يعفر بدل ذلك عليهم مائتي الف دينار. ومعاملة اهل البلد بالدنانير المطوقة والدراهم السديسية والفلوس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين الى المائة بدينار والفلوس اربعة وعشرون بدرهم وزن كل درهم مقطعاً وكل ما كان اكبر كان ارطب. ونساؤهم حرائر والناس ينتشرون في حوائجهم بالنهار ويجتمعون في مجالس الفقهاء وغيرهم بعد العتمة الى وقت يضرب فيه الكوس المنصوب على غمدان فيسمع ذلك اهل البلد فمن وجد قبل صوت الكوس لم يتعرض له ومن وجد بعد ذلك فراسخ قلعة لابن يعفر صاحب اليمن تعرف بشبام وشام ليس اليها طريق الا طريق واحد ضيق يرتقى اليها من جبل صعب قد نصب عليه قنطرة يعبر اليها بها وفيها قصور كثيرة تزيد على خمس مائة وقرى كثيرة تزيد على اربعين قرية فيها عيون وانهار ومزارع وبساتين ونخل ومواش لا تحصى كثيرة من الابل والدواب وغيرها وفي نفس شبام سوق عظيمة ومسجد جامع

كبير وهذه القلعة بجميع ما فيها من القرى كانت خاصة لابن يعفر هذا في خاصته وكبار قواده وقراباته في هذه القلعة وعساكره نزول على اهلها وفيها مساكن ومرابض تحتمل الوفاً من الرجال والدواب وتخترقها عيون كثيرة الماء.»[1]

---

١ - ابن رسته، ص ١٠٩ - ١١٣.

الفصل الثاني

المدرسة العربية

في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر الميلادي) ظهر عدد من الجغرافيين الذين أغنوا المكتبة الجغرافية في غير ناحية واحدة. ولسنا نعتزم ان نتحدث عنهم جميعاً في هذه العجالة، لذلك سنكتفي بالبارزين منهم، وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي.

البلخي هو ابو زيد احمد بن سهل من اهل بلخ. قرأ التاريخ والفلسفة على الكندي في بغداد، وبعد ذلك عاد الى بلده وعمل لأميرها. وكان البلخي قليل الرحلة نزر النقلة. وقيمة البلخي ليست فيما كتب من ناحية البلدان ومراحلها، ولكن من حيث انه اول من استقل عن بطلميوس. فقد وضع «كتاب الاشكال او صورة الاقاليم»، وهو ما يصح ان يسمى بداءة الاطلس العربي، اذ انه مجموعة من الخرط مع شروح. ويرى الاستاذ كونراد ميلر ان الذي نعرفه الى الآن عن الجغرافية ورسم الخرط عند العرب يؤكد لنا ان البلخي فتح فتحاً جديداً في رسم الخرط وشرحها، وهو «اول من استقل عن بطلميوس»[1]، وليس ذلك بالامر القليل. وقد الف البلخي ايضاً كتاب «المسالك والممالك».

ويقول المقدسي عنه انه قسم الارض عشرين جزءا[2]، وهنا يبدو الانفصال عن بطلميوس.

---

١ - Miller نفس المكان ص ١٧.

٢ - المقدسي، ص ٤.

توفي البلخي سنة ٩٣٤/٣٢٢، ولعله وضع كتبه قبل وفاته بما يزيد عن السنين العشر.

في السنة التي توفي فيها البلخي وضع الاصطخري (وهو ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي) كتابه «المسالك والممالك». ويرى المشتغلون بدراسة المؤلفين الجغرافيين عند العرب ان الاصطخري يعتمد البلخي في كتابه، وحتى في خرطه. وقد ذكر المقدسي في اثناء حديثه عن الذين سبقوه من الجغرافيين الاصطخري فقال «وما صوره ابراهيم الفارسي [من الخرط] هي اقرب الى الصحة يعتمد عليها، وقد اخل وخلط في مواضع كثيرة.»[1]

ولعلّ اطرف شخصية من جغرافيي القرن الرابع (العاشر) هو ابن حوقل: ابو القاسم محمد. والمعروف عنه انه بدأ الرحلة سنة ٩٤٢/٢٣١ من بغداد وعاد اليها بعد ثلث قرن، زار خلالها ديار الاسلام من الهند الى اسبانية، وتغلغل في مناطق اخرى كثيرة، حتى انه وصل بلاد البلغار من اعالي الفلغا. وقد قرأ كثيراً واتصل كثيراً، فجاء كتابه «صورة الارض» يجمع بين هذه الاختبارات كلها.

وقد لقي ابن حوقل الاصطخري (سنة ٩٥١/٣٤٠ - ٩٥٢) فقال ان الاصطخري كان قد صنع خارطة رديئة للسند لكنه صنع خارطة جيدة لفارس فأراه ابن حوقل خارطتين من صنعه احداهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة فمدحهما الاصطخري كثيراً ثم أن الاصطخري طلب من ابن حوقل ان يعيد النظر في كتابه كله ويحسنه. ففعل ابن حوقل ذلك[2]. ومنذ ذلك الحين اصبح الاصطخري دليل الرحالة الجغرافي بعد ان كان يعتمد قدامة بن جعفر من قبل. حتى ان ابن حوقل لما الف كتابه احتذى حذو الاصطخري، لكن خرطه كانت ادق وانفع.

١ - نفس المكان ص ٦.

٢ - ابن حوقل، ص ٣٢٨.

وقد خلف لنا جغرافيو القرن الرابع عدداً كبيراً من الخرط الخاصة بديار الاسلام بلغ ٨٢ خارطة لكنها انتهت الينا في ٢٢٧ نسخة.

ولختم هذه اللمحة الخاطفة عن جغرافيي القرن الرابع الهجري بوصف ابن حوقل لبرقة وطرابلس في ليبيا:

« فاما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية، ولها كور عامرة. وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله. ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها. وارضها حمراء خلوقية التربة، وثياب اهلها ابداً محمرة، ويعرف اهلها بالفسطاط (بمصر) من بين أهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم ويطوف بها (برقة) من كل اموالها جمة. وهي اول منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان. وبها من التجارة، وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقين. وذلك انها تتفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر، والتمور الواصلة اليها من جزيرة اوجلة. ولها اسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت، وضروب المتاجر الصادرة من المشرق، والواردة من المغرب. وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها. واسعارها بأكثر الاوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية.»[١]

« فاما أطرابلس فكانت قديماً من عمل أفريقية وسمعت من يذكر أن عمل أفريقية، لما كانت طرابلس مضافة اليها معروف معلوم، وكان من صبرة وهي منزل من أطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا. ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من أطرابلس الى القيروان وعلى القادم من القيروان الى أطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جمل ومحمل وحمل. وذلك كالذي بلبده، وهي ايضاً قرية بينها وبين أطرابلس الى جهة المشرق مرحلتان، من الضريبة على الجمال والاحمال والمحامل والبغال والرقيق

---

١ - نفس المكان ص ٦٦ - ٦٧.

والغنم والحمير الى ما عدا ذلك من الاسباب الواردة واخذ الصدقات والخراج واللوازم والبربر المقيمين هنالك من هوارة وغيرهم اليه. وهي (أطرابلس) مدينة بيضاء من الصخر الابيض على ساحل البحر، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض، صالحة الاسواق كبيرة وكان لها في ربضها اسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها الى داخل السور. وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان. وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة. الى مراكب تحط ليلاً ونهاراً، وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلد الروم وارض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم، واهلها قوم مرموقون بنظافة الاعراض والثياب والاحوال، متميزون بالتجمل في اللباس، وحسن الصور والقصد في المعاش، الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة، الى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب اثيرة ذائعة. ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم اهل بلد. اذا وردت الأرساء فيبادر اهل البلد بقواربهم وحبالهم متطوعين فيقيد المركب ويرسى به في اسرع وقت بغير كلفة لاحد ولا غرامة حية ولا جزاء بمثقال.»[1]

الاصطخري - مسالك الممالك

بحر فارس

«وسنذكر بعد ديار العرب بحر فارس فانه يشتمل على اكثر حدودها وتتّصل بديار العرب منه وبسائر بلدان الاسلام ونصوّره ثم نذكر جوامع مما

---

١ - نفس المكان ص ٦٨ - ٧٠.

يشتمل عليه هذا البحر ونبتدىء بالقلزم على ساحله مما يلي المشرق فانه ينتهي الى أيلة ثم يطوف بحدود ديار العرب التي ذكرناها وبينّاها قبل هذا الى عبّادان ثم يقطع عرض دجلة وينتهي على الساحل الى مهروبان ثم الى جنّابة ثم يمر على سيف فارس الى سيراف ثم يمتدّ الى سواحل هرموز وراء كرمان الى الدّيبل وساحل الملتان وهو ساحل السّند وقد انتهى حدّ بلاد الاسلام ثم ينتهي الى سواحل الهند حتى ينتهي الى سواحل التّبّت فيقطعها الى ارض الصين، واذا اخذت من القلزم غربيّها على ساحل البحر سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي الى مفاوز هي للبجة وبها معادن الذهب الى مدينة على شطّ البحر يقال لها عيذاب ثم تمتدّ على بلد الحبشة وهي محاذية لمكّة والمدينة حتى تحاذي قرب عدن ثم ينقطع الحبشة ويتّصل بظهر بلد النّوبة حتى ينتهي الى بلدان الزّنج وهي من اوسع تلك الممالك فيمتدّ على محاذاة جميع بلدان الاسلام وقد انتهى مسافة هذا البحر ثم يعرض فيه جزائر واقاليم مختلفة الى ان يحاذي ارض الصين.

«وقد صوّرت هذا البحر وذكرت حدوده مطلقة وسأصف ما يحيط به وما في اضعافه جملاً يقف عليه من قرأه ان شاء الله، اما ما كان من هذا البحر من القلزم الى ما يحاذي بطن اليمن فانه يسمّى بحر القلزم ومقداره نحو ثلاثين مرحلة طولاً وعرضه اوسع ما يكون غير مسير ثلاث ليال ثم لا يزال يضيق حتى يرى من بعض جنباته الجانب الآخر حتى ينتهي الى القلزم ثم يدور على الجانب الآخر من بحر القلزم، وبحر القلزم مثل الوادي به جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة لا يهتدي فيها الا ربّان يتخلّل بالسفينة في اضعاف تلك الجبال بالنهار فأما بالليل فلا يسلك وماؤه صاف ترى تلك الجبال فيه، وفي هذا البحر ما بين القلزم وأيلة مكان يعرف بتاران وهو اخبث ما في هذا البحر من الاماكن وذلك انه دوّارة ماء في سفح جبل اذا وقعت الريح على ذروته انقطعت الريح على قسمين فتنزل الريح على شعبين في هذا الجبل متقابلين فتخرج الريح من كلي هذين الشعبين فتتقابل فيثور الماء

وتتبلدّ كل سفينة تقع في تلك الدوّارة باختلاف الريحين وتتلف فلا تسلم واحدة واذا كان للجنوب ادنى مهبّ فلا سبيل الى سلوكه ومقدار طوله نحو ستة اميال وهو الموضع الذي غرق فيه فرعون. وبقرب تاران موضع يعرف بجبيلات يهيج ويتلاطم امواجه باليسير من الريح وهو موضع مخوف ايضاً فلا يسلك بالصبا مغرّبا وبالدبور مشرّقا. واذا حاذى أيلة ففيه سمك كثير مختلف الالوان، واذا قابل بطن اليمن سمّي بحر عدن الى ان يجاوز عدن ثم يسمّى بحر الزنج الى ان يحاذي عمان عاطفاً على فارس وهذا بحر يعرض حتى يقال ان عبره الى بلد الزنج سبع مائة فرسخ وهو بحر مظلم اسود لا يرى مما فيه شيء وبقرب عدن معدن اللؤلؤ يخرج ما يرتفع منه الى عدن، واذا جزت عمان الى ان تخرج عن حدود الاسلام وتتجاوزه الى قرب سرنديب يسمّى بحر فارس وهو عريض البطن جداً في جنوبه بلدان الزنج. وفي هذا البحر هوارات كثيرة ومعاطف صعبة ومن اشدها ما بين جنّابة والبصرة فانه مكان يسمّى هور جنّابة وهو مكان مخوف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر، وبها مكان يعرف بالخشبات من عبّادان على نحو من ستة اميال على جري ماء دجلة الى البحر يرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المدّ وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى دجلة وهو مكان مخوف اذا ضلّت السفينة فيه خيف انكسارها لرقّة الماء، وبحذاء جنّابة مكان يعرف بخارك وبه معدن اللؤلؤ يخرج منه الشيء اليسير الا انّ النادر اذا وقع من هذا المعدن فاق في القيمة غيره ويقال ان الدرّة اليتيمة تقع من هذا المعدن، وبعمان وبسرنديب في هذا البحر معدن لؤلؤ ولا اعلم معدناً للؤلؤ الا ببحر فارس.

«ولهذا البحر مدّ وجزر في اليوم والليلة مرتان من حدّ القلزم الى حدّ الصين حيث انتهى وليس لبحر المغرب ولا لبحر الروم ولا لسائر البحار مدّ ولا جزر غير بحر فارس وهو ان يرتفع الماء قريباً من عشرة اذرع ثم ينضب حتى يرجع

الى مقداره. وفي هذا البطن من البحر الذي نسبناه خصوصاً الى فارس جزائر منها لافت وخارك وأوال وغيرها من الجزائر المسكونة وبها مياه عذبة وزرع وضرع، فهذه جوامع من صفة هذا البحر من حدود الاسلام. وسأصف ما على سواحله صفة جامعة نبتدىء منها بالقلزم ثم ننتهي بالصفة الى جنباته ان شاء الله، واما القلزم فانها مدينة على شفير البحر وينتهي هذا البحر اليها وهي في عطف هذا البحر في آخر لسانه وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء وأنما يحمل لهم من آبار ومياه بعيدة منهم وهي تامّة العمارة بها فرضة مصر والشام ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر وبينها وبين فسطاط مصر مرحلتان. ثم ينتهي على شط البحر فلا تكون بها قرية ولا مدينة سوى مواضع فيها ناس مقيمون على صيد من هذا البحر وشيء من النخيل يسير حتى ينتهي على تاران وجبيلات وما حاذى جبل الطور الى أيلة. وأيلة هذه مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السبت وجعل منهم القردة والخنازير وبها في يد اليهود عهد لرسول الله (ﷺ). وأما مَدْيَن وما انتهى على هذا البحر في عطوف اليمن الى عمان والبحرين الى عبّادان فقد وصفناه في صفة ديار العرب. وأما عبّادان فانها حصن صغير عامر على شطّ البحر ومجمع ماء دجلة وهو رباط كان فيه محارس للقطريّة وغيرهم من متلصّصة البحر وبها على دوام الايام مرابطون. ثم تقطع عرض دجلة فتصير على ساحل هذا البحر الى مهروبان من حدّ فارس ويعرض فيها اماكن تمنع من السلوك الا في الماء وذلك ان مياه خوزستان تجتمع الى دورق وحصن مهديّ وباسيان فتتصل بماء البحر. ومهروبان مدينة صغيرة الى ارض مصر وهو معدن ذهب لا فضة فيه، والبخة قوم يعبدون الاصنام وما استحسنوه، ثم يتصل ذلك بارض الحبشة وهم نصارى وتقرب الوانهم من الوان العرب بين السواد والبياض وهم متفرّقون في ساحل هذا البحر الى ان يحاذي عدن وما كان من النمور والجلود الملمّعة واكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعال تقع منها الى عدوة اليمن وهم اهل سلم ليسوا بدار حرب ولهم على الشّط موضع

يقال له زيلع فرضة للعبور الى الحجاز واليمن، ثم يتصل ذلك بمفازة النوبة والنوبة نصارى وهي بلدان اوسع من الحبشة وبها من المدن والعمارة اكثر مما بالحبشة ويخترق نيل مصر فيما بين مدنها وقراها حتى يتجاوز ذلك الى رملة من ارض الزنج ثم يتجاوزها الى براري يتعذّر مسلكها، ثم ينتهي هذا البحر حتى يتّصل بارض الزنج مما يحاذي عدن الى ان يمتدّ على البحر وتتجاوز محاذاتها جميع حد الاسلام ويدخل فيما حاذى بعض بلدان الهند لسعته وكثرته، وبلغني ان في بعض اطراف بلد الزنج صروداً فيها زنج بيض وبلد الزنج هذا بلد قشف قليل العمارة قليل الزروع الا ما اتّصل بها من مستقرّ الملك.»[١]

أبن حوقل - كتاب صورة الارض

بلاد الاندلس

« فاما الاندلس فهي من نفائس جزائر البحر ومن الجلالة في القدر بما حوته واشتملت عليه بحال سآتي باكثرها ودخلتها في اول سنة سبع وثلثين وثلثمائة والقيم بها أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وطولها شهر في عرض نيف وعشرين يوما وفيها غامر واكثرها عامر مأهول ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والانهار العذبة والرخص والسعة في جميع الاحوال الى نيل النعيم والتملك الفاشي في الخاصة والعامة فينال ذلك اهل مهنهم وارباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ويسار ملكهم بقلة كلفه ولوازمه وسقوط شغله بشيء يحذره وحال تخيفه اذ لا رقبة عليه لاحد من اهل جزيرته ولا خشية له من عدو ينصب لمملكته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وامواله ومما ادل بالقليل منه على كثيرة وغزيرة ان سكة دار ضربة على الدنانير والدراهم ضمانها في كل سنة مائتا الف دينار ويكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلثة ألف ألف واربع مائة الف

١ - الاصطخري، ص ٢٨ - ٣٦.

درهم هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته واعشاره وضماناته ومراصده وجواليه وما يقبض من الاموال الوافرة على المراكب الواردة اليهم والصادرة عنهم والرسوم على بيوع الاسواق.»[1]

قرطبة

«وقرطبة وان لم تك كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديما ومساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها واكثر ابواب قصره في داخل البلد من غير جهة ولها بابان يشرعان في نفس سور المدينة الى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي ربضها متصلة مبانيها بربضها الاسفل وابنيتها مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه فاما الجنوب منه فهو الى واديه وعليه الطريق المعروف بالرصيف والاسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها، ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب، وقرطبة هذه بائنة بذاتها عن مساكن ارباضها غير ملاصقة لها والمدينة قريبة المحال ودرت بسورها غير يوم في قدر ساعة وهي نفسها مستديرة حصينة السور وسورها من حجر. ولم تكن الزهراء بذات سور تام وبها مسجد جامع حسن طيب في نفسه [دون جامع البلد في المحل والقدر والكبر] ولقرطبة سبعة ابواب حديد، وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم بجيّد الثياب والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز والمتعة بفاره المركوب والمأكول والمشروب.»[2]

صقلية

«ويلحق بها في حسن الحال مما هو بيد اهل الاسلام صقلية وهي جزيرة

---

١ - ابن حوقل ص ١٠٨.

٢ - نفس المكان ص ١١٢ - ١١٣.

[على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة] طولها سبعة ايام في اربعة ايام. [وهي في شرقي الاندلس في لج البحر وتحاذيها من بلاد الغرب بلاد افريقية وباجة وطبرقة الى مرسى الخزر وغربيها في البحر جزيرة قرشقة ومن جنوب صقلية جزيرة قوسره وعلى ساحل البحر شرقيها من البر الاعظم الذي عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحي قلورية]. والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون واكثر ارضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم قصبة صقلية. وهي على نحر البحر وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة بينة.

ومنها المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم قبيل فتحها.»[1]

المغرب

«وهذه جملة احوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحر بحر المغرب من حد برقة الى البحر المحيط مما انتهيت اليه وادركته بالعيان او اخذته عمن نشأ فيه. وليس من حد برقة واعماله الى نواحي افريقية فيما يواجه البحر المغربي من البر غير عشر مراحل فما فوقها بلد يذكر ولا يعرف الا ما ذكرته. والغالب على ما واجه هذا البحر من ارض مصر الى نواحي عمل افريقية البراري والمفاوز التي بين بلاد السودان وارض المغرب وفي اطرافها سكان من البربر وفي قلب البر ايضاً مياه عليها قوم منهم. واما ما حاذى ارض افريقية الى آخر اعمال طنجة عن مرحلة الى عشر مراحل فزائد وناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء. وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته او يد خليفته. ومما عداه واوغل في براري سجلماسة

١ - نفس - المكان ص ١١٨.

واودغست ونواحي لمطة وتادمكة الى الجنوب ونواحي فزان ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب. والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء، وقوام حياتهم باللبن واللحم.»[1]

فاس

« وفاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما اميران مختلفان، وبين اهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل. ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة احدثها ادريس بن ادريس. في كل يوم من ايام الصيف يرسل في اسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد، في ارض الهبط موقعه وظاهر بكثرته حده. وموضعه ومستفاضٌ بوفوره مكانه ومرفقه.»[2]

الغرناطي - تحفة الألباب

« ولقد رأيت يوماً في البحر وانا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع تطلب ان تقبض على رجلي فبعدت منها واخرجت الحية رأسها كأنه رأس ارنب من تحت ذلك الحجر فسللت خنجراً كبيراً كان معي فطعنت به رأسها فادخلت رأسها تحت الحجر ثم قبضت على الخنجر فلم اقدر ان أخلصه منها وكلما جررته وجذبته لم اقدر على تخليصه منها فأمسكت مقبض الخنجر بيدي جميعه وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأني اقطع به شيئاً. فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر واذا بها خمس حيات ورأس واحد فعجبت من ذلك، فسألت من كان هنالك عن اسم

---

١ - نفس المكان ص ٨٣ - ٨٤.

٢ - نفس المكان ص ٩٠ - ٩١.

هذه الحية فقالوا هذه تعرف بأم الحيات. وذكروا انها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله وانها تقبض على السمك في البحر وتأكله حتى تعظم. تكون كل حية اكثر من عشرين ذراعاً وانها تقلب المراكب وتأكل كل من قدرت عليه من اصحابها، وان الحديد لا يقطعها ولا يؤثر فيها. ثم بعد ذلك وقعت حية من هذه الحيات في صنارة غلام كان معي فأخرجها الى البر فرأيت منظراً عجيباً: فمها تحت رأسها في الموضع الذي يمكن ان يكون فيه الدبر وحشاها في دماغها وادخلوا سكيناً في فمها واخرجوا حشوتها فماتت فسلخوا جلدها فكان أرق من قشرة البصلة خفيفاً ليناً فكنت أجعله على يدي وأجر عليه السكين الحاد المرهف الذي يحلق الشعر فلا يؤثر فيه ولا يعلق منه بشيء. وكان لحمها كألية الغنم المطبوخة ليس فيه عظم ولا يصلح للأكل إلا انهم يصطادون به السمك في الصنارة فالسمك يحبه ويصطاد السمك به. ولقد رأيت يوماً وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل في البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عدداً من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قد قطع الآن من شجرة فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت اليه فقبضت منها واحدة فاذا هي متصلة بالبحر واذا بها حيوان يضطرب في يدي ويتحرك، فتركته ونظرت اليه واذا فمه في موضع العرجون الذي يعلق النارنج وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل شيئاً وهو لين. فلففت كم ثوبي على يدي وقبضت عليه مرة اخرى وعصرته وجررته فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم اقدر ان اقلعه من مكانه. فأخرجت سكيناً كان معي ورمت قلعه عن الحجر او قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئاً وعالجت كل واحدة منها فلم استطع لها على شيء فتركتها عجزاً منها. وهي من عجائب خلق الله تعالى ورأيت جميعها احياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح الا الفم والله اعلم لأي شيء تصلح.

« ولقد كنت مرة في زورق انظر الى ماء البحر اذ مرت بي قطعة شبكة

مقدار ذراع في مثله مفتولة الخيوط مربعة العيون ظاهرة العقد كأنها قطعة من شبكة صياد. فأخذتها من البحر فاضطربت في يدي فألقيتها في البحر فسبحت وذهبت وغاصت في البحر وهي من حيوانات البحر فتعجبت من ذلك. ولقد وجدت يوماً عنقود عنب اسود على جانب البحر كثير الحب أخضر العرجون كأنه قطف من كرمة الآن فأخذته وذلك في زمان الشتاء وليس في تلك الارض التي كنت فيها عنب، لأني كنت في بعض بلاد البربر في بلدة يقال لها تمامان كانت لبعض قرابتي وكنت نازلاً عنده وهي على جانب البحر. فأخذت ذلك العنقود وقد فرحت به فرمت ان آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها وهي لينة ولكن لم اقدر ان أقلعها من العنقود كأنها من الحديد قوة. فتعجبت منه وجذبت الحبة كثيراً بقوة فانسلخت قشرة الحبة.وهي كقشر لبة العنب سواداً وداخلها على هيئة حبة العنب اذا قشرت قبل ان تنضج بيضاً يبين في داخلها عجمها ويبين العروق في لحم تلك الحبة لا يغادر من العنب شيئاً، فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك ويخرج من البحر اذا كان وقت الخريف وهاجت الرياح واضطربت الأمواج فيه فيظهر الله تعالى على جانب البحر احمالاً من حيوان يشبه جامات الزجاج التي تكون في الحمامات شديدةالبياض مدورة ينفذ فيها البصر ثخاناً لينة فتتحرك ثم تموت بسرعة فتكون على البحر احمالاً يترامى بها الصبيان فتتقطع ولا تصلح لشيء والله أعلم أي منفعة فيها.»[1]

الاندلس

« ومما في جزيرة الاندلس ان ابن حزم ذكر في رسالته التي وضعها في وصفها وذكر خصائصها وطبائع اهلها ان ارضها شامية في طيبها تهامية في اعتدالها واستوائها. اهوازية في عظم خراجها وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها

---

١ - الغرناطي ابو احمد الاندلسي « تحفة الألباب »، باريس، المطبعة الوطنية، ١٩٢٥، ص ٩٦ - ٩٩.

صينية في معادنها هندية في عطرها وذكائها. واهلها عرب في الانساب والمعزة والانفة وفصاحة الالسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع؛ هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها؛ بغداديون في ظرافتهم ونظافتهم ودقة اخلاقهم ونباهتهم ولطافة اذهانهم ودرة افكارهم؛ نبطيون في استنباطهم المياه ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة؛ صينيون في اتقان الصنائع العملية واحكام المهن الصورية؛ تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهمتها.»[1]

من المعروف

«وفي الصين مناديل الغمر التي اذا اتسخت القيت في النار فتنقى ولا تحترق. والعرب تقول لكل طرفة من الأواني وما اشبهها كائناً ما كانت صينية لاختصاص الصين بالطرف.

«وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق كقراطيس مصر لأهل المغرب وفي بلخ أنها شبيهة بالعراق وخراسان والهند.

«وفي غرفة ان الاعمار بها طويلة والامراض بها قليلة.

«وفي لبست انه يقال من مات فيها مغفور له فقد انتقل من جنة الى جنة .

«وفي طوس ان الله تعالى الان لاهلها الحجارة كما الان لداوود عليه السلام الحديد حتى أنهم يتخذون منها ما يتخذ الناس من الزجاج كالاقداح والبزان وغيرهم من الاواني.

«وفي نيسابور ان اهلها لا يكرمون الغريب ولا يؤاسون القريب .

«وفي جرجان وتسمى بغداد الصغرى أنها قاتلة للغربي وذلك لاختلاف هوائها وكان أبو تراب النيسابوري يقول لما قسمت الدنيا بين الملائكة وقعت جرجان في قسمة أبي يحيى يعني ملك الموت.

---

١ - نفس المكان ص ١٩٩ - ٢٠٠.

« وفي الري أنها ترم بأهلها .

« وفي اصبهان حجر الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران .

« وفي فارس ان لشيراز نعمة طيبة ليس فيها عداها من كور فارس .

« وفي الاهواز قصبتها مخصوصة بالحما الدائمة حتى انها ليست الى الغريب بأسرع منها الى القريب. ولا يكاد يوجد فيها وجنة حمراء لصبي ولا لصبية وربما لمست القابلة المولود فتجده محموماً. ومن عجائب خضائصها ان جميع اصناف الطيب تستحيل رائحته فيها الاستحالة الشديدة حتى لا يوجد له رائحة وهذا من كثرة الرطوبة وغلظ الهواء والبخارات الفاسدة وهذا موجود بالقسطنطينية وانطاكية.

«وفي البصرة ان للغربان بها مسودا ويقع على كل نخلة قد صرم نخلها.

«ولا يقع على ما لم يصرم ولو بقي عليها عذق واحد ومن عجائبها ايضاً ان الثمر يكون مصبوباً في بيادره فلا يقع على شيء منه ذبابة لا في ليل ولا في نهار واهل البصرة يتخذون المظلات على الثمر والعجوة خوفاً عليها من الجفاف ومن شأن الذباب الفرار من الشمس الى الظـل فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة فيتوهم ان هاتين الحالتين من طلسم له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب وليس الامر كذلك وانما هو من حماية الله ووقايته.

« وفي جزيرة العرب ان مكة يريع الذيب فيها الظبي ويعارضه ويصيده فاذا دخل الحرم كف عنه ومنها انه لا يسقط على الكعبة حمام الا ان كان عليلاً وان من عادة الطير اذا حاذت الكعبة ان تفترق فرقتين لا تعلوها.

« وفي المدينة على ساكنها الصلاة والسلام ان العطر والبخور يوجد لهما من الضوع والرائحة الطيبة اضعاف ما يوجد في سائر البلاد ولها في نفسها نعمة طيبة ورائحة عطرية وان لم يكن فيها شيء من الطيب البتة ولهذا سميت طيبة وطاب قول الشاعر في ذلك:

مـــا عـــلى من مس تربـــة احمد ان لا يمس طول الزمـان غواليـا

وفي اليمن ان السيف متى قلع بالهند وطبع باليمن فناهيك به جودة.
وفي الموصل قال الجاحظ من اقام بالموصل حولاً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً.»[1]

المشهورات

«فصل الهند بحرها درٌّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر. وكرمان ماؤها وشل وتمرها دقل وعودها بهل. وخراسان ماؤها جامد وعودها جاهد. وعمان حرها شديد وصيدها عتيد. والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح وحربها صلح مأوى كل تاجر وطريق كل عابر. والكوفة ارتفعت عن حر البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط جنة بين حماة وكنت.

والشام عروس بين نساء جلوس. ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد تطول الاعمار وتسود الابشار.

فصل ونذكر خصائص بلاد العملية فيقال حكماء يونان واطباء جنديسابور وصاغة حران وحاكة اليمن وكتاب السوار.

فصل ونذكر خصائص البلاد في الاحجار فيقال فيروج نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجزع ظفار ونجاد بلخ ومرجان افريقية.

فصل نذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذوات السموم فيقال افاعي سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزون وحرارات الاهواز وبراغيث ارمينية وفار ارزن ونمل بافرقين وذباب تدفافان واوزاغ.

فصل ونذكر خصائص البلاد في الملابس فيقال برود اليمن وقصب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين واكسية فارس وحلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعمائم الابلة ومنير الري وملحم مرو.

---

١ - نفس المكان ص ٢٠٢ - ٢٠٦

فصل ونذكر خصائص البلاد في الاوبار فيقال سنجاب خرخز وسمور بلغار وثعاليب الخزر وحواصل هراة وقماقم التغزغز.

فصل ونذكر خصائص البلاد في المركوب فيقال عتاق البادية ونجائب الحجاز وبراذين طخارستان وحمير مصر وبغال بردعة.

فصل ونذكر خصائص البلاد في الحلو فيقال سكر الاهواز وعسل اصبهان وفانيد ماسكان.

فصل ونذكر خصائص البلاد في الثمار فيقال رطب العراق وتمر كرمان وعناب جرجان واجاص سبت وسفرجل نيسابور وتفاح الشام ومشمش طوس وكمثرى نهاوند واترنج طبرستان ونارنج البصرة وتين حلوان وعنب بغداد ومشمش هراة وموز اليمن وجوز الهند وبطيخ خوارزم وبقلاء الكوفة.

فصل ونذكر خصائص البلاد في الرياحين فيقال نرجس جرجان وورد جور ونلوفير شروان ومنثور بغداد وزعفران قم وسمرقند.[1] »

---

١ - نفس المكان ص ٢٠٧ - ٢١٤

الفصل الثالث

المقدسيّ

يعتبر ابو عبد الله محمد بن ابي بكر البناء، المعروف بالمقدسي لانه ولد في بيت المقدس، خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت اوجها في القرن الرابع (القرن العاشر). فالرجل يمثل العالم الصحيح، يطلع على ما كتب والف، ويتنقل في الاقطار ويزور الديار، ثم يعطي هذا كله الوقت ليختمر. وينظمه بحوثاً وفصولا، ويدونه بعد ان يقلب الامر على وجوهه. ومن ثم كان كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المنتظم المبوب المقسم. هذا فضلاً عن انه يحوي نقداً علمياً صريحاً اديباً لشيوخه في هذا الموضوع. وهو يقدم للوصف الجغرافي الدقيق بذكر ما دفعه الى الاهتمام بهذا الموضوع ثم يعرض القواعد التي اسس الكتاب عليها، ثم يذكر البحار والانهار، وبعد ذلك يقدم للقارىء الاسماء المتفقة اسما والمختلفة صقعا وينتقل الى الخصائص في الاقاليم فيجملها، ويذكر المذاهب والذمة. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد ان يعدد اقاليمه الاربعة عشرة التي قسم اليها مملكة الاسلام، يأخذ هذه الاقاليم فيفصل كورها وقصباتها ثم يعود فيجمل الاقليم عامة اقتصاداً وادارة وما الى ذلك.

وقد تم له وضع كتابه في شيراز سنة ٩٨٥/٣٧٥ وكان له من العمر اربعون سنة.

والمقدسي دقيق الملاحظة شديد الحرص على التعرف على البلاد وسكانها.

وكتابه، فضلا عن انه فريد في الجغرافية، فهو، في رأينا، من كتب الادب الجميلة، لما احتوى من رصين الاسلوب ورقيق العبارة ودقيق التعبير.

وقد رأينا ان نترك للمقدسي الحديث، فننقل عنه فقرات تبين آراءه وتنظيمه ومعرفته وأدبه. وها هو يقدم الى القارىء ما دفعه الى وضع الكتاب فيقول «اما بعد فانه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع اخبارهم، فأحببت ان اتبع سُنَنهم واقفو سننهم وأقيم علماً أحيي به ذكرى ونفعاً للخلق أرضي به ربي، ووجدت العلماء قد سبقوا الى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الاخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه. فرأيت ان أقصد علماً قد اغفلوه وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاخلال وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف اهل البلد في كلامهم واصواتهم والسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم واوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم واليهم، وذكر مواضع الاخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال.»[1]

ويعدد الأسباب التي عاينها حتى تم له وضع هذا الكتاب فيقول:

«اعلم ان جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وان كانت مختلفة غير ان أكثرها بل كلها سماع لهم، ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه واقل سبب الا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب. فانتظم كتابنا هذا ثلاثة اقسام احدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره. وما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة الا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا اهل زهد الا وقد خالطتهم ولا مذكر وبلد الا

١ - المقدسي ص ١ - ٢.

وقد شهدتهم حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب. ولقد سميت بستة وثلاثين اسماً دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني... وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق... وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها. ثم انه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا وقد اخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت الى المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس. وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي العصائد. وطردت في الليالي من المساجد وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً. وصحبت عباد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسي بالزبيل وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق. وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطريق الفسّاق وبعت البضائع في الاسواق وسجنت في الحبوس واخذت على اني جاسوس وعاينت حرب الروم بالشواني وضرب النواقيس في الليالي وجلّدت المصاحف بالكرى واشتريت الماء بالغلاء وركبت الكنائس والخيول ومشيت في السمائم والثلوج ونزلت في عرصة الملوك الأجلّة وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة. وكم نلت العز والرفعة ودبر في قتلي غير مرة. وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق واكلت الجلّبان والخبز بالسيق ومن ضيافة ابراهيم الخليل وجميز عسقلان السبيل وكسيت خلع الملوك وأمروا لي بالصلات وعريت وافتقرت مرات وكاتبني السادات ووبخني الاشراف وعرضت علي الأوقاف وخضعت للاخلاف ورميت بالبدع واتهمت بالطمع واقامني الامراء والقضاة اميناً ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً وامتحنت الطرارين ورأيت دول العيارين. واتبعني الأرذلون وعاندني الحاسدون وسعى بي الى السلاطين. ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه. ومثل

هذا كثير. ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا اننا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ويميزه من غيره. فكم بين من قاسى هذه الاسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع. ولقد ذهب لي في هذه الاسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علي من التقصير في امور الشريعة ولم يبق رخصة مذهب الا وقد استعملتها.... غير انني لم اخرج عن الفقهاء الاربعة ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة.»[1]

وقد اقتصر المقدسي على ديار الاسلام وعلى البلاد التي زارها وهي الاقاليم الاربعة عشرة. العربية منها ستة هي جزيرة العرب والعراق واقور والشام ومصر والمغرب والباقية اقاليم العجم وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند. ولم يعرض للهند ولا الأندلس لأنه لم يزرهما. ورسم للبلاد التي كتب عنها خرطاً قال عنها: «وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب... ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام.»[2]

وقد رأينا ان ننقل للقارىء وصف المقدسي للرملة من فلسطين، ويرى البعض انها بلد المقدسي اصلاً، وشيراز، حيث وضع كتابه القيم الذي نقحه بعد ثلاث سنوات وخلفه لنا مصدراً قيماً لما كانت عليه دنيا الاسلام في القرن الرابع (العاشر). فها هو يقول عن الرملة «الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه جامعة الاضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاصلة وقرى نفيسة. والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة. ليس في الاسلام ابهى من جامعها ولا احسن واطيب من حوّاريها ولا ابرك من كورتها ولا الذ من فواكهها. موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات

---

١ - نفس المكان ص ٤٣ - ٤٥.

٢ - نفس المكان ص ٩.

فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات انيقة نظيفة وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وامور جامعة. قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر وجمعت التين والنخل وانبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل. غير انها في جزيرة من الوحل وفي الصيف ذريرة من الرمل»[1].

اما شيراز فيصفها بقوله انها مصر «معتدل الهواء طيب في الصيف وفي الشتاء وماء خفيف اذا شربت مما جرى ومياه الآبار حلوة قريبة المستقى اهل يسار وتجارة وتعطف على الغرباء. لهم خصائص وصنائع وعقل ودها ومعروف وصدقات وبها مشايخ ووجوه وتنّا واسناد لولا لحن المستملي وصاحب الاملا، كثير الصوفية ومجالس القرا. ولهم غدوات الجمع ختمات لها نور وبها جامع لا نظير له في الثانية اقاليم له يوم الجمعة سما باساطين على عمل المسجد الاقصى. وبه دار امارة اليها المنتهى ولهم... بيت قرى نظيفة الاطعمة والهرائس لا الشوا قد اشتهر بالاكسية والبرود ودار المرضى.»[2]

المقدسي - احسن التقاسيم

ذكر الخصائص في الاقاليم

«اظرف الاقاليم العراق وهو اخفّ على القلب واحد للذهن وبها تكون النفس اطيب والخاطر أدقّ اذا كانت كفاية. واجلّها واوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّه وبردا المشرق. وأكثرها صوفاً وقزاً ودخلا على قدرة الديلم. وأجودها البانا واعسالا والذّها أخبازاً وأمكنها زعفرانا الجبال. وأكثرها ثماراً وأرخصها اسعاراً ولحوماً واثقلها قوماً الرحاب. وأسفلها قوماً وأشرهم اصلاً وفصلاً خوزستان. وأحلاها تموراً واوطاها قوماً كرمان. وأكثرها فانيذا وارزازاً ومسكا وكفارا السند، واكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقا فارس.

---

١ - نفس المكان ص ١٦٤.

٢ - نفس المكان ص ٤٢٩ - ٤٣٠

وأشدها حراً وقحطاً ونخيلا جزيرة العرب. وأكثرها بركات وصالحين وزهادا ومشاهدا الشام. وأكثرها عبادا وقراء واموالا ومتجراً وخصائص وحبوبا مصر. واخوفها سبلا واجودها خيلا واوسطها قوما اقور. واجفاها واثقلها واغشها قوما واكثرها مدنا واوسعها ارضا المغرب. وقال عبد الرحمان بن اخي الاصمعي «دخلت على الجاحظ فقلت افدني في البلدان فائدة قال نعم الامصار عشرة: المروة ببغداد والفصاحة بالكوفة والصنعة بالبصرة والتجارة بمصر والغدر بالري والجفاء بنيسابور والبخل بمرو والصلف ببلخ والحرفة بسمرقند. وقد صدق لعمري» ألاّ ان بنيسابور ايضاً صناعاً حذاقاً وبمصر تجارات وبمكة فصاحة وبمرو دهاة وصنعاء طيبة الهواء وبيت المقدس حسنة البنا، وصغر وجرجان موضع الوبا، ودمشق كثيرة الانهار، وصغد ممتدّة الأشجار، والرملة لذيذة الثمار، وطبرستان دائمة الامطار، وفرغانة رخيصة الاسعار. والمروة والجحفة معدن الدعار، والرقة موضع الاخطار، وهمذان وتنيس مركز الاحرار، والشام اقليم الاخيار، وسمرقند فرضة التجار. ونيسابور بلدة الكبار، والفسطاط آهل الامصار. وطوبى لأهل الفَرْج بعدل الشار ولاصفهان الهواء والحلل والفخار، ورسوم شيراز على الاسلام عار، وعدن دهليز الصين مع صحار، وبالصغانيان الكلأ والثمار والاطيار، وبخارا جليلة لولا الماء وحريق النار، وبلخ خزانة الفقه مع الرحب واليسار، وايليا تصلح لاهل الدين والدار، واهل بغداد قليلو الاعمار، وصنعاء ونيسابور بالضد... فان سأل سائل أي البلدان اطيب نظر فان كان ممّن يطلب الدارين قيل له بيت المقدس، وان كان مخلصاً آمناً من الطمع قيل مكّة، وان كان ممّن يطلب النعمة والحيازة والرخص والفواكه قيل له كل بلد أجزاك وإلا فعليك بخمسة أمصار دمشق والبصرة والرّي وبخارا وبلخ، او بخمس مدائن قيساريّة وباعيناثا وخجندة والدينور ونوقان او بخمس نواح الصغد والصغانيان ونهاوند وجزيرة ابن عمر وسابور فاختر ما شئت منها فانها منازه الاسلام. وأمّا الاندلس فيقال انها جنّات ومستفاض جنات الدنيا اربع غوطة دمشق ونهر الابلّة وروضة الصغد وشعب بوّان. ومن أراد التجارة فعليه بعدن او عمان او مصر وكلّما

نذكر من عيوب اهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل خاصّة الفقهاء لأني رأيت الفضل فيهم. وأعلم ان كلّ بلد فيه صاد فأهله حمق إلا البصرة فان اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر فنعوذ بالله. وكل بلد نسبت صاحبه اليه فلقيت الزاي الياء فهو داه مثل رازي مروزي سجزي. وكل بلد آخره ان فله خاصية او طيبة مثل جرجان موقان أرّجان. وكل بلد شديد البرد يحيط به انهار فان في أهله شغباً وخروجاً مثل دمشق وسمرقند والصليق. وكل بلد رحب رخيّ فان المعايش به ضيقة إلا بلخ. وأعلم ان بغداد كانت جليلة في القديم وقد تداعت الآن الى الخراب واختلت وذهب بهاؤها ولم استطبها ولا أعجبت بها وان مدحناها فللتعارف. وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم ولا أعلم في الاسلام بلداً أجل منه، وأما اقليم المشرق فقد فشا فيه الجور وفسد وهو خير من غيره. وأقاليم الاعاجم فلا تطيب لأهل اسفل، ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا انها أطيب بلد في الاسلام لانها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور وغور وبحور معتدلة الهواء لذيذة الثمار سرية الأهل غير ان فيهم جهلاً خزانة مصر ومطرح البحرين رخيّة»[1].

إقليم الشام

«اقليم الشام جليل الشان ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا ومطلب الفضلا، به القبلة الاولى، وموضع الحشر والمسرى، والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجبلية والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق وامه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب ارميا وحبسه ومسجد اورياء وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء؛ وقرى أيوب، ومنازل

١ - نفس المكان ص ٣٢ - ٣٦

يعقوب. والمسجد الأقصى، وجبل زيتا. ومدينة عكا، ومشهد صديقا، وقبر موسى ومضجع ابراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان. ومدائن لوط وموضع الجنان؛ ومساجد عمر ووقف عثمان، والباب الذي ذكره الرجلان. والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران. والمكان القريب ومشهد بيسان؛ وباب حطة ذو القدر والشان. وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم ورواحيل ومجمع البحرين، ومفرق الدارين. وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصي. وفضائل لا تخفى. وفواكه ورخا. واشجار واميا، وآخرة ودنيا، به يرق القلب وينبسط للعبادة الاعضا. ثم به دمشق جنة الدنيا، وصغر البصرة الصغرى. والرملة البهية وخبزها الحوارى. وايليا الفاضلة بلا لاوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء، وجبل بصرى وكرومه فلا تنسى، وطبرية الجليلة بالدخل والقرى. ثم البحر يمد على طرفه فالحمولات فيه اليه ابداً وبحر الصين متصل بطرفه الاقصى. له سهل وجبل واغوار واشياء، والبادية على تخومه كالزقاق منه الى تيا. وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا، ويسار وتجار ولباقة وفقها. وكتاب وصناع واطبا. الا أنهم على خوف من الروم وفي جلا. والاطراف قد خربت وامر الثغور قد انقضى. وليسوا كالاعاجم في العلم والدين والنهى. بعض قد ارتدّ وبعض للجزية في ادا. يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السما. عامتهم جهال أو غوغا. لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعداء.»[1]

جمل شؤون هذا الاقليم (الشام)

« هو اقليم متوسط الهواء الا وسطه من الشارة الى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل. وقال لي يوماً غسان الحكيم ونحن باريحاء: ترى هذا الوادي؟ قلت بلى! قال: هو يمد الى الحجاز ثم يخرج الى اليمامة ثم الى عمان وهجر ثم الى البصرة ثم الى بغداد ثم يصعد الى ميسرة الموصل الى الرقة وهو وادي

١ - نفس المكان ص ١٥١ - ١٥٢.

الحر والنخيل. واشد هذا الاقليم برداً بعلبك وما حولها. ومن امثالهم قيل للبرد اين نطلبك؟ قال بالبلقاء قال فان لم نجدك قال بعلبك بيتي. وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين. وكلما علا منه نحو الروم كان اكثر انهارا وثمارا وابرد هواء وما سفل منه فانه افضل واطيب والذ ثمارا واكثر نخيلا. وليس فيه نهر يسافر فيه انما فلسطين الى طبرية ولا تجد فيه مجوسيا ولا صابئاً، مذاهبهم مستقيمة، اهل جماعة وسنة واهل طبرية ونصف نابلس وقدس واكثر عمان شيعة، ولا ما فيه لمعتزلي انما هم في خفية. وببيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكيا ولا داوديا. وللاوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب اصحاب الحديث والفقهاء شفعوية. واقل قصبة او بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم فان قيل لم لم يقل والعمل فيه على مذهب الشافعي والصدور ثم شفعوية قيل له هذا كلام لا تمييز له لان مذهب الشافعي الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر ولا نقنت الا في النصف الاخير من شهر رمضان في الوتر وغير ذلك ما لم يكن يستعمله اهل الشام وينكرونه. الا ترى ان ملكهم لما امر بالجهر بالبسملة بطبرية كيف تظلموا منه الى كافور الاخشيدي واستبشعوا ما فعله واليوم اكثر العمل على مذاهب الفاطمي ونحن نذكرها مع رسومهم في اقليم المغرب ان شاء الله تعالى. والغالب فيه من القراءات حروف ابي عمرو الا بدمشق فانه لا يوم في الجامع الا من يقرأ لابن عامر وفي شائعة فيهم مختارة عندهم وقد فشت قراءة الكسائي في الإقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها.»[١]

جمل شؤون هذا الاقليم (مصر)

« هذا اقليم اذا اقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه واذا اجدب فنعوذ بالله من قحطه يمد سبع سنين حتى يأكلون الكلاب ويقع فيهم الوباء المبرح. اشد حراً من سواحل الشام ويبرد في طوبة برداً شديداً. به نخيل كثيرة وعامة ذمته

---

١ - نفس المكان ص ١٧٩ - ١٨٠.

نصارى يقال لهم القبط ويهود قليل، كثير المجذمين وبيت الجرب لأنه عفن. واكثر ادمهم السمك وعلى مذاهب اهل الشام غير ان اكثر فقهائهم مالكيون الا ترى انهم يصلون قدام الامام. واعلى القصبة وأهل صندفا شيعة وسائر المذاهب بالفسطاط موجودة ظاهرة وثم محلة الكرامية وجلبة للمعتزلة والحنبلية والفتيا اليوم على مذاهب الفاطمي التي نذكرها في اقليم المغرب، والقراآت السبع فيه مستعملة غير ان قراءة ابن عامر اقلها. ولما قرأت بها على ابي الطيب ابن غلبون قال دع هذه القراءة فانها عتيقة. قلت قيل لنا عليكم بالعتيق قال فعليك بها. وقرأت عليه لابي عمرو فكان يأمرني بتفخيم الرآء من من مريم والتورية والغالب عليهم والمختار عندهم قراءة نافع. وسمعت شيخاً في الجامع السفلاني يقول ما قدم في هذا المحراب امام قط الا وهو يتفقه لمالك ويقرأ لنافع غير هذا يعني ابن الخياط. قلت ولم ذلك؟ قال لم نجد اطيب منه وكان شفعوياً ابو عمريا لم ار في الاسلام احسن نغمة منه. لغتهم عربية غير انها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية.

«وهو بلد التجارات يرتفع منه اديم جيد صبور على الماء ثخين لين والبطائن الحمر والهملختنات والمثلث - هذا من المصر ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز وكتان دون بوصير قريدس الكتان الرفيع ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القفاف والحبال من الليف في غاية الجودة ولهم القباطي والارز والخيش والعبّاداني والحصر والحبوب والجُلبان ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك الخصائص. ولا نظير لاقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وحذوهم وهملختاتهم وليفهم ووزهم وموزهم وشمعهم وقندهم ودقهم وصبغهم وريشهم وغزلهم واشنانهم وهريستهم ونيدتهم وحمصهم وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحصرهم وحمرهم وبقرهم وحزمهم ومزارعهم ونهرهم وتعبدهم وحسن نغمتهم وعمارة جامعهم وحالومهم وحبشهم وحيتانهم ومعايشهم وتجاراتهم وصدقاتهم كل ذلك في غاية الجودة. وقد

اجتمع بها من خصائص فلسطين القلقاس وهو شيء على قدر الفجل المدور عليه قشر وفيه حدة يقلى بالزيت ويطرح في السكباج والموز وهو على مقدار الخيار عليه مزود رقيق يقشر عنه ثم يؤكل له حلاوة وعفوصة، والجميز وهو اصغر من التين له ذنب طويل، والترمس وهو على قدر الظفر يابس مر يحّلى ويملح، والنبق وهو على قدر الزعرور فيه نواة كبيرة حلو وهو ثمرة شجرة السدر.»[1]

---

١ - نفس المكان ٢٠٢ - ٢٠٤.

الفصل الرابع

المعاجم الجغرافية

الصفة الغالبة على القرن السادس (القرن الثاني عشر) هي انعدام الخلق في الفكر العربي، واهتمام العلماء والأدباء بوضع موسوعات ومعاجم تتناول جهد الاسبقين في مختلف المواضيع والبحوث. ولا تختلف الجغرافية في ذلك عن غيرها من ضروب المعرفة. ولعل ابرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا الصنف من التأليف هو ياقوت الحموي.

ولد ياقوت في ديار الروم، ومن هنا تسميته احيانا بالرومي، وكان ذلك في سنة ٥٧٥/ ١١٧٩ . وقد اسر وهو حدث، وحمل إلى سوق الرقيق ببغداد حيث اشتراه عسكر بن ابراهيم وهو تاجر بغدادي أصله من حماه، فنسب ياقوت اليه وغلب عليه لقب الحموي. ورأى عسكر ان يفيد من هذا الحدث النابه ليستعين به في حساباته وتجارته فوضعه فى مدرسة حيث تعلم الكتابة. الا ان ياقوت افاد اكثر من ذلك اذ اهتم بالنحو والادب. وارسله سيده في تجارات له حملته الى جزيرة كشم في الخليج العربي والى عُمان وديار الشام. فاغرم ياقوت بالرحلة وتعرف الى البلاد التي زارها.

وقد اعتقه عسكر سنة ٥٩٦/ ١١٩٩ . والظاهر انه حدث بينه وبين سيده القديم جفاء. فتعاطى ياقوت النسخ ليعيش منه. وفي هذه الاثناء اتصل بالعكبري فأفاد منه كثيرا في اخبار الادب والادباء والرواة. وبعد ذلك عاد الود بينه وبين سيده القديم الى ما كان عليه (٦١٦/ ١٢١٩) وعاد ياقوت يرحل في التجارة لعسكر، فلما رجع الى بغداد وجد عسكر قد مات. ولعل

الرجل أوصى لياقوت ببعض ثروته اذ انه تعاطى بعد ذلك التجارة لحسابه الخاص.

وها نحن نجد ياقوت يتنقل من قطر الى قطر. فهو مرة في تبريز واخرى في مصر وثالثة في مرو، حيث قضى سنتين يلتهم ما في خزائنها من الكتب وهي كثيرة جدا. وقد بدأ هناك بوضع كتابه الهام «معجم البلدان» (١٢١٥/٦١٢). ورحل الى خوارزم (خيوه الحديثة) حيث استقر بعض الوقت، لكن لما بلغه تحرك جنكيز خان نحو الغرب هرب الى الموصل (١٢٢٠/٦١٧) مخلفا وراءه كل ثروته، فوصلها معدما. ومنها كتب الى الوزير ابن القفطي، وكان في حلب، يرجوه العون، فامده بما قوم به أوده، واستدعاه الى حلب. لكن ياقوت عاد بعد سنتين الى الموصل، حيث انصرف الى اتمام معجمه الذي فرغ من وضعه في ٢٠ صفر ١٣/٦٢١ آذار - مارس - ١٢٢٤، ثم زار مصر، وعاد الى حلب فعمل في تنقيح المعجم. وتوفي في حلب في رمضان ٦٢٦/آب - اغسطس - ١٢٢٩.

يروي ياقوت انه لما كان في مرو عرضت في مجلس صاحبها يوما قضية تتعلق باسم مكان هل هو حباشة (بضم الحاء) ام حباشة (بالفتح). وارتأى ياقوت انه بالضم وخالفه الآخرون[١]. فاراد ان يثبت صحة ما ذهب اليه بالنقل عن العلماء، فعمل في خزائن الكتب هناك طويلا، فلم يجد بغيته (وان كان قد تثبت من الامر بعد ذلك بمدة طويلة[٢]).فكانت هذه الحادثة دافعا له على وضع المعجم. فهو يقول في ذلك: «فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم الى كتاب في هذا الشأن مضبوطا، وبالاتقان وتصحيح الالفاظ بالتقييد مخطوطا، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا، والى ضوء الصواب داعياً، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الاولون. ولم

---

١ - ياقوت، شهاب الدين «معجم البلدان»، بيروت، صادر ١٩٥٥ ج ١ ص ١٠.
٢ - نفس المكان ص ١٠.

يهتد لها الغابرون.»[1]

وياقوت أمين في نقله عن غيره، فهو ينسب كل شيء اخذه عن الآخرين الى صاحبه. يضاف الى ذلك انه يتحدث في المقدمة عن مصادره المكتوبة حديثاً جيلاً علمياً. انه ينبئنا ان القدامى، مثل بطلميوس وغيره كتبوا عن الارض والاماكن وسموا علمهم جغرافيا، لكن الاماكن التي كتبوا عنها زالت وتغيرت اسماؤها بحيث لم يتمكن هو من التعرف عليها. ثم يشير اشارة لطيفة الى الاسلاميين من الذين كتبوا في صورة الارض والمسالك والممالك وما الى ذلك، فيذكر اولئك الذين رجع الى مؤلفاتهم وهم: ابن خرداذبة وابن واضح والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمهلبي والبغدادي والبكري. على ان ياقوت استعان بفئة أخرى من الرواة وأهل الادب واللغة ومؤلفاتهم. ذلك بانه وجد ان هؤلاء قد ذكروا بعض المعلومات المفيدة عن الاماكن» فيما وضعوه عمن ترجموا له.»[2]

ويحدثنا ياقوت عن طريقة أخذه وافادته من مصادره ومخبريه فيقول: «واستقصيت لك الفوائد جلها او كلها، وملكتك عفواً صفواً عقدها وحلها، حتى لقد ذكرت اشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وانا مرتاب بها نافر عنها متبرىء الى قارئها من صحتها، لانني كتبتها حرصاً على احراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فان كانت حقاً فقد أخذنا منها بنصيب المصيب، وان كانت باطلا فلها في الحق شرك ونصيب، لانني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في ايرادها كما اوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك حقا كان او باطلا، فان قائلاً لو قال: سمعت زيداً يكذب، لأحببت ان تعرف كيفية

---

١ - نفس المكان ص ١٠.
٢ - نفس المكان ص ١١.

كذبه.»[1]

ولم يكن الرجل جاهلاً الجهد الذي يبذله ولا قيمة معجمه، فتراه يعدد صفاته قائلاً: «وعلى ذلك فانني اقول ولا احتشم، وادعو الى النزال كل علم في العلم ولا انهزم، ان كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على اضرابه، لا يقوم بابراز مثله الا من أيد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجد، وطوح لاجله بنفسه فأبعد، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته، وساعده العمر بامتداده وكفايته، وظهرت منه امارات الحرص وحركته.»[2]

وكان ياقوت يرى ان معجمه يجب الا يختصر قط. ودفاعه عن وجهة رأيه ووصيته للخلف طريفة. جاء في ذلك قوله «ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً، فأبيت ولم اجد لي على قصر هممهم اولياء ولا انصارا. فما انقدت لهم ولا ارعويت، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ان لا يضيع نصبي، ونصب نفسي له وتعبي، بتبديد ما جمعت، وتشتيت ما لفقت، وتفريق ملتئم محاسنه، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه، باقتضابه واختصاره، وتعطيل جيده من حليه وانواره، وغصبه اعلان فضله واسراره. فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها، ينضي الركاب اليها. فان اجبتني فقد بررتني، جعلك الله من الابرار، وان خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار.»

«ثم اعلم ان المختصر لكتاب كمن اقدم على خلق سوي، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصلم الاذنين، او كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً، او كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً.»[3]

ومع ذلك فلم ترع وصية ياقوت ورغبته. ذلك بان ابن عبد الحق انتزع من معجم البلدان مادته الجغرافية ووضعها في كتاب سماه «مراصد الاطلاع في

---

١ - نفس المكان ص ١٢.

٢ - نفس المكان ص ١٣.

٣ - نفس المكان ص ١٣ - ١٤.

اسماء الأمكنة والبقاع »، كما ان السيوطي لخص معجم البلدان في كتاب اسمه « مختصر معجم البلدان ».

وقبل ان يعرض ياقوت معجمه مرتباً على حروف الهجاء، يقدم بين يدي القارىء خمسة فصول يتناول فيها صورة الارض، ومعنى الاقليم، واصطلاحات جغرافية لازمة معرفتها مثل البريد والفرسخ، وحكم الارضين من حيث الفتح والخراج والشرع في ذلك، وجملاً من اخبار البلدان.

معجم ياقوت منجم للمعرفة الجغرافية ومثل للعمل المنظم وللنتاج الذي يستطيعه رجل صنع نفسه بنفسه. وهو الى ذلك يعطينا صورة للعالم الاسلامي قبل ان يهدمه التتار ويعملوا على تحطيم بعض أجزائه.

ياقوت معجم البلدان

الباب الثالث

في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في هذا الكتاب

« فان فسرناها في كل موضع تجيء فيه أطلنا، وان ذكرناها في موضع دون الآخر بخسنا احدهما حقه، ويبهم على المستفيد موضعها، وان ألغيناها جملة أحوجنا الناظر في هذا الكتاب الى غيره، فجئنا بها ها هنا مفسرة، مبينه، مسهلا على الطالب أمرها، وهي البريد، والفرسخ، والميل، والكورة، والاقليم، والخلاف. والاستان، والطسوج، والجند، والسكة، والمصر، وأباذ، والطول، والعرض. والدرجة، والدقيقة، والصلح، والسلم، والعنوة، والخراج، والفيء، والغنيمة. والقطيعة.

« فأما البريد: ففيه خلاف، وذهب قوم الى أنه بالبادية اثنا عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال. وقال أبو منصور: البريد الرسول، وابراده ارساله. وقال بعض العرب: الحمى بريد الموت أي أنها رسول الموت تنذر به، والسفر. الذي يجوز فيه قصر الصلاة، أربعة برد، ثمانية وأربعون ميلاً-بالاميال

الهاشمية التي في طريق مكة، وقيل لدابّة البريد بريد، لسيرها في البريد قال الشاعر:

واني أنصُ العيسَ،حتى كأنني، عليها، بأجواز الفلاة، بريد

«وقال ابن الأعرابي: كل ما بين المنزلين بريد. وحكى بعضهم ما خالف به من تقدم ذكره، فقال: من بغداد الى مكة مائتان وخمسة وسبعون فرسخاً وميلان، ويكون أميالاً ثمانمائة وسبعة وعشرين ميلا. وهذه عدة ثمانية وخمسين بريدا وأربعة أميال. ومن البريد عشرون ميلا. هذه حكاية قوله. والله اعلم. وخبرني بعض من لا يوثق به، لكنه صحيح النظر والقياس، انه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات جهات مملكته، فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها، فشكوا من مروا به من الولاة، وأنهم لم يحسنوا معونتهم. فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم، فاحتجوا بأنهم لم يعلموا انهم رسل الملك، فأمر ان تكون أذناب خيل الرسل واعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به، ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل: بريد أي قطع، فعرب فقيل خيل البريد. والله أعلم.

«وأما الفرسخ: فقد اختلف فيه أيضاً. فقال قوم: هو فارسي معرّب وأصله فرسنك. وقال اللغويون: الفرسخ عربي محض. يقال: انتظرتك فرسخا من النهار أي طويلاً. وقال الازهري: أرى ان الفرسخ أخذ من هذا. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: سمي الفرسخ فرسخا، لأنه اذا مشى صاحبه استراح وجلس. قلت: كذا. قال: وهذا كلام لا معنى له. والله أعلم. وقد روي في حديث حذيفة: ما بينكم وبين أن يصب عليكم الشر فراسخ، الا موت رجل، فلو قيل قد مات صب عليكم الشر فراسخ. قال ابن شميل في تفسيره: وكل شيء دائم كثير فرسخ. قلت: أنا أرى ان الفرسخ من هذا أخذ، لأن الماشي يستطيله ويستديمه. ويجوز في رأيي أن يكون تأويل حديث حذيفة أنه يصب عليكم الشر طويلاً بطول الفراسخ، ولم يرد به نفس الطول، وانما يراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علم لهذه المسافة المحدودة. والله أعلم. وقالت

الكلابية: فراسخ الليل والنهار ساعاتهما وأوقاتهما، ولعله من الأول، وان كان هذا هو الاصل، فالفرسخ مشتق منه كأنه يراد سير ساعة أو ساعات، هذا ان كان عربياً. وأما حده ومعناه، فلا بد من بسط يتحقق به معناه ومعنى الميل معاً. قالت الحكماء: استدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع. فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون اصبعاً، والاصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض. وقيل: الفرسخ اثنا عشر الف ذراع بالذراع المرسلة، تكون بذراع المساحة، وهي الذراع الهاشمية، وهي ذراع وربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستمائة ذراع. وقال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة، ولم أر لهم خلافاً في أن الفرسخ ثلاثة اميال.

« وأما الميل: فقال بطلميوس في المجسطي: الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك، والذراع ثلاثة أشبار، والشبر ست وثلاثون اصبعاً، والاصبع خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها الى بعض. قال: والميل جزء من ثلاثة أجزاء من الفرسخ. وقيل: الميل ألفا خطوة وثلاثمائة وثلاث وثلاثون خطوة. وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه.

« قال ابن السكيت: وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال، لانها بنيت كل مقادير مدى البصر من الميل الى الميل، ولا نعني بمدى البصر كل مرئي فانا نرى الجبل من مسيرة أيام، إنما نعني أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل، وهي بنية ارتفاعها عشر أذرع أو قريباً من ذلك، وغلظها مناسب لطولها، وهذا عندي أحسن ما قيل فيه.

« وأما الاقليم: فقد تقدم من القول فيه اشتقاقاً واحداً واختلافاً في الباب الثاني ما أغنانا عن اعادة ذكره، وإنما ترجمناه ههنا لانه حري بأن يكون فيه، فلما تقدم من أمره دللنا على موضعه ليطلب.

« وأما الكورة: فقد ذكر حمزة الاصفهاني: الكورة اسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان، كما

استعارت الاقليم من اليونانيين فجعلته اسماً للكشخر. فالكورة والاستان واحد. قلت أنا: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم: دارا بجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارا بجرد، ونحو نهر الملك، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة، عليه نحو ثلاثمائة قرية. ويقال لذلك جميعه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة، عليه نحو ثلاثمائة قرية. ويقال لذلك جميعه نهر الملك، وكذلك ما أشبه ذلك.

« وأما المخلاف: فأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن. وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التبع لهم والانتقال لهم، وهو واحد مخاليف اليمن، وهي كورها. ولكل مخلاف منها اسم يعرف به، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليه اسمها. وفي حديث معاذ: من تحول من مخلاف الى مخلاف فعشره وصدقته الى مخلاف عشيرته الاول، اذا حال عليه الحول. وقال أبو عمرو: يقال استعمل فلان على مخاليف الطائف وعلى الاطراف والنواحي. وقال خالد ابن جنبة: في كل بلد مخلاف، بمكة مخلاف، والمدينة، والبصرة، والكوفة.

« قلت وهذا كما ذكرنا بالعادة والالف، اذا انتقل اليماني الى هذه النواحي سمى الكورة بما ألفه من لغة قومه، وفي الحقيقة انما هي لغة اهل اليمن خاصة. وقال بعضهم: مخلاف البلد سلطانه. وحكي عن بعض العرب، قال: كنا نلقى بني نمير ونحن في مخلاف المدينة وهم في مخلاف اليمامة. وقال أبو معاذ: المخلاف البنكرد، وهو ان يكون لكل قوم صدقة على حدة، فذاك بنكرده يؤدي الى عشيرته التي كان يؤدي اليها. وفي كتاب العين يقال فلان من مخلاف كذا وكذا، وهو عند اهل اليمن كالرستاق، والجمع مخاليف. قلت هذا الذي بلغني فيه، ولم اسمع في اشتقاقه شيئاً، وعندي فيه ما اذكره، هو ان ولد قحطان لما اتخذوا ارض اليمن مسكناً وكثروا فيها لم يسعهم المقام في موضع واحد، فجمعوا رأيهم على ان يسيروا في نواحي اليمن ليختار كل بنى اب موضعاً يعمرونه

ويسكنونه. وكانوا اذا ساروا الى ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم أبي تلك القبيلة المتخلفة فيها. فسموها مخلافاً لتخلف بعضهم عن بعض فيها. الا تراهم سموها مخلاف زبيد، ومخلاف سنحان، ومخلاف همدان. لا بد من اضافته الى قبيلة. والله أعلم.

« وأما الاستان: فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال: ان الاستان والكورة واحد. ثم قال: شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان. فخفف بحذف الالف. ومثال ذلك ان رقعة فارس خمسة أساتين، احدها استان دارا بجرد. ثم ينقسم الاستان الى الرساتيق. وينقسم الرستاق الى الطساسيج، وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى. مثال ذلك: اصطخراستان من أساتين فارس. ويزد رستاق من رساتيق اصطخر. ونائين وقرى معها طسوج من طساسيج رستاق يزد. ونياستانه قرية من قرى طسوج نائين. وزعم مؤيد الري ان معنى الاستان المأوى. ومنه يقال: وهما استان كرفت اذا أصاب موضعاً يأوي اليه.

« وأما الرستاق: فهو فيما ذكره حمزة بن الحسن مشتق من روذه فستا. وروذه اسم للسطر والصف والسماط. وفستا اسم للحال. والمعنى أنه على التسطير والنظام. قلت: الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد. فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد. وهو اخص من الكورة والاستان.

« وأما الطسوج: بوزن سبوح وقدوس. فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والاستان. كأنه جزء من اجزاء الكورة. كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءا من الدينار. لأن الكورة قد تشمل على عدة طساسيج، وهي لفظة فارسية أصلها تسو. فعربت بقلب التاء طاء وزيادة الجيم في آخرها. وزيد في تعريبها بجمعها على طساسيج. وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة في سواد العراق. وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا. أضيف كل طسوج الى

اسم. وقد ذكرت في مواضعها من كتابنا باسقاط طسوج.

«وأما الجند: فيجيء في قولهم، جند قنسرين، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الاردن، فهي خمسة أجناد، وكلها بالشام. ولم يبلغني انهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام، قال الفرزدق: فقلت·

مـــا هو إلا الشام تركبـــه كأنما الموت، في أجناده، البغر.

«قال أحمد بن يحيى جابر: اختلفوا في الاجناد، فقيل سمى المسلمون كل واحد من أجناد الشام جنداً، لأنه جمع كورا، والتجند على هذا التجمع، وجندت جنداً اي جمعت جمعا. وقيل: سمى المسلمون لكل صقع جنداً عينوا له يقبضون اعطياتهم فيه منه، فكانوا يقولون: هؤلاء جند كذا حتى غلب عليهم وعلى الناحية.»[1]

ابو الفدا - تقويم البلدان

«ومن تلك البلاد وهران قال في المشترك: وهران بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وبعد الالف نون قال وهي مدينة في بلاد البربر من المغرب على ضفة البحر وهي عن تلمسان على مسيرة يوم.وذكر من رآها ان عندها فرضة تلمسان وهي شرقي تلمسان بشمال قليل فيقرب ان يكون طولها يَه كَ وعرضها لَح نَ.« قال الادريسي: ومدينة وهران على قرب من ضفّة البحر وعليها سور تراب متقن وهي تقابل المريّة من جزيرة الاندلس.وقال ايضاً في كتاب نزهة المشتاق وعلى ستة اميال من اغمات وريكة اغمات ايلان مدينة صغيرة في اسفل جبل درن وهي عن اغمات في جهة الشرق وبها يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم وكانت اليهود لا

---

١ - ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٥ - ٣٨.

تسكن مدينة مرّاكش عن امر اميرها عليّ بن يوسف بن تاشفين.»[1]

« قال ابن سعيد وفي شرقي غذامس ودّان وهي جزائر نخل ومياه واوّلها حيث الطول احدى واربعون درجة والعرض سبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة وفي شرقيها بلاد فزّان وهي ايضاً جزائر نخل ومياه ولها مدن وعمائر اكثر من ودّان والجميع الان في طاعة ملك الكانم [وفزّان بفتح الفاء والزاء المشدّدة والف ونون] وقاعدة فزّان مدينة زويلة.

« وفي جنوبي فزّان وودّان مجالات ازكان وهم برابر مسلمون وفي جنوبيهم جبل طنطنة وهو كبير ممتدّ من الشرق الى الغرب نحو ست مراحل وفي اسفله معدن الحديد الجيد وفي شمالي زويلة مدينة سرت.

« وفي جنوبي قابس الجبل العظيم الممتدّ شرقاً وغرباً فيعرف في جهتها بجبل دمر وفي جهة قفصة بجبل الأوطس وفي جهة القيروان بجبل وسلات، وهو خصيب ويجيء منه الاموال السلطانية وفي جنوبي هذا الجبل مدينة القيروان.»[2]

« ومن البلاد الواقعة بين بلاد المغرب والواحات اوجلة بالجيم واللام وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحاري فيها ماء ونخل.

« قال الادريسي: ومدينة اوجلة مدينة صغيرة متحضّرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة ومنها يدخل الى كثير من ارض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو وارضها.

« وارض برقة ارض واحدة ومياهها قليلة ومنها الى مدينة زلّة عشر مراحل غرباً. وزلّة مدينة صغيرة ذات سوق عامر وهي حصن منيع. ومن زلّة يدخل الى بلاد السودان ايضاً ومن زلّة الى مدينة زويلة عشرة ايام في جهة

---

١ - ابو الفدا « ذكر بلاد المغرب » الجزائر، مطبعة الحكومة، ١٨٣٩ ص ١٠ - ١٢.

٢ - نفس المكان ص ٢٢ - ٢٤.

الغرب والجنوب. ومن زلّة الى سرت تسعة ايام ومن سرت الى ودّان خمس مراحل وودّان هذا ناحية في جنوب سرت وهي قصران وبينهما رمية سهم والقصر الذي يلي البحر خال والذي يلي البريّة مسكون ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرّة وبغربيها غابات وبها توت وتين ونخيل. قال: ومن ارض كوار يجلب الشبّ.

« واوجلة حيث الطول خمس واربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة وفي سمت ارضها مدينة سنترية حيث الطول ثمان واربعون درجة وخمسون دقيقة وهي ايضاً جزائر نخل ومياه في صحارى والجبال محدقة بها وفيها رمان يكون في اوله مرّاً ثم يكون حلواً اذا طاب وهي مهلكة بالوبأ لأهلها فكيف الغرباء وبين البحر وبينها حيث العقبة الصغيرة ثمان مراحل وفي شرقيها وجنوبيها الواحات الشمالية. »[1]

اسفي - من الاقليم الثالث - من اقاصي المغرب

« عن ابن سعيد: ومدينة اسفي على جون من البحر داخل في البرّ. واسفي فرضة مرّاكش وهي مدينة مسوّرة في مستو من الأرض وارضها كثيرة الحجر وليس بها ماء الا من المطر. ولها كروم وليس بها بساتين الا على دواليب وماؤها النبع غير عذب بل يشوبه ملوحة. قال الشيخ عبد الواحد: وهي تشبه حماة ودونها في القدر ولكن ليس نهر يجري بل كرومها ومقاثيها على باب البلد. وأسفي من اقليم دكالة وهي كورة عظيمة من اعمال مرّاكش وبين اسفي وبين مرّاكش اربعة ايام. »[2]

طنجة - من الاقليم الرابع - من اقاصي المغرب

« ومدينة طنجة على فم بحر الزقاق. واتّساع البحر عندها ثلث مجرى. فاذا شرق عنها اتّسع عن ذلك. وهي مدينة اولية وقد استحدث اهلها لهم مدينة

---

١ - نفس المكان ص ٢٦ - ٢٨.
٢ - نفس المكان ص ٣٦.

على ميل منها على ظهر جبل ليمتنعوا بها. وماء طنجة مجلوب من قنيّ اليها من بعد. وطنجة كثيرة الفواكه لا سيّما العنب والكمثرى.... واضيق ما يكون البحر من طنجة الى سبتة وقدره ثمانية عشر ميلاً. وهناك موضع يقال له قصر المجاز ومن طنجة الى قصر المجاز مرحلة لطيفة ومن قصر المجاز الى سبتة كذلك.»[1]

سبتة – من الاقليم الرابع – من اقاصي المغرب

«وسبتة مدينة بين بحرين البحر المحيط وبحر الروم وهي مورد البرّين بر العدوة وبر الاندلس. وهي مدينة حطّ وإقلاع وهي في دخلة من البر في البحر ومدخلها من جهة الغرب وهو ضيق والبحر محيط باكثرها، ولو شاء اهلها لوصلوا البحر حولها وجعلوها جزيرة. واسوارها عظيمة من صخر وميناها بشرقيها والبحر عندها ضيق واذا كان الصحو ابصرت منها الجزيرة الخضراء من برّ الاندلس. ومآؤها مجلوب ولها صهاريج من المطر.»[2]

فاس – من اواخر الاقليم الثالث – من المغرب الاقصى

«وفاس مدينتان يشق بينهما نهر. وفي فاس عدّة عيون تجري. وللمدينتين ثلثة عشر بابا والمياه تجري باسواقها وديارها وحماماتها وليس بالمغرب ولا بالمشرق مثلها في هذا الشأن. وهي مدينة محدثة اسلامية. ونقل ابن سعيد عن الحجازي انهم لما شرعوا في حفر هذه المدينة وجدوا فأساً في موضع الحفر فسميّت بذلك. قال وعلى انهارها داخل المدينة نحو ستماية حجر أرحى تدور بالماء دائماً. واهل فاس مخصوصون برفاهية العيش. ولفاس قلعة بارفع مكان بها ويشق القلعة نهر وفي فاس ثلثة جوامع يخطب فيها. ومنها الى سبتة عشرة ايام ويخرج نهرها نصف يوم من فاس يجري في مرج وازاهر حتى يدخلها. قال في كتاب الاطوال وفاس قصبة طنجة ثم ذكر بعد ذلك انه يقال فاس

١ – نفس المكان ص ٤٨.

٢ – نفس المكان ص ٥٠.

القديم.»[1]

تلمسان - من اوائل الاقليم الرابع - اول المغرب الاقصى

«وتلمسان مدينة مشهورة مسوّرة في سفح جبل ولها ثلثة عشر باباً وماؤها مجلوب من عين على ستة اميال منها، وفي خارجها انهار واشجار. ويستدير النهر بقبليها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصبّ في البحر. وبقعتها شريفة كثيرة المرافق وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديدة اشهرها هنين ووهران. وهنين يقابل المرية من الاندلس ووهران حصينة ولها مياه سائحة وهي على ثمانين ميلاً من تلمسان وملوك تلمسان من بني عبد الواد من زناتة وفي غربي تلمسان بانحراف الى الجنوب مدينة فاس [قال الادريسي ومن تلمسان الى تاهرت اربع مراحل].»[2]

بجاية - من اوائل الاقليم الرابع - من المغرب الاوسط

«وبجاية هي قاعدة المغرب الاوسط ولها نهر على شاطئه البساتين والمنازه في شرقي بجاية ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار. وغربي بجاية جزائر بني مزغنّان وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية... ومزغنّان بفتح الميم وسكون الزاء وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهما الف الاولى مشددة عن الشيخ شعيب. وفي آخر حدّ مملكة بجاية وشرقي قسطينة مرسى الخرز المخصوص بالمرجان وامام هذا المرسى جزيرة سردانية».[3]

قسطينة - من اواخر الاقليم الثالث - من المغرب الاوسط من معاملة بجاية

«وبقسطينة نهر يصبّ في خندقها العظيم ويسمع لذلك دوي هائل ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذوابة النجم لشدة ارتفاع قسطينة عن خندقها.

---

١ - نفس المكان ص ٥٢ - ٥٤.
٢ - نفس المكان ص ٧٠.
٣ - نفس المكان ص ٧٦.

وقسطينة على آخر مملكة بجاية واول مملكة افريقية. قال في نزهة المشتاق: وقسطينة عامرة وبها اسواق وتجارات والحنطة تقيم في مطاميرها ماية سنة لا تفسد. وهي على قطعة جبل منقطع مرتفع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل اليه الا من جهة بابه من غربيها ليس بكبير السعة. ويحيط بقسطينة الواد من جميع جهاتها وبينها وبين مدينة مسيلا ثمانية عشر ميلاً. ومدينة مسيلا حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياهها عذبة وبين مسيلا وقسطينة جبل متصل.»[1]

سطيف - من الاقليم الثالث - من المغرب الاوسط

«ومدينة سطيف مدينة كبيرة بين تاهرت وبين القيروان وهي خصبة ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة سكانها من البربر. قال الشريف الادريسي: وحصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة، وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه. ومنها يحمل الجوز لكثرته الى سائر البلاد وهو بالغ الطيب. وبين سطيف وقسطينة اربع مراحل. وبقرب سطيف جبل يسمّى انكجان وبه قبائل كتامة وبه حصن حصين وبينه وبين بجاية مرحلتان بجاية في الشمال والحصن في الجنوب.»[2]

القيروان - من الاقليم الثالث - من افريقية

«ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الاسلام وهي في جنوبي الجبل والجبل من شماليها وهي في صحراء تصلح لجمال العرب، وكانت قاعدة افريقية في صدر الاسلام وهي اليوم تابعة لتونس. وشرب اهلها من الآبار وليس لها ماء جار وهي في الوطأة. قال في العزيزي ومدينة القيروان اجل مدن المغرب وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد. وشرب اهلها من ماء المطر يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمّى المواحل

---

١ - نفس المكان ص ٨٨ - ٩٠.
٢ - نفس المكان ص ٩٢.

ولها واد في قبلة المدينة تأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه.»[1]

طلميثا - من الاقليم الثالث - مرسى برقة على البحر وعلى طرف الغابة

«وطلميثا فرضة مشهورة وبها قصر فيه يهود تحت خفارة العرب ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل الى غيرها. وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير وعدّة اليهود الذين به الى يومنا هذا ما يزيد على مايتي يهودي. وطلميثا عن الاسكندرية على نحو مسافة شهر، والمراكب ترسي قبالة قصر اليهود وبالقرب منه وتحضر العرب وتبايعهم بالبضائع مقايضة.»[2]

اماكن متفرقة

«أوال. جزيرة بالقرب من القطيف وهي في بحر فارس على مسيرة يوم للريح الطيبة عن القطيف. وبها مغاص مفضل على غيره. وقطر هذه الجزيرة مسيرة يومين من كل جهة. وبها تقدير ثلاثمائة ضيعة وما يزيد. وبها كروم كثيرة الى الغاية ونخيل وأترج. وبها صحراء ومراع ومزدرعها على عيون بها وهي حارة جداً».[3]

«بانياس. من اعمال دمشق بانياس. اسم لبلدة صغيرة ذات اشجار ومحمضات وغيرها وانهار. وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة الى الجنوب. والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون المنيعة. قال في العزيزي: ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج. وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء.»[4]

«بدليس. روي عن بعض أهل تلك البلاد: وبدليس في أرمينية بين

١ - نفس المكان ص ١١٤.

٢ - نفس المكان ص ١٤٢.

٣ - ابو الفدا، منقول عن شيخو، لويس، «مجاني الأدب في حدائق العرب»، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٨٢ ج ١ ص ١٨٩.

٤ - نفس المكان ص ١٩٠ - ١٩١.

ميافارقين وبين خلاط. وهي مدينة مسورة وقد خرب نصف سورها. والمياه تخترق المدينة من عيون في ظاهرها. ولها بساتين في واد. وهي دون حماة في القدر. وهي بين جبال تحف بها. وبردها وشتاؤها شديد وثلوجها كثيرة. قال ابن حوقل: وهي بلد صغير عامر كثير الخير خصب. قال في العزيزي: وبينها وبين خلاط سبعة فراسخ.»[1]

« تدمر. بُلَيْدة ببادية الشام من أعمال حمص وهي في شرقي حمص. وأرض تدمر غالبها سباخ وبها نخيل وزيتون. وبها آثار عظيمة أولية من الأعمدة والصخور. وهي عن حمص على نحو ثلاث مراحل. وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً.»[2]

« حماة. مدينة أوّلية وبلدة قديمة وهي من انزه البلاد الشامية. والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة. وفي داخلها الأرحية على الماء. وبها نواعير على العاصي تسقي اكبرَ بساتينها. ويدخل منها الماء الى كثير من دورها. ونهر حماة يسمى ألأرنط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال. ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد، ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع منه الماء. وهو يجري بكليته من الجنوب الى الشمال وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الرأس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها. ويسير من الرأس شمالا حتى يصل الى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والرأس. ويمر في واد هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب. ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ويمر على سور انطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية».[3]

---

١ - نفس المكان ص ١٩١.
٢ - نفس المكان ص ١٩٥.
٣ - نفس المكان ص ١٩٧ - ١٩٨.

«الشّوبك. من الشراة في بلاد الشام بلد صغير كثير البساتين. وغالب ساكنيه النصارى. وهو شرقي الغور وهو على طرف الشام من جهة الحجاز. وينبع من ذيل قلعتها عينان احداهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه. وتخترقان بلدتها ومنهما شُرْب بساتينها. وهي في واد غربي البلد. وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل الى ديار مصر. وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض وهي على تل مرتفع ابيض مطل على الغور من شرقيه.»(١)

ذكر الجانب الشمالي من الارض

«ومن بلاد تلك الجهات مملكة بولية وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه وهي تقابل مملكة الباسليسة التي من البر الآخر. وملك بولية في زماننا يقال له الريدشار، ويقال لبولية أنبولية أيضاً. وغربي بلاد بوليه بلاد قلفرية ويقال لها قلورية بالواو ايضاً وهي داخلة في مملكة الريدشار صاحب بولية. واهل قلفرية يونان وهي بلاد على ساحل بحر الروم. ومن تلك الممالك مملكة الباسليسة وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة تقابل مملكة بوليه التي من البر الآخر، وبلاد الباسليسة هي من فم جون البنادقة الى جهة قسطنطينية. والباسليسة امرأة هي صاحبة هذه البلاد في زماننا. ومن تلك بلاد المرا وهي مملكة تبتدىء من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً وتشتمل على قطعة من ساحل الروم وعلى بلاد وجبال خارجة عن البحر. وهذه المملكة مناصفة بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم القيتلان. ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد الملفجوط، وبلاد الملفجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم وهي من أعمال قسطنطينية.والملفجوط جنس من الروم لهم لسان يتفردون به. وغربي بلاد الملفجوط بلاد اقلرنس وهي بلاد أهلها يونان تحت حكم الباسليسة وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد الملفجوط وهي واقعة بين الملفجوط وبين

١ - نفس المكان ص ٢٠٤.

الباسليسة. قال الشريف الادريسي: امتداد كنيسة رومية ٦٠٠ ذراع في مثله وهي مسقفة بالرصاص ومفروشة بالرخام وفيها أعمدة كثيرة عظيمة وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية وفيه ماء جار ابداً. وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه البابا، وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة أبواب واحد بعد آخر يفضي الى سرداب فيها مدفون بطرس حواري عيسى عم. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولص. وبجذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزين بها اعيادهم. وفي خارج الكنيسة عند ركن من اركانها عمود عظيم على اربع قواعد من نحاس مربعة كل وجه منها ١٣ ذراعاً، وكلما صعد العمود يدق وفي اعلاه عمود نحاس في اعلاه كرة مذهبة يكون قطرها نحو باعْ ولها بريق ولمعان. وتظهر من ١٣ ميلاً فيعلم بها موضع الكنيسة...

« ومما يقع في شمالي العمارة بلاد الروس وهم شمالي مدينة بلار المذكورة في الجدول وشمالي الروس القوم الذين يبايعون مغايبة. قال بعض من سافر الى تلك البلاد: انهم يتصلون بساحل البحر الشمالي. قال فاذا وصل القفل الى تخومهم اقاموا حتى يعلموا به. ثم يتقدمون الى المكان المعروف بالبيع والشراء ويحط كل تاجر بضاعته معلمة ويرجعون الى منازلهم فيحضر اولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمور والثعلب والوشق وما شاكل ذلك. ويدعونه ويمضون. ثم يحضر التجار فمن اعجبه ذلك اخذه والا تركه حتى يتفاصلوا على الرضى.

« قال ابن سعيد: وعلى ساحل البحر المحيط في الاقليم السابع بلاد بيطو وسكانها الفرنج ومنها يجتاز الملوك لأفرنسة اذا عدموا في أفرنسة عادة متوالية لهم. وفي شمالي بيطو مصب نهر بريس... وفي وسط هذا النهر وجانبيه مدينة بريس قاعدة أفرنسة وهي ثلث قطع كما هي مدينة الباب. فالوسطى التي هي الجزيرة لفرنسيس سلطان الفرنج والجنوبية للجند والشمالية لسائر قوامسهم وتجارهم ورعيتهم. وهذا النهر ينزل من جبل دنبيوس الكبير ويقال له في

الشمال جبل مليحة. ومن شرقيه منبع نهر دنبيوس الذي يقال انه أكبر من النيل ومن جيحون. وهو مشهور بنهر دونا ويسميه الترك طنا. وعلى جانبيه وفي جزره الى مصبه في بحر القسطنطينية من المدن والعمائر الكثيرة الا أنها معجمة الأسماء خاملة الذكر عندنا.»[1]

الادريسي - نزهة المشتاق

« بيت لحم. سرت من بيت المقدس الى مدينة بيت لحم فوجدت على طريقي عين سلوان. وهي العين التي ابرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ولم تكن له قبل ذلك عينان. وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر. وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة. واما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح فبينه وبين المَقْدِس ستة أميال. وفي وسط الطريق قبر راحيل ام يوسف وام ابن يامن ولدي يعقوب. وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً. وفوقه قبة معقودة بالصخر. وبيت لحم هناك وفيها كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع فسيحة مزينة الى ابعد غاية. حتى انه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء. وهي في وطأ من الارض ولها باب من جهة المغرب وبها من اعمدة الرخام كل مليحة. وفي ركن الهيكل في جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح وهي تحت الهيكل. وداخل المغارة المذود الذي وجد به. واذا خرجت من بيت لحم نظرت في الشرق منه كنيسة الملئكة الذين بشروا الرعاة بمولد السيد المسيح.»[2]

« بيروت. مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة. ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير ويحمل الى بلاد الشام. وبها غيضة اشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل الى جبل لبنان.

---

١ - ابو الفدا، منقول عن بلاشير، « منتخبات من اثار الجغرافيين في القرون الوسطى » بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٧.

٢ - الادريسي، منقول عن شيخو، نفس المكان ص ١٩٣ - ١٩٤.

وتكسير هذه الغيضة اثنا عشر ميلاً في مثلها. وشرب اهلها من الآبار. ومنها الى دمشق يومان. قال ابن بطوطة: ومدينة بيروت حسنة الاسواق. وجامعها بديع الحسن. وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد. قال ابو الفداء: وهي على ساحل البحر وهي ذات برجين ولها بساتين ونهر وهي خصبة. وكان بها مقام الأمام الأوزاعي الفقيه. ولها ميناء جليل. وبينها وبين جبيل ثمانية عشر ميلاً.»[٢]

«دمشق. مدينة من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأكثرها مياهاً وأغزرها فواكه وأعمها خصباً وأوفرها مالاً وأكثرها جنداً وأشمخها بناء. ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وطول الغوطة مرحلتان في عرض مرحلة بها ضياع كالمدن. ومدينة دمشق جامعة لصنوف من محاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخزّ والديباج النفيس الثمين العجيب الصفة والقديم المثال الذي يحمل منها الى كل بلد ويتجر به منها الى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها. ولدمشق في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة. وأما الحلاوات فبها منها ما لا يوجد بغيرها ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة. وصناعاتها نافقة وتجاراتها رائجة وهي من أغنى البلاد الشامية. ومنها الى مدينة بعلبك في جهة الشرق مرحلتان.»[١]

من مؤلفين آخرين

«بيت المقدس. هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي. ثم ضرب الدهر ضرباته واستولت عليها الأمم وخربوها. وقد عمرها احد ملوك الفرس. فصارت أعمر مما كانت وأكثر أهلاً. والتي عليها الآن أرضها وضياعها جبال شاهقة. وليس بقربها ارض وطيئة. وزروعها على أطراف الجبال. وأما نفس المدينة ففي فضاء في وسط ذلك

---

١ - نفس المكان ص ١٩٤ - ١٩٥

وارضها كلها حجر. وفيها عمارات كثيرة حسنة. وشرب اهلها من ماء المطر ليس فيها دار الا وفيها صهريج. مياهها تجتمع من الدروب. ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس. لكن مياهها رديئة. وفيها ثلاث برك بركة بني اسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض. قال محمد بن أحمد البشاري المقدسي: انها متوسطة الحر والبرد وقل ما يقع فيها ثلج. ولا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف ولا أنزه من مساجدها. وقد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل. والأشياء المتضادة كالأترج واللوز، والرطب والجوز، والتين والموز.»[1]

« ملطية. بلدة من بلاد الروم ذات أشجار وفواكه وأنهار ويحتف بها جبال كثيرة الجوز. وجميع الثمار مباحة لا مالك بها. وهي قاعدة الثغور وهي شمالي الجبل الدائر الذي سيس في غربيه. وهي بلدة مسورة في بسيط والجبال تحف بها من بعد. ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور البلد. وهي شديدة البرد وهي في الجنوب عن سيواس. وللملطية أيضاً قُنيٌّ تدخل البلد وتجري في دوره وسككه. والجبال محيطة بها على بعد منها.»[2]

« مراكش. من المغرب الأقصى محدثة بناها يوسف بن تاشفين في ارض صحراوية. وجلب اليها المياه واكثر الناس فيها البساتين فكثر وخمها. ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى. وجنوبي مملكة مراكش جبل درن وشماليها مملكة سلا وغربيها البحر المحيط. وشرقيها الجهات التي بين سجلماسة وفاس. ودور مراكش سبعة أميال ولها سبعة عشر بابا. وحرها شديد وهي في شمالي اغمات بميلة يسيرة الى الغرب وبينهما نحو خمسة عشر ميلاً.»[3]

«أجدابية. مدينة في المغرب وهي مدينة كبيرة في صحراء. أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء وبها عين ماء عذبة. ولها بساتين لطاف

---

١ - القزويني، «اثار البلاد واخبار العباد»، غوتنجن، ١٨٤٨ ص ١٠٧ - ١٠٨ (باختصار).

٢ - ابن سعيد، منقول عن شيخو، نفس المكان ص ٢١٢.

٣ - نفس المكان ص ٢٣١.

ونخل يسير وليس بها من الأشجار الا الأراك. وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم بن عبيدة الله له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة. وأهلها ذوو يسار أكثرهم أقباط. ولها مرسى على البحر بعرف بالماحور لها ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً. وليس لمباني مدينة أجدابية سقوف خشب. انما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها. وهي راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من أوجلة أصناف التمر.»[1]

« تهوذا. من المغرب الأقصى مدينة آهلة كثيرة الثار والنخيل والزرع. وهي مدينة أولية بنيانها بالحجر. ولها اموال كثيرة وحولها ربض قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة. وبها جامع جليل ومساجد كثيرة واسواق وفنادق ونهر ينصب في جوفها من جبل اوراس. سكانها العرب وقوم من قريش. وان كانت بينهم وبين من يجاورهم حرب ارسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوهم به. وفي المدينة بئر لا تنزح اولية وآبار كثيرة طيبة. واعداؤهم هوارة ومكناسة. واهل تهوذا على مذاهب اهل العراق. وحولها بساتين كثيرة من اصناف الثار وضروب البزر يجود بها البزور وحواليها ازيد من عشرين قرية.»[2]

الاقليم الرابع

« قال ابن فاطمة هو عندهم اعدل الاقاليم واحسنها حيواناً ونباتاً والكلام في تفضيله يطول وهو اوسط الاقاليم السبعة وخير الامور اوساطها وسكانه بين البياض والحمرة والصفرة. ولما كان الاقليم الثالث في جنوبيه والاقليم الخامس في شماليه حكم لهما بقرب الاعتدال ولاحت فيهما مشابه من الرابع. وعرض هذا الاقليم الرابع ٣٦ درجة ووسعه من جنوبيه الى شماليه ٦ درجات و١٩ دقيقة.

---

١ - البكري، منفول عن شيخو، نفس المكان ص ٢٢٧.
٢ - نفس المكان ص ٢٢٩.

« يقع فيه من جزائر السعادات الاربع التي رسمت ويصعد البحر المحيط في ساحله الى حيث الطول ٦ درجات و٣٠ دقيقة فيقع هنالك مازنغان وهي فرضة مشهورة تحمل منها (المراكب) القمح الى سبتة وغيرها وبينها وبين اسفي (فرضة مراكش) ٥٠ ميلا ولها طرف يدخل في البحر ١٢ ميلاً وفي شماليها يصب نهر ام ربيع (المشهور) تدخله المراكب المتوسطة. وعلى جنوبيها مدينة آزمّور على ميلين من (البحر وسكانها اكثرهم صنهاجة وهي قاعدة لولاتها وبينها وبين طرف امازيغان ١٢ ميلاً وفي شمالي هذا النهر على ٥٠ ميلاً من فرض تامسنا المشهورة بالفتح ومعظم سكانها برغواطة. وفي شماليها ٦٠ ميلاً مصب نهر سلا وحلقه صعب على دخول المراكب (لا تهتدي الى مسالكه غير قوم يعرفون بوقاصة وينسبون الى سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه) وعلى جانبه الجنوبي عند المصب (مدينة) رباط الفتح (التي بناها عبد المؤمن اولاً فتممها على منزع الاسكندرية المنصور من بني عبد المؤمن، وعزم ان يجعلها عوضاً من مراكش فعاجلتهالمنية). وفي مقابلتها على شمالي النهر مدينة سلا وفي شماليها مصب نهر المعمورة. وهو من انهار المغرب مخصوص بالحوت الطيب المعروف عندهم بالشابل الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلو ويحمل من هنالك الى الاقطار. وبين المصبين ١٦ ميلا ويقال له ايضاً نهر صبو: وهو ونهر سلا لا يعبران الا على جسر وفي شماليه على ٦٠ ميلا يصب نهر القصر وهو مشهور عند المسافرين (في البحر) يأوي اليه المراكب المتوسطة حتى يستقيم لها الهواء في البحر المحيط (وعلى جانبه الجنوبي عند البحر العرائش وعلى جانبه الشمالي تشمس وكانتا مدينتين في مدة العلويين ثم صارت قريتين بالفتن). ومن هذا المصب الى مدينة ازيلا على البحر المحيط ٢٠ ميلا (وهي محل خط واقلاع).ومنها يشرق المراكب (قليلاً قليلاً) الى فم الزقاق وهو يدخل بحر الاسكندرية من البحر (المحيط): في جانبه الجنوبي طرف اسبرتال داخل في البحر (و) على جانبه الشمالي طرف الأغر (على ذلك المنزع) وطالما

تكسرت (عليهما) المراكب في طول البحر (الملاطمة الامواج على الطرفين) وانزعاج دخول الماء او خروجه والمسافة بين الطرفين ٤٠ ميلاً. (وكذلك من ازيلا الى طرف اسبرتال). ثم الزقاق بين (بر) العدوة وبر الأندلس فيكون قدر ١٨ ميلاً (وطوله الى جبل الميناء الذي على سبتة ٤٤ ميلاً. فمن طرف اسبرتال الى مدينة طنجة (المشهورة ٤ اميال وهي) على البحر المحيط. (وقال البكري ان اتساع البحر عندها ٣ مجرى وهو أضيق بقليل عندما يشرق عنها الى ان يكون عند قصر المجاز ١٨ ميلاً وبينه وبين طنجة مرحلة صغيرة وكذلك بينه وبين سبتة). وهذه المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين تشبه الاسكندرية في كثرة الحط والاقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه الى نقاص.

وهي الآن راجعة الى السلطان بل يدبرها الفقيه العزفي وعسكرها في اسطولها ومجريها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط ومن ريف غمارة وآخر هذا الجزء) جزيرة قادس (وهي) صغيرة قدر ١٢ ميلاً (وموضوعها حيث نصفها الجنوبي في الأقليم الرابع والنصف الشمالي في الخامس وطولها قريب من طنجة). وتقابل قصر المجاز من فرض الاندلس طريف وامامها في البحر جزيرة (صغيرة) يعرفها (المسافرون بها فيقولون جزيرة طريف كما يقولون الجزيرة) الخضراء و (انما) هي مدينة امام سبتة في (بر) الاندلس (لكن في بحرها جزيرة صغيرة خضراء عرفت بها وامام هذه المدينة في جنوبيها جبل الفتح المشهور الذي فتحت منه الاندلس. هكذا يعرفه الناس واسمه في الكتب جبل طارق، وهو مولى موسى بن نصير فاتح الاندلس. وهذا الجبل يظهر في البحر من سبتة وهو عال في البحر وفيما بينه وبين الخضراء الميناء المشهورة فيها يشتي مراكب سبتة وغيرها مما للنوء عليها من سبيل. والبحر من شرقي سبتة يتيامن الى الجنوب ويمر متقارباً مع خط الأقليم الخامس بجزيرة الاندلس. فأول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة العالي الطويل (العريض) فيه (من) الامم (ما لا يحصيهم الا الله تعالى ومنه يحمل خشب الارز الذي ينشأ به الاساطيل

ويصرف في الانيـة الملوكيـة الى الآفـاق وصمغـه الغـار. وبينـه وبـين سبتة ٢٦ ميلاً والى نهر لو النازل منه ١٠ اميال وهو كبير يدخله المراكب ويسير فيه ومنه الى) مدينة بادس (٧٠ ميلاً وهي من اشهر فرض عمارة وذلك الساحل يعرف بالريف) ومن باديس الى المزمة (مثل ما) بين باديس الى سبتة ١٠٠ ميلاً (وهي فرضة مشهورة) ومنها الى (مدينة) مليلة ١٠٠ ميل ويصب في شرقيها على ١٠ اميال نهر ملوية الكبير (المشهور الذي ينزل فيه نهر زبر وبنزل فيه نهر سجلماسة فيكون مسافته من منبع نهر سجلماسة في الجنوب نحو ٨٠٠ ميل). ومنها الى ارسقول فرضة تلمسان (وحيث يصب نهرها الذي يصب فيه نهر بسر الكبير) ٧٠ ميلاً ومنه الى فرضة هنين ١٢ ميلاً ومنها الى فرضة وهران (المشهورة) ٨٠ ميلاً (وهي آخر فرضة هذا الجزء من المدن العدوية وميناها مشهورة مأمونة في الهول). ويقابل مدينة باديس من بر الاندلس مالقة وهي مع خط الاقليم الخامس وعرض البحر بينهما درجة (ومنها يحمل التين المالقي واللوز إلى الاقطار. ويقابل المزمة فرضة المنكب وهو مع الخط المذكور وهي في ساحل غرناطة وعرض البحر هنالك مجرى. ويقابل ارسقول (مدينة) المرية (المشهورة التي كانت بها دار صناعة الاندلس وديوانها وهي ايضاً مع الخط ويصنع فيها وفي مالقة وفي مرسية ثياب الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة). وعرض البحر هنالك درجتان (فتقع) تلمسان (المشهورة) حيث الطول ١٤ درجة و٤٠ دقيقة والعرض ٣٣ درجة و٤٢ دقيقة (وبينها وبين ارسقول ٢٠ ميلاً وبينها وبين هنين ٣٠ ميلاً. وهي الآن قاعدة بني عبد الوادي من زناتة ومنها يحمل ثياب الصوف المفضلة على حسنها المصنوع في سائر المغرب ويحمل منها لجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك، والاندلسيون يقولون كانها من مدائن الاندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها. ويقع في غربيها بانحراف الى الجنوب مدينة) الرباط حيث الطول ١٢ درجة والعرض ٣٣ درجة غير (١٠) دقائق. وفي غربيها (مدينة) فاس حيث الطول ١١ درجة والعرض ٣٣ درجة وهي من خواص المغرب الملأى بالخيرات والصنائع الغريبة.

ويقال ان فيها من العيون عدد ايام السنة ويسقيها نهرها الآتي من المرج (الذي في شرقيها ويصب في نهر سبو الذي يمر على شماليها). وفي شرقي (فاس) جبل مديونة (يمتد الى الجنوب) وفيه تعمل البرانس المديونية (التي لا ينفذها المطر ويختلط هذا الجبل من جنوبيه فاس ينزل نهر سلا ومنها في جنوبي هذا النهر ينزل نهر ام ربيع ومن الجبال التي في شمالي فاس ينزل نهر سبو، وكلها تصب في بحر المحيط على ما رسم). وفي شمالي فاس مدينة مكناسة المشهورة الكثيرة الزيتون (وينزل من جبال غمارة التي في شرقيها نهر فلفل ويمر جنوبيها ويصب في نهر سبو وبينها وبين فاس ٤٠ ميلاً). وفي غربيها بانحراف الى الشمال مدينة القصر (ويعرف بقصر عبد الكريم وبقصر كتامة وهم باديته وموضوع هذه المدينة) حيث الطول ٨ درجات و٣٠ دقيقة والعرض ٣٤ درجة و٤٠ دقيقة (وهوعلى شمالي النهر المنسوب اليه وبينه وبين سبتة ٤ ايام) وبين نهر سلا ونهر سبو جبل فازاز وهم برابر (لهم في الخيل نتاج مشهور ولهم قلعة في هذا الجبل يخزنون فيها طعامهم ومحارثهم في تلك الجهات الى جبل مديونة ومجاز الزقاق حيث يجرى نهر سلا الى جهة تادلا. وفي تلك الجهة) معدن غرام الكثير الفضة. واخوه معدن رقيدر (الذي في جنوبي جبل درن. وفي شرقي جبل مديونة جبال مذغرة وهم معظم كومية وهم من قبيل عبد المؤمن. ومن اعلى هذه الجبال حيث الطول ١٣ درجة والعرض ٣٧ درجة ينبع نهر ملوية الكبير الذي تقدم ذكره وفي شرقي جبال مدغرة جبال يسد، ومنها ينبع نهر يسر المتقدم الذكر ويتصل بها من شرقيها جبل ونشريش الذي تعمل فيه البسط الملوكية وهي لبني يوحين من زناتة ممتد بقرب خط الاقليم الثالث ومنه ينبع نهر سلف الكبير المشهور ويخرج من هذا الجزء الى الثاني ويصب في البحر عند مستغانم وهو مثل النيل يزيد في ايام وينقص الانهار وعليه مجالات مغراوة من زناتة.»[1]

---

١ - أبن سعيد المغربي، أبو الحسن علي، « بسط الارض في الطول والعرض » تطوان، معهد مولاي الحسن، ١٩٥٨ ص ٧١ - ٧٥

« من الاقليم الرابع اول ما يلقاك منه جزيرة جربة (المشهورة بالزيت والزبيب والرطب والتفاح والاكسيه الملاح وهي) في شرقي قابس (و) بينها وبين البر مجاز ضيق (يعبر بالزوارق) وبين هذا المجاز وقابس مرحلة. (وطول هذه الجزيرة مرحلة وسكانها خوارج وفي شماليها جزيرة انبذوشية خالية تأوي اليها المراكب ويسقى منها الماء، وفي شماليها تقع صقلية. ومن شرقي جربة وجنوبيها يقهقر البحر الى الشمال حتى تكون مدينة طرابلس (المشهورة عليه) حيث الطول ٣٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و٢٠ دقيقة (وفي شرقيها على مرحلتين جبل نفوسة المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال الى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط وطوله ٦ ايام وعرضه ٣ ايام وفيه مدن وعمائر وخلق كثير ومياه وخصب. ومنه تمتار طرابلس انواعاً من الخيرات حتى الخضر والفواكه وفيه الزيتون والتين والزبيب والتمر. ويتصل به جبال الى ان ينقطع في شرقي مدينة لبدة الخراب وآبار هذه المدينة من الرخام والحجارة والهرقلية يشهد بحالها المتقدم وهي على البحر حيث الطول ٣٩ درجة و٣٠ دقيقة والعرض مقارب لعرض طرابلس. ومجالات دباب من حد قابس الى بئر السدرة من برقة وبعد لبدة يأخذ البحر في الدخول الى الجنوب وعلى ساحله هنالك عمائر لبطون من هوارة تحت خفارة دباب. وعلى الجملة فاذا فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام ولا حبار الى ان تتصل الى الاسكندرية وفي آخر صعود البحر الى الجنوب يكون قصر احمد (وهو آخر حد افريقية) حيث الطول ٤١ درجة ٢٢ دقيقة والعرض مع خط الأقليم الرابع. (وفي عرضه) قصور مسراته تمتد نحو ١٢ ميلاً على زيتون ونخيل واهلها من هوارة (تحت خفارة دباب ولهم غرام بحمل الخيل الى الاسكندرية وتجد منهم الحجاج معونة في تلك الطريق الشاقة. فأول ما يلقاك من حد برقة جون زديق المذكور وما بعده قد ذكر في الاقليم الثالث وشرقيه حيث بئر السدرة اول مجالات هيب الى العقبة الصغيرة من ارض الاسكندرية. ويقع في دخلة

البرين جون برنيق وراس الى طلميثا وهي فرضة مشهورة هنالك وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب وموضوعها حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٣ درجة و١٠ دقائق، ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والقمح والشعير).وفي شرقيها مدينة برقة (التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخربها العرب ويقال لها اليوم مدينة المرج) وبينها وبين طلميثا ١٠ اميال (وخصب برقة الذي فيه الاشجار والخيرات هو في الدخلة التي في جنوبيها مسافته نحو ١٠ مراحل من غرب الى شرق ومن جاره الى عرب هيب فله الصولة ومن جبالها ينزل نهر درنا ويصب في البحر المالح ولم ار في جميع بلاد برقة على طولها نهراً غيره، وفي جنوبيه الصحراء المقفرة وتقع درنا حيث الطول ٤٦ درجة والعرض ٣٥ درجة و١٧ دقيقة وكانت من مدن برقة المذكورة فخربها العرب. وهي الآن محسوبة من قصور العرب التي تأخذ البحريون على تعدينه البشارة وهو (واقع) في الركن حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٤ درج و٥٢ دقيقة. (وفي شرقيه الهلال المشهور وهو جبل يظهر من بعيد في البحر وفي ميمنة جزيرة اقريطش الواقعة في الاقليم الخامس وبينه وبين راس اوثان -مرحلتان ونصف وبينه وبين درنا وهي في شرقيه مرحلتان وفي شرقي درنا راس تيني المشهور وهو في الركن الشرقي كما ان راس اوثان في الركن الغربي وموضوعه حيث الطول ٤٦ درجة و٤٧ دقيقة والعرض ٣٥ درجة غير دقائق ومن هنالك يأخذ البحر في الصعود الى الجنوب فيكون في جنوبيه من المراسي المشهورة القرسي ثم طبرق، وهي كانت قاعدة البلاد في ايام الروم. وكانت البلاد تعرف بانطابلس فسمتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل. ولطبرق مرسى قل ان يكون له نظير على هذا البحر ما للرياح عليه سبيل كأنه حوض منقور في حجر وبقايا اسوار هذه المدينة تدل على قديمها وهي حيث الطول ٤٧ درجة و٢٢ دقيقة والعرض ٣٢ و٥٥ دقيقة وفي جهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشهورة عند العرب لك وقمار). في شرقيها العقبة الكبيرة وهي اول حد الديار المصرية (وهنالك مرسى

المسلم من المراسي المذكورة والعقبة) حيث الطول ٤٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و٢٥ دقيقة وفي شرقيها العقبة الصغيرة حيث الطول ٤٩ درجة والعرض ٣٢ دقيقة (وهنالك دخلة هوارة المشهورة وهي دخلة في البحر وفي شماليها مرسى الكنائس المشهورة ومن هنالك مجالات هوارة ثم مجالات زنارة الى آخر البحيرة) . وتقع الاسكندرية (المشهورة التي هي ركاب بحر الهند وبحر الروم) حيث الطول ٥١ درجة و٢٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة و٣١ دقيقة (ولها بحران مثل سبتة والمهدية الا ان الاسكندرية يفضل بين طرفيها الطرف الخارج امامها المعروف بالجزيرة وفبها المنار المشهور الذي تهتدي به المراكب بالنهار وبنوره بالليل. وطولها في زماننا ٣٤ قامة وطول مأذنة اشبيلية ٣٥ قامة وطول مأذنة مراكش ٣٦ قامة وطول عمود السواري الذي بظاهر الاسكندرية النيل ايام الزيادة فتأتي في المراكب من سائر السواحل المصرية بأنواع الغلال والخيرات فاذا تعطل هذا الخليج عملت البحيرة التي في شرقيها وهي مالحة يدخل ماء البحر فيها بين الاسكندرية ورشيد ويسافر فيه المراكب الى البلاد التي على النيل من خليج يعرف بالحافر حفر في زمان العادل من بني ايوب. وعلى ٤٠ ميلاً من الاسكندرية تروجة وهي في الجنوب بميلة الى الغرب يسوق اليها عرب البحيرة وعرب برقة ولها شهرة بذلك والعنب التروجي في نهاية الطيب وحسن المنظر ويقال انه كان بجهتها من الغرب مدينة قديمة فيها لقي اهل مصر المعز العبيدي حين قدم من افريقية، ثم خربت بالفتن. وفي شرق اسكندرية وجنوبها دمنهور على نحو ٥٠ ميلاً وهي قاعدة البحيرة ولها خليج من خليج الاسكندرية واكثر ما يسوق فيها عرب البحيرة واكثرهم زبادة ولواته وتقع رشيد (التي على غربي النيل عند مصبه في البحر) حيث الطول ٥٢ درجة و٤ دقائق والعرض ٣٢ درجة، وفي شرقيها بحيرة يستراء وليس في بحيرات الديار المصرية اكثر ضماناً منها، بلغ في عصرنا ٢٥٠٠٠ ديناراً مصرية. وسائر بحيرات مصر تضمن بقيمة ٧٠٠٠ ديناراً وفي شرقيها رباط البرليس ومنه يصير البحر الى الجنوب فتقع دمياط (المشهورة) على مصب النيل

الشرقي حيث الطول ٥٤ (فيكون في آخر الجزء الثالث) والعرض ٣١ درجة و٢٠ دقيقة وتقع المحلة (قاعدة الغربية التي بين النيلين) حيث الطول ٥٣ درجة و٢٢ دقيقة والعرض ٣١ درجة و٦ دقائق. وتقع المنصورة التي بنيت في عصرنا رباطاً على خليج اسمون الخارج من النيل الشرقي حتى يصب في بحيرة تنيس حيث الطول ٥٣ درجة و٣٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة غير دقائق.»[١]

---

١ - نفس المكان ص ٧٩ - ٨٢.

الفصل الخامس

الموسوعات

يمتاز عصر المماليك البرجية بالنضج في الحياة العلمية في مصر والشام، كما يمتاز بالعناية بالمدارس ونواحي الحياة الفنية المختلفة. ولبعض المؤلفات التي وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هي الاحاطة والشمول، او ما يجوز ان نسميه كتابة الموسوعات. فقد اهتم المؤلفون باخراج كتب تشمل اللغة والادب والجغرافية والتاريخ واصول الشرع والادارة وقواعد المخاطبات السلطانية، وغير ذلك مما يحتاجه ارباب الدواوين واصحاب الوظائف والعمال. وقد وصلت الينا ثلاثة كتب من هذا النوع هي نهاية الارب للنويري ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري وصبح الاعشى للقلقشندي.

النويري

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري من اهل القرن الرابع عشر. فقد ولد في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م وتوفي سنة ١٣٣٣/٧٣٣. وقد ولي كتابة الانشاء. كما انه كان في وقت من اوقات حياته ناظراً للجيش في طرابلس الشام.

ترجم له الادفوي صاحب الطالع السعيد قال «احمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري. ينعت بالشهاب النويري المحتد القوصي المولد والمنشأ. سمع الحديث على الشريف موسى بن علي بن أبي طالب وعلى يعقوب بن احمد بن الصابوني واحمد الحجار وزينب بنت منجي وقاضي القضاة أبي عبد الله

محمد بن ابراهيم بن جماعة وغيرهم. وكتب كثيراً كتب البخاري مرات. وجمع تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً وحصل له قرب من السلطان الناصر ووكله في بعض أموره وعمل عليه حتى رافع بن عبادة وهو الذي قربه من السلطان فضربه بالمقارع. ثم عفا عنه ابن عبادة. وتقلب في الخدم الديوانية. وباشر نظر الجيش بطرابلس. وتولى نظر الديوان بالدهقلية والمرتاحية. وكان ذكي الفطرة. حسن الشكل وفيه مكرمة وأريحية وود لاصحابه. وصام رمضان سنة وفاته. وحصل له انه واظب على القراءة فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن الى قريب المغرب. ثم حصل له وجع في أصابع يديه وكان سبب وفاته. توفي يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وله نظم يسير ونثر لا بأس به. وكان صاحبنا رحمه الله.»[١]

وكتابه نهاية الارب في فنون الادب، وضعه لمصلحة كتاب الدواوين والانشاء. والكتاب في ثلاثين مجلدا.

والنويري، مثل غيره من مؤلفي مثل هذه الكتب، رغب في وضع الكتاب ائتناساً به، ثم افاد منه غيره. وقد قال في فاتحة كتابه «وكنت ممن عدل في مباديه، عن الالمام بناديه، وجعل صناعة الكتابة فنّه الذي يستظل بوارفه، وفنّه الذي جمع له فيه بين تليده وطارفه. فعرفت جليها، وكشفت خفيها، وبسطت الخرائد ونظمت منها الارتفاع، وكنت فيها كموقد نار على يفاع، واسترفعت القوانين، ووضعت الموازين، وعانيت المقترحات، وأعتمدت على المقايسات، وفذلكت على الأصل وما أضيف اليه، وحرّرت ما بعد الفذلكة فكان العمل على ما استقرت الجحلة عليه، واستخرجت وحصلت، وجملت من عرضه وحصّلت، وسقت الحواصل، وأوردت المحاسيب وفذلكت على الواصل، وطردت ما انساق الى الباقي والموقوف، ونضّدت شواهذ المصروف، وشطبت

---

١ - الادفوي، كمال الدين ابو الفضل، «الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد»، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٩٢٤، ص ٤٦.

شواهد الارتفاع، وقرنت سياق الأصناف والآلات، ونظرت في سياقات العلوفات والعوامل، وأجبت عن المخرج والمردود فأعجزت المناظر والمناضل، وأتقنت موادّ هذه الصناعة، وتاجرت فيها بأنفس بضاعة.

ثم نبذتها وراء ظهري، وعزمت على تركها في سري دون جهري، وسألت الله تعالى الغنية عنها، وتضرعت اليه فيا هو خير منها. ورغبت في صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها، وانتظمت في سلك أربابها، فرأيت غرضي لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاهاً، وموردي منها لا يصفو ما لم أجرد العزم سفاهاً.

فامتطيت جواد المطالعة، وركضت في ميدان المراجعة. وحيث ذلّ لي مركبها، وصفا لي مشربها، آثرت ان أجرد منها كتاباً أستأنس به وأرجع اليه، وأعول فيا يعرض لي من المهمات عليه. فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب، بينة التقسيم والتبويب: كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام:

«الفن الاول في السماء والآثار العلوية والارض والمعالم السفلية، والفن الثاني في الانسان وما يتعلق به، والفن الثالث في الحيوان الصامت، والفن الرابع في النبات، والفن الخامس في التاريخ،وترجمته بنهاية الارب في فنون الادب.

«واتيت فيه بالمقصود والغرض، وأثبت الجوهر ونفيت العرض، وطوقته بقلائد من مقولي، ورصعته بفرائد من منقولي. فكلامي فيه كالسارية تلتها السحائب، او السرية ردفتها الكتائب، فما هو الا مترجم عن فنونه وحاجب لعيونه.

«وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان النفوس تميل اليه، وان الخواطر تشتمل عليه. ولو علمت ان فيه خطأً لقبضت بناني، وغضضت طرفي، ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عناني، وثنيت عطفي. لكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي. فان يكن اعتراض،

فعلى علاهم لا علي العار. وقد علمت أنه من صنف كتاباً فقد استهدف، وأصم الأسماع وان كان لبعضها قد شنف.

« وخليق للواقف عليه ان يسد ما يجد به من خلل، وان يغفر ما يلمح فيه من زلل.

فأسبل عليها ستر معروفك الذي ستـرت بـه قدمـاً عـلى عواري

« والذي أدى اليه اجتهادي من تأليفه فقد أصدرته، والذي وقفت عنده غايتي فقد أوردته. قد تبلغت فيه وسعي، لكن ليس من عثرة الكتاب أمان. وبالله سبحانه المستعان! وعليه أتوكل، واليه أتضرع في التيسير وأتوسل، ومن فضله أستمد الصواب وباسمه استفتح الكتاب! »[1]

العمري

شهاب الدين ابن فضل الله العمري هو صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار. وهو متحدر من اسرة سورية كانت لها مشاركة كبيرة في شؤون الدولة والادارة في ايام المماليك، وخاصة في تنظيم امور البريد. ولد الرجل في دمشق سنة ١٣٠١/٧٠٠ وتوفي فيها منفياً سنة ١٣٤٧/٧٤٨، وقد تولى القضاء قبل وصوله الى ديوان الانشاء.

وقد ترجم له صاحب الدرر الكامنة قال « احمد بن يحيى بن فضل الله... ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة وقرأ العربية على كمال الدين ابن قاضي شهبة والفقـه عـلى شهـاب الـدين ابن المجـد والشيـخ برهـان الـدين ابن الفركاح وقرأ الاحكام الصغرى على ابن تيمية وتخرج في الادب بالشهاب محمود وبالوداعي وشمس الدين بن الصائغ الكبير وابن الزملكاني وابي حيان وسمع الحديث على جماعة كست الوزراء والحجار.وكان يتوقد ذكاء مع حافظة قوية وصورة جميلة واقتدار على النظم والنثر حتى كان يكتب من رأس القلم ما

١ – النويري، شهاب الدين احمد، « نهاية الارب في فنون العرب »، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٣، ج ١ ص ٢ – ٢٦.

يعجز عنه غيره في مدة مع سعة الصدر وحسن الخلق وبشر الحيا. كتب الانشاء بمصر ودمشق ولما ولى ابوه كتابة السر كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان ثم غضب عليه السلطان وذلك في سابع عشر ذي الحجة سنة ٤٠ وولاه كتابة السر بدمشق... وعمل مسالك الابصار في ازيد من عشرين مجلداً والتعريف بالمصطلح الشريف واشياء لطاف كثيرة وله شعر كثير جداً لكنه وسط. ذكره الذهبي في المعجم المختص فقال ولد سنة ٧٠٠ وسمع الحديث وقرأ على الشيوخ وسمع معي من ست القضاة بنت الشيرازي وله تصانيف كثيرة أدبية وباع طويل في الصناعتين وبراعة في البلاغتين والله اعلم.»[١]

وقد قدم لنا العمري كتابه بنفسه فقال:

«ولقد طالعت الكتب الموضوعة في أحوال الأقاليم وما فيها، فلم أجد من قنن أحوالها، ومثل في الافهام صورها، لأن غالب تلك الكتب لا تتضمن سوى الأخبار القديمة، وأحوال الملوك السالفة والأمم البائدة وبعض مصطلحات ذهبت بذهاب أهلها ولم يبق في مجرد ذكرها عظيم فائدة، ولا كبير أمر. وخير القول أصدقه، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

«فاستخرت الله تعالى في اثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها: الأظهر فالأظهر، والأشهر فالأشهر، وما لم أجد بداً من ذكره في ذلك ومثله وحالة كل مملكة، وما هي عليه، هي وأهلها في وقتنا هذا مما ضمه نطاق تلك المملكة، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة. لأقرب الى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات، وما يوجد فيها غالباً: ليبصر اهل كل قطر القطر الآخر. وبينته بالتصوير: ليعرف كيف هو، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان. مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة، وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رآه بعينه او سمعه من الثقات بأذنه.

١ - ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، «الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة»، حيدر اباد مجلس دائرة المعارف ١٩٢٩، ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٣.

«ولم أنقل الا عن أعيان الثقات، من ذوي التدقيق في النظر، والتحقيق للرواية. واستكثرت ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة، لأمن من تغفل الغفلاء، وتخيل الجهالات الضالة، وتحريف الافهام الفاسدة.

«فان نقلت بعض الكتب المصنفة في هذا الشأن، فهو من الموثوق به فيا لا بد منه: كتقسيم الأقاليم، وما فيها من اقوال القدماء، واختلاف اراء الحكماء، الى غير ذلك من غرائب وعجائب، وأخبار ملل ودول، وذكر مشاهير أعلام، وتاريخ سنين وشهور وأيام. مما هو مسرح أمل، ومطمح ذي عمل، لأجمل به كلامي، وأكمل به نقصي، وأتمم بهجة النظر، ورونق الصفحات: كالطراز في الثوب، والخال في الخد، لا لأكثر به سواد السطور، وأكبر به حجم الكتاب. ولم أقتصر بذكر الأقاليم، عند ذكري الممالك، مقصد الجغرافيا، كالأول والثاني والثالث، ولا بما تطلق عليه المسميات، كالعراق وخراسان وأذربيجان.

«بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان، جملة لا تفصيلاً، على ما هي عليه المدينة التي هي قاعدة الملك: كقرشي والسراي من قسمي توران وتوريز من ايران، أو ما لا بد من ذكره معها، والغالب في تلك المملكة من اوضاعها، والأكثرية من مصطلح أهلها.

«ولا أعني ذوي الممالك الصغار، اذا كانوا في مملكة سلطان قاهر عليهم، آمر فيهم: اذ هم جزء من كل. بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة: لاتساع ممالك وأعمال، وكثر جنود واموال، ويتغطى بذيله من لعله يكون في مملكته من ذوي الممالك الصغار: كصاحب حماة مع صاحب مصر، وصاحب ماردين مع صاحب ايران. اللهم الا أن تكون تلك المملكة مفردة لملك او ملوك، وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه، ويمضي فيهم أمره، كملوك الجيل، وملوك جبال البربر وما يجري هذا المجرى، ويسري كوكبه هذا المسرى.

«ولم آل جهدا في تصحيح ما كتبته بحسب الطاقة، من غير استيعاب ولا تطويل. ولم أعرج الى ملوك الكفار ركابي، ولا أرسيت بجزائر البحر سفني،

ولا اسهرت في الظلمات عيني، ولا أتعبت في المحفورة يدي. إلا ما ألممت منه المامةالطيف المنفر، ونغبت منه نغبة الطائر الحذر، لأن غالب ما يقال (والله أعلم) أسماء لا يعرف لها حقيقة، ومجاهل لا توصل اليها طريق.

«ولم اقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة، ولا خرجت في جهلتها عن الطريق المستقيمة: اكتفاء بالحق الواضح والصدق الظاهر، مما اتصلت بنا حقيقة أخباره، وصحت عندنا جلية أحواله.

«وقنعت بما بلغه ملك هذه الامة، وتمت بكلمة الاسلام على أهله النعمة. ولم أتجاوز حدها، ولا مشيت خطوة بعدها، الا ما جره سياق الكلام، أو طارح به شجون الحديث: مما أندرج في اثناء ذلك، أو اضطرت اليه تعريجات السالك، أو اقتضاه سبب، أو دخل مع غيره في ذمة حسب.

«وان كان في العمر فسحة، وفي الجسم صحة، وللهمة نشاط، وللنفس انبساط، (وما ذلك على الله بعزيز، ولا من عوائد ألطافه الخفية بعجيب)، لأذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف، وأجيء بفارسه المعلم وخلفه من سبيهم رديف.

«لكنني لم آت في هذا الكتاب بذكر ممالكهم (على اتساع بلادها) الا عرضا، ولا سطرت من تفصيلها الا جملاً: توفيراً للمادة، وتيسيرا للجادة، ولأتمتع برونق الأنوار، ولا أشوب بسواد الليل بياض النهار.

«على أنني ربما ذكرت في مكان ما قاربه من بلاد الكفار، وذكرته للمجاورة رجاء ان يؤخذ بشفعة الجوار.

«ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل، لتكون عهدتها عليه، وتبرأت منها. وقد يقع الانكار لأكثر الحقائق من الناس: لنقصان العقول. لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل، يعلم ان كل مقدور بالاضافة الى قدرة الله تعالى قليل. وقد وصف الله تعالى الجهال بعدم العقل، فقال: «أم تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون». وقد أودع الله من عجائب

المصنوعات، في الأرض والسماوات، كما قال تعالى: «وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون». وقد أرانا من عظيم قدرته، وبدائع صنعه، ما جلا الشك، وأوضح الحق. فماذا بعد الحق الا الضلال؟

«وأول ما أبدأ بالمشرق، لأن منه يتفتح نوار الأنوار، وتجري أنهار النهار. الى ان أختمه بنهاية المغرب، الى البحر المحيط. لأنه الغاية، واليه النهاية. الا فيما لم أجد بدأً من الابتداء به من المغرب الى المشرق: كتخريج الأقاليم، لابتداء الأطوال من الجزائر الخالدات بالبحر الغربي، او ما هذا حكمه، او وقع عليه قسمه.

«وقطعت فيه عمر الأيام والليالي، وأثبت فيه بالأقلام أخبار العوالي. وشغلت به الحين بعد الحين، واشتغلت ولم أسمع قول اللاحين. وحرصت عليه حرص الضنين، وخلصت اليه بعد ان أجريت ورائي السنين.

«وشرعت فيه في ايام من زمَانَنَا باحسانه، وأمننا في سلطانه: سيدنا ومولانا، ومالك رقابنا، السلطان ابن السلطان، السيد الكبير الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر والمؤيد المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، نائب الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البحرين، خادم الحرمين، حامي القبلتين، مبايع الخليفتين، بهلوان جهان اسكندر الزمان، ناشر علم العدل والاحسان، مملك اصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان، جامع ذيول الأقطار، مبيد البغاة والطغاة والكفار، هازم الروم والفِرِنجَ والكرج والأرمن والتتار، سلطان البسيطه، مثبت أركان المحيطة، امام المتقين، ولي أمور المؤمنين، متعهد حج بيت الله الحرام وزيارة سيد المرسلين، أبي المعالي محمد بن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبي المظفر قلاوون، سيد ملوك الأرض على الاجماع، المخصوص بملك أشرف البقاع.

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد مـــلء المسامـــع والأفواه والمقـــل!

« فأدام الله أيامه، وادار على مفارق النجوم أعلامه!

« وسميته: مسالك الابصار في ممالك الامصار. وعلى الله أعتمد، ومنه استمد، واياه أسأل التوفيق والاعانة، وأبرأ من الحول والقوة الا به. وهو حسبي ونعم الوكيل! وفهرست ما تضمنه وجملته قسمان: القسم الأول - في الأرض. القسم الثاني - في سكان الأرض.»[1]

القلقشندي

شهاب الدين احمد القلقشندي، ولد سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م في قلقشندة من اعمال قليوب في دلتا مصر، واقام في الاسكندرية حيث تفقه ومهر، وتعاني الأدب وكتب في الانشاء، واجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه اذ ذاك تتعدى احدى وعشرين سنة. وتصدر للافادة فانتفع الكثيرون من علمه. ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الانشاء بالابواب السلطانية بالديار المصرية، وفي منصبه هذا الف كتابه صبح الاعشى، وهو اشهر كتبه واعظمها قيمة. على انه وصلت الينا من مؤلفاته « ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر » وكتاب « الغيوث الهوامع » و « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب ».

والكتاب الذي نحن بصدده الآن هو صبح الاعشى، كتبه المؤلف وهو بديوان الانشاء بمصر. وقد تناول الكاتب في خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التي من اجلها كتب والف. وهذه الخطبة هي في الوقت ذاته نقد فني لمن سبقه من المنشئين فهو يقول: « والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف. ففرقة اخذت في بيان اصول الصنعة وذكر شواهدها، واخرى جنحت الى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها... ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها... بل اكثر الكتب المصنفة في بابها والتآليف الدائرة بين اربابها، لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع

---

١ - العمري، احمد بن يحيى ابن فضل الله، « مسالك الابصار في ممالك الامصار »، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٢٤، ص ٢ - ٦.

فيها اليه، او الالفاظ الرائقة فيا وقع الاختيار عليه»[١]. ثم يعرض القلقشندي لكتابين فينقدهما: الاول التعريف بالمصلح الشريف للمقر الشهابي بن فضل الله العمري، والثاني تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش. فيقول عن الاول «انه قد اهمل من مقاصد المصطلح اموراً لا يسوغ تركها كالبطائق والملطفات» واما الثاني فقد ترك الوصايا والاوصاف ومراكز البريد وابراج الحمام[٢]. ثم يجمل القول في الاثنين« فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد، ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وان كانا في معنى واحد.»[٣]

والكتاب مرتب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة بناها بالاجمال على التعريف بحقيقة ديوان الانشاء واصله في الاسلام وانتشاره بعد ذلك في العالم الاسلامي. وتناول ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من الامور العلمية والعملية. فالخط وتوابعه ولواحقه فيه موضحة، ومعرفة المسالك والممالك فيه مبوبة، هذا الى وصف الولايات وطبقاتها والبيعات والعهود، وذكر الوصايا الدينية وما يكتب فيها، والاقطاعات واصلها في الشرع وعقود الامانات. وتكلم فيه عن البريد ووضعه في الجاهلية والاسلام وبين معالمه ومواضعه. والحق أنه على قول مصححه المرحوم الاستاذ محمد عبد الرسول ابراهيم: «كتاب ممتع ودائرة معارف ادبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء وطول الباع في فن كتابة الانشاء.»[٤]

ونحن نكتفي بناحية او اثنتين من نواحيه المتعددة نتناولها بشيء من التفصيل. فاننا نجد ان الفصل الثالث من الباب الاول من المقالة الاولى يتناول معرفة الازمنة والاوقات وايام الشهور والسنين على اختلاف الاسم فيها، وتفاصيل اجزائها والطرق الموصلة اليها ومعرفة اعياد الامم. وهو

---

١ - القلقشندي، ابو العباس احمد، صبح الاعشى، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩١٣، ج ١، ص ٧.

٢ - نفس المكان ج ١، ص ٨.

٣ - نفس المكان، ج ١، ص ٨.

جهات - نفس المكان، ج ١٤ ص ١٣ من المقدمة.

يتناول كل هذه بتفصيل من الناحيتين الشرعية والفلكية، فيحكي المذاهب المختلفة ثم يلاحظ في دقة ان اليوم ينظر اليه باعتبارين. اما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس الى طلوعها وظهورها من الافق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق الى غيبوبته. واما الشرعي فالليل من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني... والنهار منه الى غروب الشمس.

وتراه ينتقل من الايام الى الشهور فيذكر انواعها ويقارن الشمسية منها بالقمرية، ويعين ابتداء القبطية منها بالنسبة الى الشمسية. والسنة عنده اما طبيعية وهي القمرية، واما اصطلاحية وهي الشمسية ويتناول في هذه مصطلحات القبط والفرس والسريان ثم مصطلح المنجمين، ويوضح علاقاتها ببعضها البعض.

ويقصد صاحبنا فصلاً في التوفيق بين السنين وعلاقة ذلك بالخراج والاعشار لارتباط المنتوج الزراعي بالسنين على اختلاف الاصطلاح وهذا الفصل من خير ما عثرت عليه عند كتاب العرب عن الموضوع.

واذ ينقلنا الى الحديث عن الفصول نشعر ان المؤلف دقيق الاحساس رقيقه هذا الى طول باع في رواية الشعر الرفيع. فهو يتحدث عن الفصول ويروي فيها الاشعار والقصائد.

والمقالة الثانية من كتاب الصبح في المسالك والممالك فيها تعرض المؤلف لذكر الارض على وجه الاجمال. فتعرف الى شكلها واحاطة البحر بها واقاليمها الطبيعية وانواع البحار وحدثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والابعاد الواقعة بينها. ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم وما كانت عليه من الترتيب الى عصره. ووصف وظائف ارباب الاقلام والسيوف، ثم تناول دول الارض دولة دولة، فبدأ بالمملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحياونها وطيورها وقواعدها. ثم فصل كورها ومدنها وأخبارها وملوكها جاهلية واسلاما، وترتيب احوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع اراضيها الى بقية اقطار العالم الاسلامي اولا ثم الى ما خرج عنه. وهو في اخباره وانبائه دقيق الملاحظة، شديد العناية باسناد ما ينقله عن غيره، سريع الى النقد. فيقول مثلاً: «اما شكل الارض فقد تقرر في علم الهيئة ان

الارض كُريّة الشكل... وقيل هي مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبل. والتحقيق الاول »[1]. ويحدثنا عن خطوط الطول والعرض ثم يلاحظ ان اكثر المعمور من الارض انما هو النصف الشمالي والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء الى نهاية ست وستين درجة ونصف في الارض. ويقسم المعمور من الارض الى اقاليم سبعة ينقلها وحدودها عن ابي الفداء.

ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب، وهو يسميه، مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له، بحر الروم، ولكنه يذكرنا انه يسمى البحر الشامي ايضاً. فالمدن الموجودة عليه تذكر كلها، وتعين اعراضها واطوالها وتبين المسافات التي تفصل بينها.

ويتحدث عن الخلافة وشعارها وهي الخاتم والبردة والقضيب، وثياب الخلافة والاعلام والخلع بالوانها مفصلة في هذا الباب[2]. كما نجد تفصيل الوظائف الوزارية وغيرها كالحجابة وهي حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه، وولاية المظالم، والنقابة على ذوي الانساب والقضاء والحسبة والولاية على المساجد[3]. فاذا فرغ من ذكر الترتيبات على ما عرفت قبلا، اي قبل انتقال الخلافة الى مصر، تخلص الى ذكر ما اصابها بعد ذلك، فقال « والذي استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية ان الخليفة يفوض الامور العامة الى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر الا في مصلّى السلطان خاصة... ويستبد السلطان بما عدا ذلك، من الولاية والعزل واقطاع الاقطاعات حق للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك. »[4]

والفصول الاخيرة في صبح الاعشى تتناول الكلام على البريد ومطارات

---

١ - نفس المكان، ج ٣، ص ٢٢٧.

٢ - نفس المكان، ج ٣، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

٣ - نفس المكان، ج ٣، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

٤ - نفس المكان، ج ٣، ص ٢٧٩.

الحمام الرسائلي وهجن الثلج ومراكبه والمناور والمحرقات.

فمما يقوله عن البريد انه كان له الواح من فضة مخلدة بديوان الانشاء تحت امر كاتب السر بالابواب السلطانية منقوش على وجهي اللوح نقشا مزدوجا ما صورته «لا اله الا الله محمد رسول الله، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة». وعلى الوجه الآخر «عز لمولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين خلد الله ملكه»[1]. وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير اصفر ذات بندين يجعلهما البريدي في عنقه متى خرج الى جهة من الجهات. فكل من رأى اللوح والشرابة علم انه بريدي وبواسطة ذلك تذعن له ارباب المراكز بتسليم خيل البريد.

ويختم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه في مصر وبلاد الشام وما جاورهما. ثم ينتقل الى ذكر الحمام الرسائلي. فيعدد انواعه ويذكر الوانه ويبين صفة الطائر الفاره، ويقص اخبار من اعتنى به من خلفاء بني العباس كالمهدي. وتنافس رؤساء الناس في العراق في اقتنائه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار وثمن البيضتين منه عشرين دينارا.[2]

وآخر فصل في صبح الاعشى يتناول نقل الثلج من الشام الى مصر. فقد كانت له هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر، حتى يصل الى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثة في السنة في ايام الملك الظاهر بيبرس ثم اخذت في الزيادة حتى بلغت احد عشر مركباً. والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرابخانة الشريفة.[3]

ومما حدث في زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج وكانت

---

١ - نفس المكان، ج ١٤ ص، ٣٧١.

٢ - نفس المكان ج ١٤، ص ٣٩٠.

٣ - نفس المكان، ج ١٤ ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

هذه الهجن تخرج من دمشق الى الصّنمـــــين ثم الى بانيـــــاس ثم الى بيسان فجنين فقاقون فاللد فغزة فالعريش فالمطيلب فقطيا ثم منها الى القصير فالصالحية فبلبيس فالقلعة. والمستقر في كل مركز ستة هجن، خمسة للاحمال وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة احمال[1].

ليس الذي عرضنا له واستشهدنا به الا القليل مما عند القلقشندي. وليس باستطاعتنا ان نفعل غير ذلك. فثمة فصول وابواب لم نشر حتى الى اسمائها كالفصول التي تناول فيها المؤلف الايمان واحكامها في الشرع واثرها في المعاهدات،وتلك التي بحث فيها الخط ورسم الحروف وقاعد الكتابة وتطور الخطوط،وفي الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها في مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه.

وقد اقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الاعشى اقبالا قال فيه المؤلف: «لكني احمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارعة الى استكتابه قبل انقضاء تأليفه. حتى أن قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس الى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمان في ارتقابه، فضلاً من الله ونعمة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[2].

مختارات من نهاية الارب

في الاقاليم السبعة

«ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل اقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب الى المشرق، وعرضه من الجنوب الى الشمال.

«١ - فأما الاقليم الأول فمبدؤه من مشرق أرض الصين الى مدائن

---

١ - نفس المكان، ج ١٤، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

٢ - نفس المكان، ج ١٤، ص ٤٠٣.

أبوابها. وهي الانهار التي تدخل السفن فيها من البحر الى المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور. وفيه جزيرة سرنديب. ومن أرض اليمن ما كان جنوبياً من صنعاء مثل ظفار وحضرموت وعدن. وفيه من بلد النوبة دنقلة، ومن بلد السودان غانة. ثم ينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من خط الاستواء الى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة.

« وذهب بعض الناس الى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء اثنتي عشرة درجة، ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم. وعد فيه بطلميوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة. وأهل هذا الاقليم سود، وهو قليل الساكن لافراط حره.

« ٢ - وأما الاقليم الثاني. فيبتدىء من بلاد الصين، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية، مثل تانة، وصيمور، وسندان، ومن بلاد السند على المنصورة وديبل، ثم يبلغ عمان. ويكون فيه من أرض العرب: نجران، وهجر، وجنابة، ومهرة وسبأ، وتبالة، والطائف، وجدة، ومكة والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البجة، وأسوان، وقوص، والصعيد الأعلى وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الأول الى سبع وعشرين درجة واثنتي عشرة دقيقة.

« وزعم بطلميوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة. وأهله بين السمرة والسواد وهو كثير الذهب.

« ٣ - وأما الاقليم الثالث. فمبدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة مملكتها حمدان، وفيه من بلاد الهند تانش والقندهار، ومن بلاد السند المولتان وقزدار. ثم يمر ببلاد سجستان، وكرمان، وفارس، وأصبهان، والأهواز، والبصرة والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشام، وفلسطين، وبيت المقدس، والقلزم، والتيه، وأرض مصر، والاسكندرية، وبلاد برقة، وافريقية،

وتاهرت، وبلاد طنجة، والسوس، وينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من غاية الاقليم الثاني في العرض الى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.

«وزعم بطلميوس أن فيه تسعا وخمسين مدينة. وأهله سمر.

«٤ - وأما الاقليم الرابع. فمبدؤه من أرض الصين، ويمر على التبت والختن، ثم على جبال قشمير، ووخان، وتل حسان، وكابل، والغور، وهراة، وبلخ، وطخارستان، ويمتد الى الري، وقم، وهمذان، وحلوان، وبغداد، والموصل، وأذربيجان. ويمتد على منبج، وطرسوس، والثغور، وانطاكية، وجزيرة قبرس، وصقلية، ثم على الزقاق الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الثالث في العرض الى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.

«وزعم بطلميوس ان فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.

«٥ - وأما الاقليم الخامس فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج الى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، واسبيجاب، والشاش، وأشروسنة وسمرقند، وبخارى، وخوارزم، وبحر الخزر الى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الجلالقة، وبلاد الأندلس، وينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من غاية الأقليم الرابع الى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشرة دقيقة.

«وذكر بطلميوس ان فيه سبعا وتسعين مدينة. وأكثر أهله بيض.

٦ - وأما الاقليم السادس. فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسرير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجة، وشمال الأندلس، وينتهي الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الخامس الى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة.»[1]

---

١ - النويري، ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٢.

البصرة وما اختصت به

« فمن خصائصها أن للغربان بها ضربا من العجب. وذلك أنها تقع اليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أصرم ثمرها، ولا تقع على ما لم تصرم، ولو بقي عليها عذق واحد.

« ومن عجائبها أيضاً، أن التمر يكون مصبوباً في بيادره، فلا يقع عليه شيء من الذباب لا في الليل ولا في النهار.

« وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفاً عليها من الخفاش. ومن عادة الذباب الفرار من الشمس الى الظل، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة. فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طلسم، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب. وليس كذلك، وانما هو من حماية الله ووقايته.

« ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال: منابتها قصب، وأنهارها عجب وسماؤها رطب، وأرضها ذهب.»[1]

من المباني القديمة القليس

« وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ملك اليمن بصنعاء. ونقل اليها الرخام المجزع والملون، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتى يشرف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت حولها السباع والحشرات وبقيت الى زمن السفاح فذكر له أمرها، فبعث اليها من خربها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلي في « الروض الأنف ».

« وحكي أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع، يدخل منه الى بيت طوله ثمانون ذراعاً

---

١ - نفس المكان، ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

وعرضه أربعون ذراعاً، مسقف بالساج المنقوش، مسمر بمسامير الذهب والفضة ثم يدخل من البيت الى ايوان معقود طوله أربعون ذراعاً، عن يمينه ويساره عقود مزخرفة، ثم يدخل من الايوان الى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، جدرها مموهة بالذهب والفضة، وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج المصفح بالذهب والفضة.»[1]

من المباني القديمة ملعبا بعلبك

« هما كبير وصغير.

« فالكبير، يحكى أنه من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، وهو مبني على عمد شاهقة، وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

« والملعب الصغير تهدم أكثره، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعاً وارتفاعه كذلك، ليس فيه الا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

« ويقال انه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى « بعلا »[2]

غمدان

« كان بصنعاء، زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح، وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة.

« وقال ابن هشام ان الذي أسسه يعرب بن قحطان، وأكمله بعده وائل بن حمير بن سبا بن يعرب، وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

« وقال في صفته ان كان مربعاً، أحد أركانه مبني بالرخام الابيض، والثاني بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر، وفيه سبعة سقوف طباقا، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعاً. وعلى كل ركن

---

١ - نفس المكان، ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

٢ - نفس المكان، ج ١ ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

تمثال أسد من نحاس، اذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه، فيسمع لها صوت كزئير الأسد.»[1]

متنزهات الدنيا

«اتفق جوابو الأقطار أن مستنزهات الدنيا أربعة مواضع، وهي صغد سمرقند وشعب بوان، ونهر الأُبلّة، وغوطة دمشق، وقد رأيت ان اصف هذه المستنزهات بصفاتها التي شاهدتها ونقلت إلي، واخبارها التي عاينتها وقصت انباؤها علي، فقلت في ذلك: ألذ ما تمتعت بحسنه النواظر، وابهى ما ارتاحت النفوس الى ازهاره النواضر، وصف رياض الأرض على السماء بأزهارها، وباهت انوار الكواكب بنورها ونوارها.

«فمنها صغد سمرقند - الذي تحف به بساتين كست زهرتها من الأرض عاريها واصبح للسماء بكاء في جوانبها وللروض ابتسام في نواحيها، تتخللها قصور يتضاءل سنا النجم في آفاقها، وتحتجب الغزالة عند طلوعها حياء من بهجتها واشراقها.

«ومنها شعب بوان - الذي غدت مغانيه مغاني للزمان، وقصرت الألسن عن وصف محاسنه وطالت الى اقتطاف ثمره البنان، تكاد شمسه تغرب عند الاشراق، ولا تتخلل اشجاره الا والحياء يعيدها في قبضة الاطراق، يستغني بغدرانه عن صوب الصيب.»[2]

«ومنها نهر الأُبُلّة - الذي طوله اربع فراسخ، ورؤس نخله على وجه الارض شوارف واصولها في الثرى رواسخ، بجانبيه بساتين ان هب النسيم بأغصانها تعانقت وتمايلت، وان لعب بأفنانها تناظرت وتماثلت، كأنما غرست في يوم واحد شجراته، وقامت على خط الاستواء نخلاته، وفيه يقول التنوخي

---

١ - نفس المكان، ج ١ ص ٣٨٤.

٢ - نفس المكان، ج ١١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

شاعر اليتيمة:

واذا نظرت الأبلـــة خلتهـــا من جنـة الفردوس حـين تخيـل
كم منزل في نهرهـــا آلى السرو ر بأنـــه في غـيره لا ينزل
فكأنمـــا تلـك القصور عرائس والزهر وشي فهي فيـه ترفـل
غنـت قيـان الطـير في ارجائـه هزجـا يقـل لـه الثقيـل الأول
وتعانقـت تلـك الغصون فأذكرت يوم الوداع وعيرهم تترحـــل
ربـع الربيـع بهـا فحاكـت كفـه حلـلا بهـا عقـد الهموم تحلـل
فمدبـــج وموشح ومدنر ومعمـــد ومحـــبر ومهلـــل
فتخـال ذا عينـا وذا ثغرا وذا خـدا يعضـض تـارة ويقبـل

« ومنها غوطة دمشق - التي هي شرك العقول وقيد الخواطر، وعقال النفوس ونزهة النواظر، خلخلت الأنهار أسوق أشجارها، وجاست المياه خلال ديارها، وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها، ومثلت في باطنها موائس أغصانها، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان في كل أوان، فيا لها من رياض من لم يطف بزهرها من قبل أن يحلق فقد قصر، ومن غياض من لم يشاهدها في ابانها فقد فاته من عمره الأكثر.

« وهذه الأربعة الأماكن أجمع جوابو الأقطار على تفضيلها على ما عداها، وتمييزها على ما سواها.»[1]

مختارات من مسالك الابصار

نهر النيل

« ومن ذلك نهر النيل. وهو النهر الأعظم الذي لا يعدله في عظيم نفعه شيء: لعظم ما عليه من البلاد وطوله في الأمم. وهو ينصب من جبل القمر.

١ - نفس المكان، ج ١١ ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

وقد قدمنا عند ذكر الجبال طرفا فيه، وان كان لا مقال يوفيه، لأنه احدى الكبر، وأولى العبر، آية من آيات الله في أرضه، وعجيبة لمن تأمل من خلقه. ساقه الله تعالى الى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى. وان لم تكن هي المتفردة بنفعه، فانها كالمتفردة به: لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به. يجيء اليها أحوج ما كانت الى مجيئه، وينصرف أحوج ما كانت الى انصرافه وذلك تقدير العزيز العليم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

« وفيه يقول القاضي الفاضل: « النيل المصري الذي يكسو الفضاء ثوبا فضيا، ويذكي في الأرض ماؤه سراجا من النور مضيا، ويتدافع تياره دافعا في صدر الجدب بيد الخصب، وترضع أمهات خلجانه المزارع، فتأتي ابناؤها بالعصف والأب ».وفيه يقول ايضاً: « وأما النيل فقد امتدت اصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا يعرف الان بمصر قاطبة نهر سواه، ولا من يرجى ويخاف الا اياه ».

« ونحن نذكر كيف هو، فنقول والله اعلم: ان النيل ينصب عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم الذكر. كل خمسة أنهار من شعبة. ثم تتبحر تلك العشرة الأنهار في بحيرتين: كل خمسة أنهار تبحر بحيرة بذاتها. ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل قاقولي، ويمتد الى مدن هناك. ثم يصب في البحر الهندي. ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار. من كل بحيرة ثلاثة أنهار. ثم تجتمع تلك الستة الانهار في بحيرة متشعبة.

« حدثني أقضى القضاة شرف الدين ابو الروح عيسى الزواوي، أن الأمير أبا دبوس ابن أبي العلى أبي دبوس ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المؤمن حدثه أنه وصل الى هذه البحيرة، في أيام هربه من بني عبد الحق، ملوك بني مرين القائمين الآن.

« رجعنا الى ذكر مجتمع تلك الأنهار الستة في تلك البحيرة وبعضهم يسميها:

البطيحة. فنقول:

« وفي تلك البطيحة تضريسة جبل: يفرق بها الماء نصفين.

« يخرج النصف الواحد من غربي البحيرة. وهذا النصف هو المعروف بنيل السودان. ويستقل نهراً يسمى بحر الدمادم. يأخذ مغرباً ما بين سمغرة وغانة، على جنوبي سمغرة وشمالي غانه. ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوباً الى غانة ثم تمر على مدينة برنسة، ويأخذ تحت جبل في جنوبيها خارج عن خط الاستواء الى رقيلة. ثم يتبحر في بحيرة هناك. وتستمر الفرقة الثانية مغربة الى بلاد مالي والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط، شمالي مدينة قلبتو. هذا هو نهر النيجر، وكان القوم يحسبونه والنيل شيئا واحدا.

« ويخرج النصف الآخر متشاملاً آخذا على الشمال الى شرقي مدينة جيمي. ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقاً الى مدينة سحرته. ثم ترجع جنوباً. ثم تعطف شرقاً بجنوب الى مدينة سحرته. ثم الى مدبنة مركة. منتهياً في العود هناك الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة علم عليها في لوح الرسم سه. ويبحر بحيرة هناك.

« ويستمر عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقي مدينة شيمى متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبش. ثم يتشامل على بلاد السودان الى دنقلة، حتى يرمي على الجنادل الى اسوان الى قوص، منحدراً يشق بلاد الصعيد شقاً، حتى يقابل قرية تعرف بدورة سربام. وقد تعرف الآن بدورة الشريف: نسبة الى الشريف بن ثعلب. الثائر في الأيام الظاهرية الركنية بالصعيد لمقامه بها.

« ويتشعب منه في غربيه شعبة تسمى المنهى. تستقل نهرا يصل الى الفيوم. يقال ان يوسف (عليه السلام) احتفره ايام توليه لأمور ملك مصر. وهو يعرف الى الآن ببحر يوسف. وهو نهر لا ينقطع جريانه في وقت من اوقات السنة، بخلاف بقية ما يتشعب بالديار المصرية من خلجان النيل. فيسقي الفيوم عامة سقيا دائماً لا ينقطع. ثم يبحر فاضل مائه في بحيرة هناك.

« ومن العجب - وهو مما رأيته بعيني - انه ينقطع ماؤه من فوهته او

ان انقطاع المياه من خلجان الديار المصرية. ويندّى دون فوهته، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجري جريا ضعيفا دون مكان البلل. ثم يستقل نهراً جارياً لا ينقطع الا بالسفن. ويتشعب منه انهار، وتنقسم قسما الفيوم لسقي قراه ومزارعه وبساتينه وعامة.اماكنه.

ثم نعود الى ذكر عمود النيل الممتد: فنقول:

« انه من دورة سربام حيث يتشعب المنهى يستمر في بقية الصعيد. يشقه شقا الى مدينة الفسطاط (وهي التي يسميها الآن عامة أهل مصر بمصر) حتى يتعداها. ثم يتفرق فرقتين: تأخذ احداهما على دمياط. والأخرى على رشيد. وعندهما انتهاء النيل، ويصب في البحر الشامي.

« ومن مبدأ هبوطه من اسوان مارا في الصعيد الى ان تصب فرقتاه في البحر الشامي، تقسم منه البحار والأنهار، وتتشعب منه الخلج والمساقي. تجري في زيادته، وتنقطع في نقصه.

« وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي (وهو ممن أقام بمالي خمسا وثلاثين سنة، مضطرباً في بلادها، مجتمعاً بأهلها)، قال: « المستفيض ببلاد السودان ان النيل في أصله ينحدر من جبال سود تبان على بعد كأن عليها الغمائم. ثم يتفرق نهرين: يصب أحدهما في البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبي، والآخر يصل الى مصر حتى يصب في البحر الشامي ».

« قال الشيخ سعيد الدُكالي « ولقد توغلت في أسفاري في الجنوب مع النيل. فرأيته متفرقا على سبعة أنهر. تدخل في صحراء منقطعة، ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة، وتخرج من تلك الصحراء نهراً واحداً مجتمعاً. كلا الرؤيتين في بلاد السودان. ولم أره لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها، اذ لم يكن بنا حاجة الى الدخول اليها ».

قلت: والأقوال في اول مجرى النيل كثيرة. ذكر فيها المسعودي وغيره ما لا فائدة فيه.

«والشائع على ألسنة الناس أن احدا ما وقف على أوله بالمشاهدة. وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف على حقيقة أوله.»[1]

نهر اشبيلية

«فمن ذلك، مما هو بجزيرة الأندلس نهر اشبيلية، ينصب من الجبل الفاصل بينها وبين قرطبة، وينصب في البحر الشامي. وهو منْ أحسن الأنهار وأجلها، محفوف بالبساتين والدور والقصور. ومضت فيه - ايام ملك المسلمين لها - أوقات مسرة ولهو. وحكى الفتح بن خاقان، قال: «ركب عبد الجليل بن وهبون، وأبو الحسن غلام البكري من اشبيلية في ليلة أظلم من قلب الكافر، وأشد سواداً من طرف الظبي النافر، ومعهما غلام وضيء قد أطلع وجهه البدر ليلة تمامه، على غصن بان من قوامه، وبين أيديهم شمعتان قد أزرتا بنجوم السماء، ومزقتا رداء الظلماء، وموهتا بذهب نورهما لجين الماء. فقال عبد الجليل ارتجالا:

كأنما الشمعتان اذ سمتا　　خدا غلام محسن الغيد
وفي حشا النهر من شعاعهما　　طريق نار الهوى الى كبدي

وقال غلام البكري:

أحبب بمنظر ليلة ليلاء　　تجني بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهى بغرة اغيد　　يختال مثل البانة الغيناء
قرنت يداه الشمعتين وجهه　　كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاج فوق الماء ضوء منهما　　كالبرق يخفق في غمام سماء

«قلت: ومن هذا النهر أخذت اشبيلية، فقال بعضهم «لَسَبَ اشبيلية عقربها، وساورها أرقمها». يريد بالعقرب شرفها المطل، وهو عقربي الشكل، وبالأرقم نهرها. قالوا: وهو من العجائب.

«وحكى ابن ظافر، قال: «ركب [الأستاذ] أبو محمد بن صارة [مع

---

١ - العمري، «مسالك الابصار» ج ١ ص ٦٧ - ٧١.

أصحاب له] في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها في سماء اللهو عقبانا، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سرراً وأعكانا، في زورق يجول جولان الطرف، ويسود اسوداد الطرف. فقال بديها:

تأمــل حالنـــا والجو طلـــق محيـــاه، وقـــد طفـــل المساء
وقـد جالـت بنـا عـذراء حبلى تجـاذب مرطهـا ريـح رخـاء
بنهر كالسجنجـــــــل كوثري تعبس وجههـــا فيـــه السماء

« ولما وقف عليها ابن خفاجة، استحسنها واستظرفها واستطابها. فقال يعارضها، على وزنها ورويها وطريقها:

ألا يـا حبـذا ضحـك الحميـا بحانتهـــا، وقـــد عبس المساء
وأدهم من جيـــاد المـــاء نهـد تنـــازع حبلـه ريـح رخـاء
اذا بـدت الكواكـب فيه غرقى رأيـــت الأرض تجدبهـــا السماء

نهر سرقسطة

« ونهر سرقسطة. وهو نهر جليل كبير متسع الجوانب.

« وذكر ابن خاقان أن المستعين بن هود ركب هذا النهر يوماً لتفقد بعض معاقله، المنتظمة بجيد ساحله. وهو نهر غزر ماؤه وراق، وأزرى على نيل مصر ودجلة العراق. قد اكتنفته البساتين من جانبيه، وألقت ظلالها عليه، فما تكاد عين الشمس تنظر اليه. هذا على اتساع عرضه، وبعد سطح مائه وأرضه. وقد توسط زورقه زوارق حاشيته توسط البدر للهالة، وأحاطت به احاطة الطفاوة بالغزالة. وقد أعدوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء وأخاف حتى حوت السماء. وأهلة الهالات طالعة من الموج في سحاب، وقانصة من بنات الماء كل طائرة كالشهاب. فلا ترى الا صيوداً كصيد الصوارم، وقدود اللهاذم، ومعاصم الأبكار النواعم. فقال الوزير أبو الفضل بن حسداي، والطرب قد استهواه، وبديع ذلك المرأى قد استرق هواه، وارتجل:

لله يوم أنيـــق واضـــح الغرر مفضـض مذهـب الآصال والبكر
كأنمـــا الدهر لمـــا ساء اعتبنـــا فيه بعثـني وأبـدى صفح معتـذر

نسير في زورق حف السفين به ... من جانبيه بمنظوم ومنتثر
مد الشراع به نشرا على ملك ... بذ الاوائل في أيامه الاخر
هو الامام الهمام المستعين حوى ... علياء مؤتمن في هدي مقتدر
تحوي السفينة منه آية عجبا ... بحر تجمع حتى صار في نهر
تثار من قعره النينان مصعدة ... صيدا كما ظفر الغواص بالدرر
وللندامى به عب ومرتشف ... كالراح تعذب في ورد وفي صدر
والشرب في ود مولى خلقه زهر ... يذكو، وغرته أبهى من القمر»[1]

ديارات

« دير قوطا – وهو بالبردان، على شاطىء دجلة.

« قال الشابشتي: وبينه وبين بغداد بساتين متصلة، ومتنزهات منتظمة. كل ذلك شجر وكروم كثيرة الطرّاق. قال: وهذا الدير يجمع اموالا كثيرة: من عمارته وكثرة فواكهه وما يطلبه أهل البطالة فيه. ولعبد الله بن العباس الربيعي فيه:

يا دير قوطا، لقد هيجت لي طربا ... أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
بشادن ما رأت عيني له شبها ... في الناس، لا عجما منهم ولا عربا
والله، لو سامني نفس سمحت بها ... وما بخلت عليه بالذي طلبا

وأنشد الشابشتي له فيه قوله:

يا حبذا يومي بالداليه ... نشربها قفصية صافية
مع كل قرم متلف ماله ... لم تبق في الدنيا له باقية
فخذ من الدنيا ولذاتها، ... فانما نحن بها عارية.[2]

« دير الرصافة – هو بالشام، قريب رصافة هشام بن عبد الملك. وموضعه حسن. وفيه قيل:

---

١ – نفس المكان، ص ٧٤ – ٧٧.
٢ – نفس المكان ص ٢٨٠.

نراك جزعت يا دير الرصافة غداة تحولت عنك الخلافة
فلا تجزع وتذري الدمع حزنا، فان لكل مجتمعين آفة

وحُكي أن أبا نواس مر به، فبات فيه. فلما رحل عنه، قال:

ليس الا دير الرصافة دير فيه ما تشتهي النفوس وتهوي
بته ليلة فقضيت اوطا را ويوما ملأت قطريه لهوا

«وقد ذكره ابو الفرج وقال: ان ابن حمدون حكى أن المتوكل لما اتى دمشق، ركب يوما الى رصافة هشام، يزور دوره وقصوره. ثم خرج فأتى الدير وهو من بناء الروم، حسن البناء، بين مزارع وانهار. فبينا هو يدور، اذ بصر برقعة قد ألصقت في صدره. فأمر بها ان تقلع ويؤتى بها. فقلعت واذا فيها:

أيا منزلا بالدير اصبح خاليا! تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تسكنك بيض أوانس ولم تتبختر في فنائك حور
وأبناء أملاك عباشم سادة أصاغرهم عند الأنام كبير
اذا لبسوا أدراعهم فضراغم وان لبسوا تيجانهم فبدور
ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه يا دير وهو أمير
اذ العيش غض والخلافة لدنة وأنت طرير والزمان غرير
وروضك فينان يذوب نضارة وعيش بني مروان فيك نضير
رويدك ان اليوم يتبعه غد وان صروف الدائرات تدور

« فلما قرأها المتوكل، ارتاع وتطير. وقال أعوذ بالله من شر أقداره! ثم دعا بالديراني وقال: من كتب هذا؟ قال: والله لا أدري. لأني منذ نزل أمير المؤمنين هنا، لا أملك من أمور هذا الدير شيئاً. يدخله الجند والشاكرية. وغاية قدرتي أني متوار في قلايتي. فهم بضرب عنقه واخراب الدير. فلم يزل به الفتح بن خاقان حتى كف. ثم ظهر أن الذي كتبها رجل من ولد روح بن زنباع، صاحب عبد الملك، وأمه مولاة لهشام.»[1]

« دير السيق - قبلي البيت المقدس. على نشز عال، مشرف على الغور،

---

١ - نفس المكان، ص ٣٣٢ - ٣٣٤.

غور أريحا. يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة. وبه رهبان ظراف اكياس، ولا يأتيهم الا قاصد لهم او مار في مزارع الغور. تحتهم وفوقهم الطريق الاخذة الى الكثيب الأحمر. وقبر موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس.

وفي هذا الدير ومشترفه، واطلال قلاليه وغرفه، قلت:

اری حسن دیر السيق يزداد كلما نظرت اليه والفضاء به نضر
بنوه على نجد على الغور مشرف كتخت مليك تحته بسط خضر
وأشرق في سود الغمام كأنما تشقق ليلا عن جلابيبه الفجر
وقام على طود علي كأنما مصابيحه تحت الدجى الأنجم الزهر
وزفت اليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في افقه البدر
والقت اليه الريح فضل عنانها واحنى عليها لا تبل له عذر
ولو كان كالنسرين هان ارتقاؤه ولكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريحا والمجرة فوقه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر»[1]

طرابلس

قال ابن فضل الله: «ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها بحيث يجري الماء في الاماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات اشجار وكروم ومروج واغنام وبقر. ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج. ويعمل بها السكر. وتأتيها وفود البحر وترسي بها مراكبهم وهي موضع زرع وضرع. وهي الان مدينة كثيرة الرخام بها مارستانان ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات حسان موصوفة واسواق جليلة وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهراً وباطناً. بها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها.»[2]

---

١ - نفس المكان، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

٢ - العمري عن ابن الشحنة، «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

تونس

« قال البكري: ودور هذه البحيرة نحو اربعة وعشرين ميلاً. قال في « العزيزي »: وهي مدينة جليلة، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها، وفيها الخصب وكثرة الغلات وهي في وطاءة من الأرض في سفح جبل يعرف بأم عمرو يستدير بها خندق وسور حصين، ولها ثلاثة ارباض كبيرة من جهاتها، وارضها سبخة، وجميع بنائها بالحجر والآجر، وابنيتها مسقفة بالأخشاب، ودور اكابرها مفروشة بالرخام. وذم في « الروض المعطار » بيوتها فقال هي كما يقال: ظاهرها رخام، وباطنها سخام. وشرب اهلها من الأبار، وبيوتها صهاريج يجمع فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه، وبها الحمامات والأسواق الجليلة، وبها ثلاث مدارس: وهي الشماعية والفرضية، ومدرسة الهواء، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها، والبساتين محيطة ببحيرتها المقدّم ذكرها من جنوبيها.

« قال في « مسالك الأبصار »: ومذ خلا الأندلس من اهله، واووا الى جناح ملوكها، مصر واقليمها، ونوّعوا بها الغراس، فكثرت مستنزهاتها، وامتدّ بسيط بساتينها. قال: وبها يعمل القماش الافريقي: وهو ثياب رفاع من القطن والكتان معاً ومن الكتان وحده، وهو امتع من النّصافيّ البغدادي واحسن، ومنه جلّ كساوى اهل المغرب. وللسلطان بها قلعة جليلة يسكنها، يعبرون عنها بالقصبة كما هو مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة، وللسلطان بها بستانان: احدهما ملاصق ارباض البلد يسمى براس الطابية، والثاني بعيد من البساتين يسمى بأبي فهر، بينه وبين البلد نحو ثلاثة اميال، والماء منساق اليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زغوان. »[1]

---

١ - القلقشندي، ج ٥، ص، ١٠٢ - ١٠٣.

سجلماسة

«وهي مدينة عظيمة اسلاميّة، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة، وليس قبليّها ولا غربيها عمران، وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه، لا يدخلها الا الابل المصبرة على العطش. اختطّها يزيد بن الأسود من موالي العرب، وقيل: مدرار بن عبد الله. وكان من أهل الحديث، يقال انه لقي عكرمة مولى ابن عباس بأفريقية وسمع منه. وكان صاحب ماشية، وكان ينتجع موضع سجلماسة بالصحراء ليرعى به ماشيته، فكان يجتمع اليه أهل تلك الصحراء من مكناسة والبربر، وكانوا يدينون بدين الصفرية من الخوارج، فاجتمع عليه جماعة منهم فلما بلغوا أربعين رجلاً قدموا عليهم يزيد بن الأسود وخلعوا طاعة الخلفاء، واختطوا هذه المدينة سنة أربعين ومائة من الهجرة. ولها اثنا عشر باباً، وهي كثيرة العمارة، كثيرة البساتين، رائقة البقاع، ذات قصور ومنازل رفيعة وعمارات متصلة، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء، يزيد في الصيف كزيادة النيل، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل، والزرع عليه كثير الاصابة، والمطر عندهم قليل: فاذا كانت السنة كثيرة الامطار، نبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بذر، وربما حصدوه عند تناهيه وتركوا أصوله فتنبت ثانياً. ويقال: يزرع بها عاما ويحصد ثلاثة أعوام، وذلك أن أرضها مشققة، وهي بلدة شديدة الحرّ فاذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد ودخل في الشقوق، فاذا كان العام الثاني وعلاه ماء النهر وخرج عنه حرثوه بلا بذر فينبت ما في الشقوق، ويبقى كذلك ثلاث سنين.»[١]

مدينة مراكش

« بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة. وهي مدينة واقعة في أول الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن

---

١ - نفس المكان، ج ٥، ص ١٦٣ - ١٦٤.

سعيد: حيث الطول احدى عشرة درجة، والعرض تسع وعشرون درجة. بناها امير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المرابطين في أرض صحراوية، وجلب اليها المياه. قال ابن سعيد: واول ما بنى بها القصر المعروف بقصر الحجر ثم بنى الناس حوله، ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن، وكبّرها ومصّرها، وفخّمها وضخّمها، وجلب اليها المياه والغراس. قال في « تقويم البلدان »: ودورها سبعة أميال، ولها سبعة عشر بابا، قال في « الروض المعطار »: وبنى سورها علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، وقيل سنة أربع عشرة وخمسمائة. قال: وطولها مائة وعشرون ميلا، وعرضها قريب من ذلك، وهي في وطأة من الأرض ليس حولها جبال الا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى منه علي بن يوسف بن تاشفين قصره، وعامّة بنائها بالطين والطوب.

« قال ابن سعيد: وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهراً وباطناً ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحّمام والاصطبلات والمياه، وغير ذلك حتى ان الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج اليه، ولا يخرج من بابه الى خارج داره لحاجة يحتاجها، ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكل، ولا يقرىء أولاده في مكتب، ويخرج من بابه راكباً فلا تقع عليه العين راجلا. قال: ولا أدري كيف أصل الى غاية من الوصف اصف بها ترتيب هذه المدينة المحدثة، فانها من عجائب همّات السلاطين، ذات اسوار ضخمة وأبواب عالية.

« وبظاهرها مدينة اختطها المنصور « يعقوب بن عبد المؤمن » له ولخواصه تعرف بتا مرّاكش، وبها قصر الخلافة الذي بناه به دور عظيمة، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله اثنا عشر ميلا، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها قال العقيلي: طولها ثلثمائة وثمانون باعا، على جانبها الواحد اربعمائة شجرة نارنج، بين كل اثنتين منها ليمونة أو ريحانة. وهي أكثر بلاد الغرب بساتين، وشجرها أكثر منها، وبساتينها تسقى بالبئار وبئارها قريبة الرشاء على نحو قامتين من وجه الأرض، وهي كثيرة الزّرع والضّرع، وبها دار الضيافة المعروفة بدار

الكرامة. وفيها يقول محمد بن محمد البربريّ من أبيات يمدحهم ويصفها:

خـــير قوم دعوا الى خـــير دار، هي للملـــــك نضرة وكمامـــــة
عـــالم السبعـــة الأقالـــيم فيهـــا وهم في فنائهـــــا كالقلامـــــة

« وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين، طوله مائة وعشرة أذرع، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعاً، كان يرمي فيها عند انقضاء كلّ ساعة صنجة زنتها مائة درهم، تتحرّك لنزولها أجراس تسمع على بعد، تسمى عندهم بالبجّانة. قال في « تقويم البلدان »: الا أنّ الناس اكثروا فيها البساتين فكثر وخمها. قال في « الروض المعطار »: وقد هجاها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد بن ايوب بن نوح الغافقي من اهل بلنسية بأبيات أبلغ في ذمّها فقال:

مرّاكش ان سألـــت عنهـــا، فانّهـــا في البـــلاد عـــار
هواؤهـــا في الشتـــاء ثلـــج، وحرّهـــا في المصيـــف نـــار
وكـــلّ مـــا ثم وهو خـــير من أهلهـــا عقرب وفـــار
فـــان أكن قـــد مكثـــت فيهـــا، فـــانّ مكثي بهـــا اضطرار! [1]

المقصد الثاني

(بلاد الغرب الاقصى)

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها ورياحينها ومواشيها، ومعاملاتها، وصفات أهلها. وفيه خمس جمل).

الجملة الاولى

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها، ورياحينها)

« أما زرعها فعلى المطر كما تقدم في افريقية.

« وأمـا حبوبهـا، ففيها من أنواع الحبوب: القمح، والشعير، والفول، والحمص، والعدس، والدّخن، والسلت وغير ذلك. أما الأرز فانه عندهم قليل،

---

١ - نفس المكان، ٥، ص ١٦١ - ١٦٣.

بعضه يزرع في بعض الأماكن من برّ العدوة، وأكثره مجلوب اليهم من بلاد الفرنج. على انهم لا نهمة لهم في أكله ولا عناية به. وبها السمسم على قلّة، ولا يعتصر منه بالمغرب شيرج لاستغنائهم عنه بالزيت حتى مزورات الضعفاء وكذلك يعملون الحلوى بالعسل والزيت، وانما يستعمل الشيرج عندهم في الأمور الطبية.

« وأما فواكهها، فبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع: بين النخل، والعنب، والتين، والرمان، والزيتون، والسفرجل، والتفاح على أصناف، وكذلك الكمثرى، وتسمى عندهم الانجاص كما بدمشق، وبها المشمش والتين، والبرقوق، والقراصيا، والخوخ، وغالب ذلك على عدّة أنواع، والتوت على قلة، والجوز، واللوز. ولا يوجد بها الفستق والبندق الا مجلوباً. وبها الاترج، والليمون، والليم، والنارنج، والزنبوع، وهو المسمى بمصر والشام الكبّاد. وبها البطيخ الأصفر والأخضر واسمه عندهم الدلاع كما في سائر بلاد المغرب على قلة، والموجود منه غير مستطاب. وبها الخيار، والقثاء، واللفت، والباذنجان، والقرع، والجزر، واللوبيا، والكرنب، والثار، والصعتر وسائر البقول. والموز موجود بها في بعض المواضع نادراً، والقلقاس لا يزرع عندهم الا للتفرج على عروقه لا لأن يؤكل، وبها قصب السكر بجزائر بني مزغنّان وبسلا كثير، ويعصر ثم يعمل منه القند ومن القند السكر على أنواع لا سيما بمرّاكش، فانه يقال ان بها أربعين معصرة للسكر، وان حمل حمار من القصب يساوي درهماً من دراهمهم: وهو ثلث درهم من الدراهم المصرية، ويعمل منه المكرّر الفائق، ومع ذلك فليس لهم به اهتام لاكتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم، وميلهم إليه أكثر من السكّر، حتى يقال انه لا يستعمل السكر عندهم الا الغرباء أو المرضى.

« وأما رياحينها، فبها الورد، والبنفسج، والياسمين، والآس، والنرجس، والسوسن، والبهار، وغير ذلك.»[1]

---

١ - نفس المكان، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٧٦

الفصل السادس

تونس وجغرافيو العرب

اذا فحصنا مؤلفات الجغرافيين العرب لوجدنا انهم بعد ان يتناولوا الارض بشكل عام، يأخذون بالتحدث عن البحار والانهار وتشابه الاقاليم وما الى ذلك. ثم ينتقلون الى الاجزاء نفسها فيعالجونها قطراً قطرا او مملكة مملكة. فهذا المقدسي مثلاً يبدأ حديثه عن المغرب بقوله « هذا اقليم بهي، كبير سري، كثير المدن والقرى،عجيب الخصائص والرخا.به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة. »[1] ويختم كلامه عنه بقوله « هو اقليم جليل، كبير طويل، يوجد فيه اكثر ما يوجد في سائر الاقاليم مع الرخص، كثير النخيل والزيتون، به مواضع الحر ومعادن البرد... جيد الهواء والماء. فاما الحر فانك تجده من مصر الى السويس الاقصى، الا في مواضع فان بها جبالا وبلداناً باردة »[2]

والمغرب في عرف الجغرافيين العرب هو المنطقة الممتدة من مصر الى المحيط الاطلسي، وكثيراً ما يدخلون الاندلس فيه. وسنقتصر في هذا الفصل على ما كتبه ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » عن مدن مدن القطر التونسي. يقول ابن حوقل:

« وقابس مدينة منها على ست مراحل الى جهة القيروان وجادة الطريق. ذات مياه جارية، واشجار متهدلة وفواكه رخيصة. وبها من البربر الكثير ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، الى زيتون وزيت وغلات.

---

١ - المقدسي ص ٢١٥.

٢ - نفس المكان ص ٢٣٦.

وعليها سور يحيط به خندق. ولها اسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير. ويعمل بها الحرير الكثير الغزير، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم أكثر المغرب فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس بمثل حال الاديم الجرشي. وبها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود، وسائمة كثيرة. ولها عامل بنفسه، وهي خصبة في اكثر اوقاتها... وفي باديتهم شر شمر ... وذلك انهم لا يخلون من الشراية والقول بالوعد والوعيد مع الغيلة لبني السبيل والاعتراض على اموالهم في الكثير والقليل. والويل لمن نام بينهم، والحرب على من جاورهم واستجار بهم، مخالفين اكثر ايامهم لسلطانهم، مواربين في الحقوق عليهم. ولم تزل هذه العادة بهم الى ان سار منهم الكثير الى قابس فأحرقوا ربضها وحاصروها واستباحوا اموال تجارها واهل الذمة منها وامكن الله تعالى منهم فاهلك جميع من رصدها ثم سار عليهم زعيم صنهاجة فجعل عشرة منهم في كساء.

« ومدينة سفاقس مدينة جل غلاّتها الزيتون والزيت، وبها منه ما ليس بغيرها مثله. وكان سعره عندهم فيما سلف من الزمان بحال غيّرته الفتن. في وقتنا هذا ربّما بلغ من ستين قفيزا بدينار الى مائة قفيز بدينار على حسب السنة وريعها. وزيت مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلته بالشام. وهي ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء. وعليها سور من حجارة وابواب حديد منيعة، وفيها محارس مبنية للرباط بها. واسواقها عامرة وهي قليلة الكروم وفاكهتها من قابس تسد حاجة اهلها وشرب اهلها من مواجن بها ومواجنها صالحة الطعوم حافظة لما استودعت. ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم تصاد بحظائر قد زربت وعملت في الماء فتؤخذ بأيسر سعي. وبناؤها بالحجارة والجير وبينها وبين المهدية مرحلتان ولها عامل عليها للسلطان بذاته ».[1]

« والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب وسماها بهذا الاسم وهي في نحر البحر وتحول اليها [من رقادة القيروان] في سنة ثمان وثلثمائة، وهي

١ - نفس المكان ص ٧٠ - ٧١.

من القيروان على مرحلتين. فرضة لما والاها من البلاد كثيرة التجارة، جسنة السور والعمارة منيعة، ولها سور من حجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الارض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملا ومثل شكلهما اتخذا. كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والخانات خصبة رفهة الفواكه والغلات طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر. أدركتها سنة ست وثلثين وملوكها كماة وجيوشها حماة وتجارها طراة. وقد اختلت احوالها والتاثت أعمالها وانتقل عنها رجالها بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها. وكان اول نحس أظلّها ابو يزيد مخلد بن كيداد وخروجه بالمغرب على اهلها. وانثالت المناحس عليها الى الآن وقد بقي بها بعض رمق.»[٢]

«وأما سوسة فمدينة بين الجزيرة والمهدية طيبة رفهة خصبة على نحر البحر، ولها سور حصين، وماؤها معين، وبها مواجن قليلة، واعمال صالحة نبيلة، وفي اهلها دهقنة والغالب عليهم السلامة، وهي احدى فرض البحر. ولها اسواق حسنة وفنادق وحمامات طيبة. وهي من القيروان على مرحلة. وكانت لها ضياع جمة ووجوه من الجباية غزيرة وغلات واسعة ورباطات كثيرة. وبين المهدية وسوسة رباط يسكنه امة من الناس على مر الايام والساعات يعرف بالمنستير ويقصده اهل افريقية لوقت من السنة فيقيمون به اياماً معلومة ويحضر بفاخر الاطعمة ونفيس المآكل. ويقيم جمعهم به مدة ثم يتفرقون الى اوطانهم وهو على نحر البحر.»[١]

«مدينة تونس وهي قديمة ازلية ذات مياه جارية قليلة والانتفاع بها كثير والعائدة الى اربابها صالحة. وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب. وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش فلما أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان

---

١ - نفس المكان ص ٧١.
٢ - نفس المكان ص ٧٢ - ٧٣.

سميت تونس. وهي مصاقبة لقرطاجنة المشهور امرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات. ومن غلاتها القطن ويحمل الى القيروان فيظهر الانتفاع به وكذلك القنب والكرويا والعُصْفُر والعسل والسمن والحبوب والزيت، وكثير من الماشية مختصة بها.»[١]

«وبنزرت مدينة على البحر خصبة اصغر من سوسة في ذاتها وعامل المعونة ينزل من أعمالها في بنزرت فيها ثمار كثيرة، وانهار طفورة واسعة غزيرة والارتفاع بها والجدى على السلطان قليل. والحيتان بها وبتونس ما يزيد على الكثرة ولا يدانيه ما باطرابلس من الرخص والسعة. (ولها واد عجيب يخرج فيه في كل شهر نوع من السمك. واذا اهل الهلال لا تجد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره). واهل هذا الاقليم جلد وناسه ذوو بأس في البر والبحر صبر على الشقاء والكد مع قلة الخور والضجر، وان كان بلدهم في هذا الوقت قد خلا وجلا.»[٢]

«وطبرقه قرية وهي عدوة لاهل الاندلس اليها ينتهون ومنها الى الاندلس يركبون. (وهي قرية وبئة وبها عقارب قاتلة نحو عقارب عسكر مكرم في وحاء القتل وسرعته) ومضاء الميتة وقربها. ومن أراد طبرقه من تونس على الجادّة اجتاز على باجه وهي مدينة قديمة ازلية كثيرة القمح والشعير ولها من الغلات والزروع ما ليس بجميع المغرب، كهو عندي كثرة وجودة ونقاء الى جوهر في نفس حبوبها. وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء واسعة الفضاء غزيرة الدخل على السلطان وافرة الارباح على تجارها والمزارعين بها وطبرقة المذكورة مع صغر مقدارها وتفه منزلتها فانما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالاندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها. وتعشيرهم كان في سالف الزمان بها وهي تجاه اوائل الاندلس من المكان الذي هي به وتحاذي ايضاً بعض بلاد افرنجه.»[٣]

---

١ - نفس المكان ص ٧٣ - ٧٤.
٢ - نفس المكان ص ٧٤.
٣ - نفس المكان ص ٧٤ - ٧٥.

الفصل السابع

السند وجغرافيو العرب

في القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) بلغت العناية بالجغرافية والاقاليم درجة كبيرة بين المواضيع التي طرقها المؤلفون العرب. وقد نبغ في هذا العصر عدد من الجغرافيين يمكن اعتبارهم اعلاما في بحوثهم ودراساتهم. ومن حسن الحظ ان الكثير من آثارهم قد وصل الينا. ومن الاسماء اللامعة في تلك الفترة، ابن رسته (الاعلاق النفيسة) والاصطخري (مسالك الممالك) وابن حوقل (كتاب صورة الارض) والمقدسي (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم). يضاف الى هؤلاء الجغرافيين بالمعنى الدقيق رحالون وعلماء من نوع آخر. فمن بين هؤلاء بزرك بن شهريار (كتاب عجائب الهند). هذه بعض الاسماء اللامعة التي ترجع الى ذلك القرن فقط.

وبعد فما الذي يقدمه لنا هؤلاء الناس عن بلاد السند وهي القسم الاكبر من الباكستان الغربية؟ ولنذكر قبل كل شيء ان السند، في الوقت الذي نتحدث عنه، اي في القرن الرابع للهجرة، كانت اقصى قطر في المملكة الاسلامية شرقاً. هذا ما يؤكد عليه كل الذين كتبوا عن السند في ذلك الوقت. ولنذكر ثانية انه لم يكن بين هؤلاء الجغرافيين ما يمكن أن يسموا اليوم علماء اجتماع او علماء في السلائل البشرية. لذلك فالملاحظات حول هذه الامور قليلة. ومع ذلك ففي اخبارهم امور كثيرة تمت الى الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والسياسة بصلة كبيرة، وتزود الباحث الصبور باخبار اقل ما يقال عنها انها نافعة، اذ يمكن الافادة منها في اتمام الصورة التي يتوخاها الدارسون.

والذي ننوي ان نفعله في هذا الفصل هو ان نخرج من آثار هؤلاء الجغرافيين صورة لبحر الهند، او كما نسميه اليوم المحيط الهندي، وصورة اخرى لبلاد السند نفسها. ونود ان نشير الى ان بعض الروايات كانت لا تخلو من اخطاء، لكن المهم هو ان نرى مقدار ما ادرك هؤلاء الناس وعرفوا، وقد عاشوا قبل ايامنا بالف سنة!

اما بحر الهند وما فيه فنعتمد في رسم صورته على ابن رسته والمسعودي وبزرك. فالاول عالج البحر علماً ووصفا، والثاني سافر فيه والثالث جمع اخبار ربابنته او ناخوداه كما يسمي الفرس الربان. وبعد ان يعدد ابن رسته البحار العظام ومنها: بحر الهند وبحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وبحر نبطس (البحر الاسود)، ينتقل الى التخصيص فيقول « فاما البحر الهندي فانه يمد طوله من المغرب الى المشرق وذلك من اقصى الحبش الى اقصى الهند يكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل في الفين وسبع مائة ميل، ويجاوز جزيرة استواء الليل والنهار بالف وتسع مائة ميل. يخرج منه خليج عند ارض الحبش يمر الى ناحية البربر يسمى الخليج البربري يكون طوله مقدار خمس مائة ميل وعرض طرفه مائة ميل. ويخرج منه خليج آخر نحو أيلة طوله الف واربع مائة ميل وعرضه في الاصل سبع مائة ميل ومنتهاه اعني أيلة طوله الف واربع مائة ميل وعرضه في الاصل سبع مائة ميل ومنتهاه اعني طرفه الادنى الذي يسمى البحر الاحمر مقدار مائتي ميل. ويخرج منه خليج الى ناحية فارس يسمى الخليج الفارسي طوله الف واربع مائة ميل وعرضه في الاصل خمس مائة ميل وطوله خمسون ومائة ميل. وبين هذين الخليجين، خليج ايلة وخليج فارس، ارض الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب الف وخمس مائة ميل. ويخرج منه خليج آخر الى اقصى الهند عند تمامه يسمى الخليج الاخضر وطوله الف وخمس مائة ميل. وفي البحر الهندي هذا من الجزائر العامرة وغير العامرة الف وثلاثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة ضخمة في اقصى الهند مقابل ارض الهند من ناحية ارض المشرق يسمى طبروباني يحيط بها ثلاثة آلاف ميل فيها جبال

عظام وانهار كثيرة ومنها يخرج الياقوت الاحمر ولون السماء وحوالي هذه الجزيرة تسع عشرة جزيرة عامرة فيها مدائن وقرى وقرى كثيرة.»[1]

ويتم المسعودي الصورة بقوله «فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند، ومن في جزائره، ومن قد احاط به من الامم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم وعددهم الا من خلقهم. ولكل قطعة منهم اسم يفرده من غيره والماء واحد متصل غير منفصل. وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، ومنه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كله وسريره، وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان، ونحاس بارض عمان، وفيه انواع الطيب والافاوية والعنبر وانواع الادوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران....

«ولكل من يركب هذا البحر من الناس رياح يعرفونها في اوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها في ابان هيجانه، واحوال ركوده وثورانه. هذا فيما سمينا من البحر الحبشي.»[2]

اما بزرك الذي تقصى اخبار الملاحين في هذا البحر فنكتفي بنقل احدى قصصه قال: «ومن مصائب البحر المشهورة التي أُثرت الى يومنا هذا ما حدّثني به بعض التجار قال: خرجت في مركب من سيراف في سنة ٣٠٦ اريد صيمور وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا. وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر والمراكب الموصوفة في البحر، ونواخذتها مشهورون لهم قدر ومنزلة في البحر. وكان في المراكب ١٣٠٠ رجل من التجار والنواخذة والبانانية وغيرهم من صنوف الناس. وفيها من الاموال والامتعة ما لا يعرف قدره لكثرته فلما سرنا ١١ يوماً رأينا آثر الجبال ولوائح ارض سندان وتانة

---

١ - ابن رسته ص ٨٣ - ٨٤.

٢ - المسعودي، ابو الحسن علي، «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، باريس، المطبعة الامبراطورية، ١٨٦١ ج ١ ص ٢٤١ - ١٠٧.

وصيمور وما سار هذا السير السريع قبلهم احد فيما سمعنا فاستبشرنا وسررنا وبشرّ بعضنا بعضاً بالسلامة واخذنا في الاستعداد لأنا قدّرنا انّا نصبح من غد الارض. ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع واخذنا الخبّ والمطر والرعد والبرق. فقال الربانية والبانانية: نطرح الامتعة فمنعهم أحمد وقال لا أطرح الا بعد ان يخرج الامر عن يدي واعلم اني هالك. ونزل الرجال ينزفون الجمّة من الجانبين والمركبان على مثل حالنا كل واحد منهما ينتظر صاحبه من طرح او غيره فيفعل مثله. وضج التجار وقالوا: له اطرح الامتعة وانت في الحل فانا نهلك. فقال لا اطرح البتة ولم يزل الامر يتزايد الى ان مضت ستة ايام. فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب ان يغوص في البحر قال اطرحوا الحمولة فلم يمكن طرح شيء لان الخوابي والاعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمس مائة من قد صار فيه الف وخمس مائة من بالمطر وعاجلهم الامر وطرحوا القارب الى الماء ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلاً وقيل لاحمد قم فانزل في القارب فقال لا ابرح من مركبي فانه أرجا في السلامة من القارب وان تلفت معه فلا حظّ لي في الرجوع بعد تلف مالي.... وهلك جميع اهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم احد الا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربان المركب احمد. وكان اسمه بقي. وكان قدْ زاد تلف هذه المراكب وما فيها من المعايش في اختلال سيراف وصيمور لعظم ما كان فيها من الاموال ووجوه النواخذة والربان والتجار.»[1]

فاذا هالتنا صورة البحر بما فيه من موج يحمل السفن كالريش في مهب الرياح، وانتقلنا الى البر لنضع اقدامنا على شيء ثابت، وجدنا بغيتنا عند ثلاثة من جغرافيي القرن العاشر (الرابع) هم - الاصطخري وابن حوقل والمقدسي.

فالمقدسي يقدم الينا اقليم السند بقوله « هذا اقليم الذهب والتجارات،

---

١ - بلاشير، منتخبات، ص ١٠٤ - ١٠٧.

والعقاقير والآلات، والفانيذ والخيرات، والارزاز والموز والاعجوبات، به رخص وسعة ونخيل وتمرات، وعدل وانصاف وسياسات. وبه خصائص وفوائد وبضاعات، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات، ومصر جليل ومدن سرية وقصبات، وسلامة وعافية وثم امانات. قد جاور البحر، وشقة النهر، وحوى النخل، وله سهل وزرع على البعل. مصر ظريف، ونهر شريف، وامره طريف، غير ان ذمته مشركون والعلماء به قليلون ولا تصل اليه الا بعد اخطار البر واهوال البحر، بعد الشقّ وضيق الصدر وهذا مثاله وشكله....

« واعلم اني قد درت على تخوم هذا الاقليم وبلغت سواحله كلها ورأيت وسمعت ما ساذكره واكثرت السؤال عن اساميه وتفحصت عن اخباره وعرفت مدنه ومع هذا فلا اضمن من وصفه ما اضمن من غيره، ولا اصف الا امصاره ولا استقصي في شرحه لما روى كفى بالمرء الكذب ان يحدث بكل مايسمع ولقوله صلعم ليس الخبر كالمعاينة. ولولا خشية ان يختلّ هذا الاصل ويبقى من الاسلام صدر لاعرضنا من الكلام فيه. »[1]

ويتحدث هؤلاء بعد ذلك عن اجزاء السند المتاخمة للهند على قولهم، « الغالب على هذه الناحية الكفر وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا الا مسلم يستخلفه عليهم كذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الاطراف، التي يغلب عليها املاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانه » وكوغه. والمسلمون لا يقبلون ان يحكم عليهم الا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة الا من في دعوتهم وان قلّ عددهم في بعض الممالك قبلوا من اهل الممالك المشار اليه في العفة فان جرحه الخصم وزكاه المسلمون أمضيت شهادته واخذ الحق بقوله من المسلمين. وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات ويقام بسائرها الصلوات بالآذان في المنار والاعلان بالتكبير والتهليل. »[2]

---

١ - المقدسي ص ٤٧٤ - ٣٧٥.

٢ - ابن حوقل. ج ٢ ص ٣٢٠.

والمدن الرئيسية التي كانت في السند في تلك الأزمنة هي المنصورة والملتان وبسمد والديبل والبيرون والرور.

« فالمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه بالجزيرة واهلها مسلمون. ملكها من قريش من ولد هبار بن الاسود وقد تغلب عليها اجداده وساسوهم سياسة اوجبت رغبة الرعية فيهم وايثارهم على من سواهم، غير ان الخطبة لبني العباس. وهي مدينة جرومية خارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز (ولا كمثرى)، ولهم قصب سكر يعقد منه القند الغزير الكثير. وبارضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الانبج تقارب طعم الخوخ، واسعارهم رخيصة وبها خصب.»[1]

« والمنصورة هي قصبة السند ومصر الاقليم تكون مثل دمشق. بناؤهم خشب وطين والجامع من حجر وآجر كبير مثل جامع عمان على سواري ساج. لها اربعة ابواب باب البحر باب طوران باب سندان باب الملتان ولهم نهر يحوط بالبلد. اهل لباقة ولهم مروّة وللاسلام عندهم طراوة والعلم واهله كثير والتجارات ثمّ مفيدة ولهم ذكاء وفطنة ومعروف وصدقة. والهواء ليّن والشتاء هيّن والامطار كثيرة والاضداد مجتمعة، ولهم خصائص غريبة. وثم جواميس عظيمة شربهم من نهر مهران والجامع وسط الاسواق والرسوم تقارب العراق مع وطآء وحسن اخلاق الا انه شديد الحر.»[2]

« والملتان مدينة نحو نصف المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب وبها الصنم الاعظم للهند الذي تحج اليه من اقاصي بلدانها وسائر اصقاعها وتعظمه. ويتقرب الى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتفكين عليه منهم. وسميت الملتان باسم الصنم، والصنم اسمه

---

١ - نفس المكان، ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١.

٢ - المقدسي ص ٤٧٩.

الملتان. ومكان هذا الصنم في قصر مبني في اعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصف الصفارين. وفي وسط هذا الصنم ومن اعتكف عليه. وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الاوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم. وهذا الصنم صورة على خلقة الانسان مربع على كرسي من جص آجر، وقد البس الصنم جلداً يشبه السختيان احمر فلا يتبين من جسده شيء الا عيناه. فمنهم من يزعم ان بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك غير انه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه اكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه. وقد اصابع يديه كمن يحسب اربعة، وعامة ما يحمل الى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري امير الملتان وينفق على السدنة منه كفافهم، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على الملتان في انتزاع الصنم منهم فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره واحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخرّبوا الملتان، وعلى الملتان حصن واعمر منها وسميت الملتان بفرج بيت الذهب لانها فتحت في اول الاسلام وكان بالمسلمين ضاقة وقحط فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا فيها بما وجدوه، وفي اهلها رغبة في القرآن وعلمه والاخذ بالمقارىء السبعة والفقه وطلبة الادب والعلم... وبخارج الملتان على نصف فرسخ منها ابنية كثيرة تعرف بالجندرور وهي معسكر الامير ولا يدخل الامير منها الى الملتان الا في يوم الجمعة عند ركوبه الفيل ويدخل فيصلي الجمعة باهلها ويعود على الفيل الى دار امارته وهو من ولد سامة ابن لؤي بن غالب وليس هو في طاعة احد وخطبته لبني العباس.»[1]

« والملتان تكون مثل المنصورة غير انها اعمر ليست بكثيرة الثمار غير انها رخيصة الاسعار... دورها حسنة تشاكل دور سيراف من خشب الساج طبقات. ليس عندهم زنا ولا شرب خمر ومن ظفروا به يفعل ذلك قتلوه او حدّوه ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل ولا يخسرون في وزن يحبون

---

١ - المسعودي ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٩؛ ابن حوقل ص ٣٢١ - ٣٢٢.

الغرباء واكثرهم عرب. شربهم من نهر غزير والخير بها كثير والتجارات حسنة والنعم ظاهرة والسلاطين عادلة لا ترى في الاسواق امرأة متجملة ولا احد يحدثها علانية. ماء مري وعيش هني وظرف ومروّة وفارسية مفهومة وتجارات مفيدة واجسام صحيحة.»[1]

«واما بسمد فمدينة صغيرة وهي والملتان دون الجندور عن شرقي نهر الملتان وهو نهر مهران وبين كل واحدة منهما وبين النهر نحو نصف فرسخ، وشربهم من الآبار. وبسمد هذه خصبة وتكتب بالباء والفاء. ومدينة الرور تقارب الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شط نهر مهران ايضاً وهي من حد المنصورة، خصبة رفهة كثيرة التجارة، والديبل من غربي نهر مهران على البحر وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس وليس لهم كثير شجر ولا نخيل وهو بلد قشف وانما مقامهم للتجارة.»[2]

فاذا انتهينا من وصف المدن الرئيسية في السند، دون التعرض للجوار شرقاً او غرباً، عدنا الى المقدسي لنأخذ منه بعض اجماله لشؤون الاقليم كله.

«هو اقليم حار به نخيل ونارجيل وموز فيه مواضع معتدلة الهواء جامعة الاضداد مثل ويهند ونواحي المنصورة والبحر يمد على اكثره. ولا اعرف ان به بحيرة وبه انهار عدة وذمته عبدة الاوثان وليس للمذكرين به صيت ولا لهم رسوم تذكر. مذاهبهم اكثرهم اصحاب حديث ورأيت القاضي أبا محمد المنصوري داوديا اماما في مذهبه وله تدريس وتصانيف قد صنّف كتباً عدة حسنة. واهل الملتان شيعة يهوعلون في الاذان ويثنون الاقامة ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب ابي حنيفة (رحه). وليس به مالكية ولا معتزلة ولا عمل للحنابلة. انهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة وصلاح وعفة قد

---

١ - المقدسي ص ٤٨٠.

٢ - ابن حوقل ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

أراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة.

« ويحمل من طوران الفانيذ اجود من ما سكان ومن سندان الارز الكثير وثياب ويعمل بسائر الاقليم من البسط وما يجري مجراها ما يعمل بقهستان خراسان ويحمل منه نارجيل كثير وثياب حسنة ومن المنصورة النعال الكنباتية النفسية ومنه تحمل الفيلة والعاج والاشياء الرفيعة والعقاقير النافعة. »[1]

ويتحدث الجغرافيون عن انهار المنطقة، فيتفق الثلاثة على القول بشأنها. « واما انهارهم فاعظمها نهر مهران ومخرجه من ظهر جبل يخرج منه بعض انهار جيحون وتمده انهار كثيرة وعيون غزيرة، ويظهر على توافره بناحية الملتان فيجري على حد بسمد ويمر بالرور ثم على المنصورة حتى يقع في البحر شرقي الديبل وهو نهر كبير عذب جداً. وفيه التماسيح كتماسيح النيل وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الامطار الصيفية ويرتفع على وجه الارض ثم ينضب فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر والسندروذ من الملتان على نحو ثلاثة مراحل وهو نهر كبير عذب يفرغ الى مهران قبل بسمد وبعد الملتان. ونهر الجندرور نهر ايضا كبير عذب طيب وعليه الجندرور ويفرغ الى مهران دون السندروذ الى نواحي المنصورة. »[2]

---

١ - المقدسي ص ٤٨١.

٢ - المسعودي ج ١ ص ٣٧٨؛ المقدسي ص ٤٨٢ - ٤٨٣؛ ابن حوقل ص ٣٢٨.

القِسْمُ الثَانِي

أدبُ الرّحْلة عِنْدَ العَرَبْ

الفصل الثامن

طلائع الرحالين

جاء في القرآن الكريم ان قبيلة قريش كانت لها رحلتان - رحلة الشتاء ورحلة الصيف. والباحثون مجمعون على ان هاتين الرحلتين كانتا للتجارة. ذلك ان اهل مكة كانوا تجاراً من الدرجة الاولى، وكانت قوافلهم تنقل المتاجر من اليمن الى الشام، وتحمل البضائع من الشام الى اليمن. هذه تجارتهم ايام الجاهلية. فماذا حدث بعد الاسلام؟

قد تكون تجارة مكة بالذات تدنت كثيراً، ولكن الفتوح العربية الاسلامية جاءت بالجديد بالنسبة الى رقاع اخرى. امتدت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقاً والاندلس غرباً، وما بين هذا وذاك من شمال افريقية. واستتبع ذلك ان اصبحت رقعة الاتجار وتبادل السلع والمتاجر تشمل هذه المنطقة الواسعة. والتاجر النشيط صار بامكانه ان يتنقل بين قطر وآخر ومدينة وأخرى يشتري ويبيع دون ان يعيقه عائق. وبذلك انفتحت امام العربي والمسلم مجالات واسعة كانت من قبل مقفلة. ومعنى هذا ان الرحلة في سبيل التجارة اتسعت آفاقها وزادت امكانياتها. وما كان هؤلاء التجار ممن يمر بالبلد دون ان يتعرف الى اهله ويخبر احوالهم. وكانت هذه المعرفة تنتقل رواية واخباراً حتى يقيض الله لها من يدونها وتصبح جزءاً من التراث الادبي للرحلة.

وبعد ان استقر الاسلام في رقاع امبراطوريته. ونشأت مراكز للعلم في الاجزاء العربية وغير العربية منه، رحل الناس في طلب العلم من مكان الى

آخر. فهذا بغدادي يشد الرحال الى دمشق، وهذا دمشقي يقصد بخاري، وهذا تونسي يرحل الى القاهرة، وهذا قاهري يطلب العلم في فاس، وهكذا دواليك. وهذه الرحلة في طلب العلم كانت أحرى بان تدون اخبارها، وتبقى آثارها من اخبار تنقل التجار واصحاب الاعمال. وعلى كل فمن هذه وتلك وصلت الينا اخبار واخبار هي من مفاخر التراث العربي.

والاسلام فرض الحج على المؤمنين، ولو أنه جعل الاستطاعة شرطاً. والذين استطاعوا الى الحج سبيلاً في هذا التاريخ الطويل كثر. ولم يكن جميعهم ممن يدون اخبار اسفاره، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من اهل العلم الى تدوين مشاهداتهم. فخرج من ذلك ايضاً تراث في ادب الرحلة كبير.

والى جانب التاجر وطالب العلم والحاج يقوم الرحالة المحترف او الهاوي، أي الذي يرحل من أجل الرحلة.

والذي نستغربه بالنسبة الى تعدد بواعث الرحلة ودوافعها في الاسلام ليس كثرة ما وصل الينا، ولكن قلته. فادب الرحلة تعرض الى ما تعرضت له نواحي الانتاج العلمي الاخرى في هذه الرقعة الواسعة وهذه القرون الطويلة. فضاع منه الكثير. لكن ثمة امل بان يكون في خزانات الكتب المنتشرة في اصقاع العالم العربي، والتي تكشف خفاياها يوماً بعد يوم، كثير مما لم نعرف.

وطلائع الرحالين وصلتنا بعض اخبارهم نقلاً عن الرواة، ومن هؤلاء سليمان السيرافي وابن فضلان والبعض دون اخباره مفصلة كالمسعودي. والاول من اهل القرن التاسع (الثالث) اما الآخران فمن رحالي القرن العاشر (الرابع). والظاهر ان تجار العرب من عمان وسيراف والبصرة في القرن التاسع كانوا يصلون الصين، كما كان تجار الصين يصلون الموانىء القائمة على الخليج العربي. لكن اخبار القرن العاشر لا تشير الى هذا، بل بالعكس، فقد روى المسعودي اخبار تاجر من سمرقند خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق، فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة وركب البحر حتى وصل الى

عمان وركب الى بلاد « كلاه »[1]، وهي النصف من طريق الصين او نحو ذلك « واليها تنتهي مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت. فيجتمعون مع من يرد من ارض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك. وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة. »[2] ويعزو المسعودي هذا التغير في الاسفار الى انعدام العدل وفساد النيات، فلم يعد الفريق الواحد يصل الى ميناء الآخر، وانما يلتقي الفريقان في « كلاه » هذه[3].

وليس غريباً ان تنحدر الينا قصة ابن وهب القرشي الذي غادر البصرة في رحلة حملته من سيراف الى خانفو « كنتون » ثم عاصمة المملكة الصينية نفسها، او ان تحفظ لنا وصف سياحة سليمان السيرافي الى الهند والصين في القرن التاسع (الثالث). وقد زاد في الفوائد التي نحصل عليها من رحلة سليمان ان مواطناً له يسمى ابو زيد، من اهل القرن العاشر (الرابع) اضاف اليها ذيلاً فيه معلومات اضافية كثيرة. وليس من شك في ان الاصل والذيل يعطياننا اقدم وصف وصفه عربي لاقاليم الهند والصين وعادات الاقوام. وفضلاً عن ذلك فنحن نعرف منهما ان الجاليات الاسلامية في المدن الصينية كانت لها امتيازات خاصة اذ كان لها قاضيها وامامها وشيخها ومساجدها. وقد قال الدكتور حسين فوزي عنها انها « تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع. وربما كانت الاثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي اليها على اساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه الى احاديث تاريخية وغيرها، مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب. واذا رأينا فيما بعد ابن

---

١ - المسعودي ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.
٢ - نفس المكان ج ١ ص ٣٠٨.
٣ - نفس المكان ج ١ ص ٣٠٨.

خرداذبه وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على اساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها، فانهم ايضاً ينقلون الكثير عن ذلك الاثر العربي الاول بلفظه ومعناه في بعض الاحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر »[١]. ويذكرنا المرحوم الدكتور زكي محمد حسن بان الوصف الذي وصفه سليمان والذيل الذي اضافه ابو زيد يمتازان بقلة الخرافات والاساطير التي تكثر في احاديث البحارة[٢].

قال سليمان يصف بعض جزائر البحار الشرقية، وهي بعد جزيرة سيلان « ... جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء غير ان عورة المرأة ورقا من ورق الشجر. فاذا مرت بهم المراكب جاؤا اليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا اهلها العنبر والنارجيل بالحديد. ولا يحتاجون الى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد. ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له اندمان، واهليهما يأكلون الناس احياء. وهم عراة ليس لهم قوارب. »[٣]

ووصف سليمان الاعصار الحلي، فقال « وربما رؤي في هذا البحر سحاب ابيض يظل المراكب، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيعلى له ماء البحر مثل الزوبعة فاذا ادركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر، فلا أدري ايستقي السحاب من البحر ام كيف هذا. »[٤]

---

١ - فوزي. حسين، « حديث السندباد القديم » (القاهرة،؟) ص ٢٢.
٢ - حسن. زكي محمد، « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ». القاهرة. ١٩٤٥. ص ٢٤.
٣ - السيرافي. سليمان عن فوزي. حسين، نفس المكان ص ٢٤ - ٢٥.
٤ - نفس المكان، ص ٢٥.

الفصل التاسع

ابن فضلان

نحن في بغداد، في خلافة أمير المؤمنين المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) وبغداد طبقت شهرتها الآفاق، ودار الخلافة العباسية كعبة القصاد. فالوفود اليها تترى، والبعثات منها كثيرة. وهؤلاء هم الصقالبة، وعاصمتهم على مقربة من قازان، ينتدبون منهم من يقصد الى عاصمة الخلافة لينوب عن ملكهم في الطلب الى أمير المؤمنين ان يرسل اليهم بعثة تفقه الملك وقومه في الدين وتعرفهم شرائع الاسلام، وتنشيء لهم مسجداً وتبني لهم حصناً يتحصن فيه الملوك من مخالفيهم وهم ملوك الخزر.

وما كان في وسع الخليفة ان يرفض مثل هذا الطلب، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس. فرأى الاثنان في مثل هذا التحالف خيراً. فانتدبا وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة. وكان الوفد فيه أربعة رجال رسميين (غير الحاشية) وكان فيه احمد بن فضلان الذي عهد اليه برئاسة الوفد. وهو الذي يقول عن نفسه « فندبت انا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي اليه والاشراف على الفقهاء والمعلمين ».[١]

بدأ الوفد رحلته من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩[١] (٢١ حزيران - يونيو - ٩٢١) وقضى احد عشر شهراً حتى وصل الى ديار الصقالبة على

١ - ابن فضلان، احمد، « رسالة ابن فضلان ». دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩ ص ٦٩.
٢ - نفس المكان ص ٧٣.

الفولغا في ١٢ محرم ٣١٠[١] (١١ ايار - مايو - ٩٢٢) وكانت الطريق من بغداد الى نيسابور فبخارى فخوارزم فالجرجانية على نهر جيحون ثم توغل الوفد في بلاد الصقالبة على الفولغا.

اذا كان الوفد قد لقي المصاعب الكثيرة من البرد والتعرض للكيد والنهب وما الى ذلك، واذا كان ملك الصقالبة قد نعم بصحبة افراد الوفد اذ هبطوا عليه فقدموا بين يديه الهدايا، وانالوه مراده مما طلب من الخليفة، فاننا ننعم نحن اليوم، وقد مر على الرحلة الف ويزيد من السنين، بوصف دقيق طريف باسلوب ممتع شائق، لهذا الاختبار الفريد يقوم به ابن فضلان ثم يدونه لنا لنفيد منه. فنحن « نرى ان الرجل قد صور الرحلة والعادات والتقاليد والحياة والاخلاق في ذلك العصر، في مختلف المناطق التي مر بها او قام فيها، فلم يغفل كثيراً مما يحتاج اليه ذلك الزمان، وكان دقيق الملاحظة.. يسجل اكثر ما يرى السائح، وينقل اليه ما يدور خلال السياحة من حوار ودسائس ويصف الحكام والأمراء ورجال الشعب على حد سواء ويرسم الهيئات والوجوه على ايجاز الرسالة وقصرها »[٢]، على ما يقول المرحوم الدكتور محمد سامي الدهان محقق رسالة ابن فضلان في المقدمة.

وقد حفظ لنا ياقوت في غير مكان من « معجم البلدان » مقتطفات من هذه الرحلة وعني المستشرقون بها كثيراً لانها احد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبياً يومها. لكن قراء العربية اصبح الآن بوسعهم ان يقرأوا النص محققاً ومطبوعاً بفضل المرحوم الدكتور الدهان (دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩).

ونحن نترك لابن فضلان التحدث عن بعض ما شاهد ورأى، فذلك خير من ان نلخص بعض ما قال فنسيء الى ادب الرجل.

---

١ - نفس المكان ص ١١٣.

٢ - نفس المكان، المقدمة ص ٣٠.

في الجرجانية: « فاقمنا « بالجرجانية » اياماً، وجمد «نهر جيحون» من اوله الى آخره. وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرقْ. وهو ثابت لا يتخلخل. فاقام على ذلك ثلاثة اشهر. فرأينا بلداً ما ظننا الا ان بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج الا ومعه ريح عاصف شديدة. واذا اتحف الرجل من اهله صاحبه، واراد برّه قال له: « تعال الي حتى نتحدث فان عندي ناراً طيبة ».... ولقد رأيت لهواء بردها بان السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الانسان اكثر الشوارع والاسواق، فلا يجد احداً ولا يستقبله انسان ولقد كنت اخرج من الحمام، فاذا دخلت الى البيت نظرت الى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت ادنيها الى النار. ولقد كنت انام في بيت جوف بيت، وفيه قبة لبود تركية وانا مدثر بالاكسية والفرى، فربما التصق خدي على المخدة. »[1]

بين الغزية: « فلما قطعناه (جبلاً عظيماً كثير الحجارة) » افضينا الى قبيلة من الاتراك يعرفون بالغزية. واذا هم بادية، لهم بيوت شعر، يحلون ويرتحلون. ترى منهم الأبيات في مكان، ومثلها في مكان آخر، على عمل البادية وتنقلهم، واذا هم في شقاء.... وليس يعرفون الزنا. ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقّوه بنصفين. وذلك انهم يجمعون بين اغصان شجرتين، ثم يشدونه بالأغصان، ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد اليهما.... واذا اراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه او احتاج الى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي. واخذ من جماله ودوابه وماله حاجته، ورحل. فاذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله، ورد اليه جماله ودوابه. »[2]

عند الصقالبة: بعد وصول الوفد الى ملك الصقالبة واراحتهم قليلاً وجه

---

١ - نفس المكان ص ٨٣ - ٨٥.
٢ - نفس المكان ص ٩١ - ٩٥.

اليهم الدعوة فقال ابن فضلان يصف ذلك: « فلما كان بعد ساعة وجّه الينا، فدخلنا اليه، وهو في قبته، والملوك عن يمينه. وامرنا ان نجلس عن يساره، واذا اولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي، فدعا بالمائدة فقدمت، وعليها اللحم المشوي وحده. فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية، وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها الى « سوسن » الرسول. فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه. وكذلك الرسم. لا يمد احد يده الى الاكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة. ثم ناولني فجاءتني مائدة (ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة. ثم ناولها الملك الثاني فجاءته مائدة). ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة. ناول اولاده فجاءتهم الموائد. واكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها احد. ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فاذا فرغ من الطعام، حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته الى منزله. »[1]

ودوّن ابن فضلان بعض العجائب التي لفتت نظره في ديار الصقالبة. فمن ذلك وصفه لليل والنهار. قال « ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً واذا انه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار. فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب الا عدداً يسيراً ظننت انه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة. واذا الشفق الاحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة. واذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من اكثر من غلوة سهم.... ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الارض والجبال وكل شيء ينظر الانسان اليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء. وعرفني اهل البلد انه اذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار، وعاد النهار في قصر الليل. »[2]

وتحدث عن بعض مآكلهم فقال في ذلك « وليس لهم زيت، ولا شيرج، ولا

---

١ - نفس المكان ص ١١٥ - ١١٦.

٢ - نفس المكان ص ١٢٥ - ١٢٧.

دهن بتة؛ وانما يقيمون مقام هذه الادهان السمك، فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً. ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجواري والغلمان. وربما طبخوا الشعير باللحم، فأكل الموالي اللحم واطعموا الجواري الشعير الا ان يكون رأس تيس فيطعم من اللحم.»[1]

ووصف ابن فضلان ارض الروسية وبلاد الخزر وشعوبهما ورسوم الملوك. فمما قاله عن معاملة الروسيين للمرضى «واذا مرض منهم الواحد (ضربوا له خيمة) ناحية عنهم. وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه. (بل لا يتعاهدونه) في كل ايام مرضه لا سيما ان كان ضعيفاً او مملوكاً. فان برىء وقام رجع اليهم، وان مات احرقوه، فان كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير.»[2]

وقال ابن فضلان عن احدى مدن ملك الخزر «وللملك الخزر مدينة عظيمة على «نهر اتل»، وهي جانبان؛ في احد الجانبين المسلمون؛ وفي الجانب الآخر الملك واصحابه. وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز، وهو مسلم. واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليها في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في امورهم ولا يقضي بينهم غيره.»[3]

---

١ - نفس المكان ص ١٣٠.
٢ - نفس المكان ص ١٥٤ - ١٥٥.
٣ - نفس المكان ص ١٧٢.

الفصل العاشر

المسعودي[1]

يعتبر المسعودي علماً من اعلام الفكر العربي الاسلامي في عصر نضجه اي في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد). فهو واحد من اولئك الذين احاطوا بالمعرفة احاطة وافية، وتمثلها تمثلاً صحيحاً، ثم دون نتيجة تلك الاحاطة وهذا التمثيل تدوينا شيقاً انيقاً رتيباً باسلوب سهل ممتع. وليست هذه الامور كلها لتتاح لغير عبقري. والمسعودي واحد من عباقرة الفكر في ذلك الوقت.

هو علي بن الحسين بن علي، ويتصل نسبه بعبد الله بن مسعود، ومن هنا جاءت النسبة. ويقول ابن النديم صاحب الفهرست ان المسعودي من اهل المغرب[2]، بينما يضعه ابن شاكر الكتبي في عداد البغداديين[3]. ويتضح من تتبع هذه القضية ان اسرة المسعودي جاءت من المغرب، واستقرت ببغداد. ولكن لم يتضح بعد فيما اذا كان هو نفسه ولد في بغداد ام جاءها طفلاً. وعلى كل فمترجموه متفقون على انه نشأ في بغداد، وهي في ذلك الوقت، مركز من مراكز العلم الكبرى. على ان الرجل لم يرد ان يقتصر تعلمه وتوصله الى المعرفة على ما عند البغدادي. لذلك نراه يجوب الآفاق فيزور فارس والهند (الملتان)

---

١ -- See Ziadeh, N.A. «Diyar al- Sham According to al- Masudi» in al Masudi Milenary Commerative Volume, Calcuta, 1960 pp 20 – 25.

٢ – ابن النديم، « الفهرست »، القاهرة، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٩ ص ٢١٩.

٣ – الكتبي، ابن شاكر، « فوات الوفيات »، القاهرة، بولاق، ١٨٨٥، ص ٥٥.

وسرنديب (سيلان) والصين ومدغشقر وعمان وديار الشام ومصر حيث استقر بالفسطاط سنة ٣٤٥ وتوفي فيها في السنة التالية ٣٤٦ (٩٥٧ - ٩٥٨).

وقد كان المسعودي يسير في البلاد مفتح العين والاذن، طلعة العقل والفكر كثير التسآل. وبذلك اتيح له ان يدرك من احوال هذه الدنيا وتطور شعوبها وشيعها ما لم يتح لكثيرين من معاصريه.

ونحن اذا اردنا ان نصنفه على نحو ما يصنف اهل العلم والفكر، لحرنا في امره. فهو ليس رحالة ولا مؤرخاً ولا جغرافيا ولا فلكياً ولا طبيباً ولا محدثاً ولا فقيها - ولكن كل هذه مجموعة معاً، مصقولة في بوتقة الاختبار، بعد ان اضفت عليها الرحلة وسعة الافق وسعة الصدر الكثير من العمق في التفكير والدقة في التعبير.

وقد كتب المسعودي عشرات من الكتب، لا تتسع هذه العجالة الى الاحاطة بها كلها، حتى ولا عداً. ولذلك فاننا نجتزىء الآن بذكر الاهم منها.

١ - كتاب «اخبار الزمان ومن اباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك الدائرة»، وضعه المسعودي في ثلاثين مجلداً. والكتاب مفقود الآن. وليس لدينا منه سوى جزء واحد. هو الجزء الاول، موجود في مكتبة فيينا. والظاهر من حجم الكتاب ومن اشارات المسعودي الكثيرة اليه في «مروج الذهب» «والتنبيه والاشراف»، انه كان تاريخاً مفصلاً. ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة كبيرة.

٢ - «الكتاب الاوسط» وهو اصغر من الكتاب السابق ذكره، ولعله مختصر له. وليس من اتفاق بعد بين الباحثين على مدى ما ضاع من هذا الكتاب، اذ انه يوجد في المكتبة البودلية باكسفورد مخطوطة يظن انها هذا الكتاب. وروي ان بعض المنقبين وجد اجزاء منه في مكاتب دمشق. لكن هذه القضية لم تحل بعد. ونحن بانتظار الدراسات الجديدة حول الموضوع.

٣ - «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهذا كتاب في قسمين: اولهما

وصف فيه المسعودي الخليقة وروى قصص الانبياء باختصار، ثم انتقل الى وصف الارض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الامم القديمة وما كان لها من الاديان والعادات والمذاهب، وعرض للايام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات. وخص القسم الثاني بتاريخ الاسلام من اواخر عهد الراشدين الى اوائل خلافة المطيع لله العباسي. وهذا الكتاب كثير الفوائد التي قد لا توجد في سواه. وقد نقله المستشرق باربيه دي مينار الى الفرنسية وطبع في باريس في تسعة مجلدات سنة ١٨٧٢، ونقله الى الانكليزية سبرنغر لكن طبع من هذه الترجمة جزء واحد فقط (لندن ١٨٤١).

٤ - «التنبيه والاشراف» وهو المطبوع بليدن سنة ١٨٩٣. وهذا الكتاب وصفه المسعودي نفسه بقوله «... رأينا ان نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب «التنبيه والاشراف» «... نودعه لمعاً من ذكر الافلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها، وكيفية افعالها، والبيان عن قسمة الازمنة، وفصول السنة، وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها... والرياح ومهابها وافعالها وتأثيراتها، والارض وشكلها وما قيل في مدار مساحتها وعامرها وغامرها، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها...»[1]

والمسعودي يعلل السبب الذي حمله على وضع كل من كتبه، ويبين عادة الغاية الاصلية من الكتاب. فتراه في مستهل «مروج الذهب» يعنون بابا باسم باب ذكر جوامع اغراض هذا الكتاب، يقول فيه «اما بعد فانا صنفنا كتابنا في اخبار الزمان وقدمنا القول فيه في هيئة الارض ومدنها وعجائبها وبحارها واغوارها وجبالها وانهارها... ثم اتبعنا ذلك باخبار الملوك الغابرة والامم الدائرة والقرون الخالية والطوائف البائدة.... ثم اتبعناه بكتابنا الاوسط في الاخبار على التاريخ... رأينا اجمال ما بسطناه، واختصار ما وسطناه، في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمناهما، وغير ذلك من انواع

---

١ - المسعودي، «التنبيه والاشراف»، ليدن، بريل ١٨٩٣ ص ٥.

العلوم واخبار الامم الماضية والاعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما.»[1]

وفي مدخل كتابه «التنبيه والاشراف» يتحدث عن الغرض من هذا الكتاب. فيبدأ بذكر مؤلفاته الى حين وضع التنبيه، ويحدد ما في كل منهما من ابحاث وفوائد ومواضيع، ثم يبين ما في الكتاب نفسه على نحو ما نقلناه قبلاً. ولولا خشية الاطالة لنقلنا ذلك كله، تبياناً لاسلوب المسعودي، وتوضيحاً لدقته في تحديد ابحاث مؤلفاته.

والمسعودي، مثل الكثيرين ممن تعلموا والفوا وحدثوا وهم يتنقلون من مكان الى آخر في العالم الاسلامي وخارجه، يرجو القارىء ان يعذره. فتراه يقول في مدخل مروج الذهب «على انا نعتذر من تقصير ان كان، او نتنصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وعمر قلوبنا، من تقاذف الاسفار وقطع القفار، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، مستعلمين بدائع الامم بالمشاهدة، عارفين خواص الاقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين، وتقحمنا الشرق والغرب. فتارة باقصى خراسان وتارة بوسائط ارمينية واذربيجان... وطورا بالعراق وطورا بالشام.»[2]

ويتحدث المسعودي عن المؤرخين السابقين له في مدخل مروج الذهب، ثم ينتقي منهم البعض فيثني عليه مثل ابن قتيبة والطبري ونفطويه والصولي وقدامة ابن جعفر[3]. ولكنه لا يمتنع عن نقد الآخرين مثل الجرجاني اذ رأى في كتابه انه «خرج الى اخبار زعم انها صحت عنده ولم يشاهدها... ثم ترقى الى خليقة في التصنيف مضادة لرسم الاخبار والتواريخ وخروجاً عن جملة اهل التأليف. وهو وان احسن فيه ولم يخرجه عن معانيه، فانه عيب لأنه خرج عن صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته.»[4]

---

١ – المسعودي، «مروج الذهب» ج ١ ص ٢ – ٥.
٢ – نفس المكان ج ١ ص ٥.
٣ – نفس المكان ج ١ ص ١٥ – ١٨.
٤ – نفس المكان ج ١ ص ١٩ – ٢٠.

ولا شك في ان المسعودي كان قد تعرف الى الادب الجغرافي المعروف في ايامه، ومن هنا تأتي اشارته الى مؤلفات في الجغرافية هي الآن مفقودة. ولكن مما لا ريب فيه ان المسعودي فتح آفاقاً جديدة لنفسه، على ما يبدو لمن يدرس « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو الذي وضع فيه المسعودي خلاصة اختباراته وتجاربه في الاسفار والرحلات. والكتاب يجمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره. ولعل المسعودي الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الاسلام في تلك العصور. وقد عالج اكثر اموره معالجة صاحب البصيرة النيرة والملاحظة النقادة، لكنه لم يستطع ان يقصي عنه جميع الاساطير فقد ضمن كتابه الكثير منها. فمروج الذهب كتاب سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة واخبار واساطير، وهو يمثل اصدق تمثيل الحياة العقلية النشيطة المتطلعة الى الوصول الى الحقيقة والتي لم تتحرر تماماً من كل شيء غير حقيقي فقبلت - او على الاقل لم تنف - بعض ما يبدو بعيداً عن المنطق.

والمسعودي يصف الصعاب التي كان يلقاها في تنقلاته وصفاً دقيقاً. فقد قال: « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين وبحر الروم والخزر والقلزم واليمن، واصابتني فيها من الأهوال ما لا احصيه كثرة. فلم اشاهد مثل بحر الزنج [المحيط الهندي شرقي افريقية] وفيه السمك المعروف بالاوال، طول السمكة نحو من اربعماية ذراع الى الخمسماية ذراع بالذراع العمري، وهو ذراع أهل ذلك البحر. والاغلب من هذا السمك ان طوله ماية ذراع. وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء في الماء، فيذهب الماء في الجو أكثر من مرمى السهم. والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لتنفر من ذلك. »[١]

---

١ - نفس المكان ج ١ ص ٢٣٤.

الفصل الحادي عشر

رحالون من المشرق

ليس من الممكن ان يعرض الكاتب في مثل هذا الفصل الى الرحالة جميعهم. ولذلك يترتب عليه ان يختار، وحري به ان يكون اختياره على اساس نماذج الرحالين. لذلك نريد ان نتحدث هنا عن اثنين من الرحالة المشارقة هما ناصري خسرو والهروي. ومع اننا نعني في هذه الدراسات بالرحالة العرب اصلا، فاننا لا نرى مندوحة عن التحدث عن ناصري خسرو، بسبب وصفه الدقيق للبلاد التي زارها، والاضواء التي يلقيها على الحياة الاجتماعية في المناطق التي عرفها.

وناصري خسرو فارسي الاصل والنشأة والثقافة. ولد بالقرب من بلخ سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظا وافراً من معارفه، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين. ثم عاد الى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة، اذ كتب لجعفر (او جفري بك)، وهو اخ لطغرل بك. وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسر اليه ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح[1]. فكان لهذا الحلم اثر بالغ في نفسه، ادى الى تغيير حياته، فاقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي.

بدأ من مرو، فمر بنيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحران ودخل

---

١ - ناصري خسرو « سفرنامه »، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥ ص ١ - ٢.

سورية بطريق منبج. وزار في بلاد الشام امهات مدنها في طريقه، اذ مر بحلب وحماة والمعرة. ثم اتجه الى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكاء. ومن هنا عرج على طبرية، ثم عاد الى عكاء ومنها اتجه الى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا. ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨ هـ.وقضى فيها اربعة اشهر ثم حج وعاد الى القدس بطريق دمشق وسافر الى مصر براً عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ١٠٤٧/٤٣٩. وأقام في مصر ثمانية اشهر ثم حج ثانية وعاد، وظل يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين الى ان غادر عاصمة الفاطميين نهائياً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠ م بطريق عيذاب الى جده. وبعد ان حج للمرة الاخيرة عاد الى بلاده، بعد ان اجتاز الطريق من مكة الى الحسا براً وزار البصرة، فوصل مرو في ١٥ (حزيران) يونيو سنة ١٠٥٢ م.

كان ناصري خسرو اسماعيلياً منذ شبابه، وفي اثناء اقامته في القاهرة تدرج في مناصب الدعاة الاسماعيليين وقابل الخليفة نفسه. وكان يرى ان القاهرة المركز الديني لمذهبه وان الخليفة هو الامام الحق[1]. ولما عاد الى بلاده كان في مقدمة الدعاة. وقد نقل براون عن جامع التواريخ ان ناصري خسرو قضى سنوات طويلة متخفياً في جبال خراسان، لما اشتد السلاجقة في طلبه. وبقي في منفاه هذا الى ان توفي سنة ١٠٦٠/٥٤٢ م.

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الاخبار ورواياتها، فجاءت رحلته، المعروفة باسم « سفرنامه »، غنية بالصور مليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها. وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين الى سورية.

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل الينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك. ولعله اول من ضبط ابعاد المسجد الاقصى وقياساته. ويلاحظ هذا السائح ابواب المدن واتجاهها وميناء عكاء وصناعات

١ - نفس المكان، المقدمة بقلم يحيى الخشاب.

صور وصيدا، ويعنى بمصادر المياه في كل بلد، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة. ولعل من ادق ملاحظاته ما ذكره من ان قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال او سفوحها[١]. ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الارض الى الغرب من حماة[٢] او عن الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط[٣] (فبراير) او الاشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين. والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبرية وبيت المقدس. اما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل، فهو يذكر ان حلب تتمتع بيسار ورخاء اذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية[٤]. ويحدثنا عن ابي العلاء عند مروره بالمعرة، فقد كان لا يزال حياً[٥]. ويصف طرابلس بقوله « ارباض المدينة تملأها البساتين... وقصب السكر ينمو هنا بكثرة... ومثله البرتقال والليمون والتمر... وقد كانوا ايام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر... وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات او خمس وقد تصل الى ست... وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة.

«وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم او الغرب او غيرهما... وللسلطان - امير المدينة - سفن تحمل تجارته الى بيزنطية وصقلية والغرب، واهل طرابلس كلهم شيعة».
ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها، فقال « واسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت انها زينت لمناسبة قدوم السلطان او لأمر آخر سار: فلما استقصيت عرفت ان ذلك امر عادي.»[٦]

١ - نفس المكان ص ٢٠.
٢ - نفس المكان ص ١٢.
٣ - نفس المكان ص ١٤.
٤ - نفس المكان ص ١٠.
٥ - نفس المكان ص ١١.
٦ - نفس المكان ص ١٣.

وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو من اكبر مراكز التجارة البحرية. يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات او ست، وشوارعها. فقد كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة «وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن الشامية الساحلية واكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سني...»[1]

ويتنقل في مدن ساحل فلسطين من المدينة الى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه الى الرملة. وبعد ان يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها، يذكر طريقة تقطيعه اعمدة او الواحاً بمنشار غير مسنن.»[2]

وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ ان شوارع المدينة مبلطة. ويعطينا عدد السكان على انه عشرون الفاً[3]. ثم يقول «والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً. والزيتون هناك كثير. ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار الموسرين هناك نحواً من خمسين الف مد،»[4] (يقابل ٤٢٠٠ تنكة). ويقول ناصري خسرو «ان القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان. ويستعمله الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات.»[5]

ووصف ناصري خسرو لمصر من خير ما وصل الينا. وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والادارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل. ولم يكن هذا بغريب على رجل اقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من اهلها، وحظي بمقابلة الخليفة نفسه، فتراه يتحدث عن قاعة المآدب في القصر

---

١ - نفس المكان ص ١٥.
٢ - نفس المكان ص ١٩.
٣ - نفس المكان ص ٢٠.
٤ - نفس المكان ص ٢٠.
٥ - نفس المكان ص ٢١.

والاحتفال بولادة ابن للخليفة وعن جبر الخليج، ويقسم القاهرة الى حاراتها العشر ويعطينا اسماءها مثل برجوان وزويلة. وتعجبه فواكه مصر واثمارها فيذكرها، وينبئنا ان البلسم مغربي الاصل جاء به اجداد الخليفة المستنصر لما فتحوا مصر. واذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون، يروي ان احفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحاكم بأمر الله. فابتاعهما الخليفة نفسه.»[١]

ولما عاد ناصري خسرو من مصر الى بلاده بطريق الحجاز والحسا، ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مر بها. منها صنع القماش في اسيوط واستخراج الأفيون فيها. واجرة الجمل الذي استأجره منها الى عيذاب كانت ديناراً ونصف الدينار[٢]. وقد تعرف ناصري في اسوان الى رجل اسمه الفلجي وتآخيا، فلما وصل الى عيذاب اخذ نقوداً بناء على توصية كان حملها اياه صاحبه الاسواني. وانتقل الى جدة فوصفها وذكر ان سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور، كما انه قال عن سكان مكة الاصليين انهم لا يتجاوزون الالفين من الذكور وبها خمسمائة مجاور، واشار الى القحط الذي اصاب الحجاز سنتي ٣٤٩و ٤٤٠هـ.[٣]

وقد خص ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه وليس ذلك بغريب.

ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو اذ اجتاز بلاد العرب من الغرب الى الشرق. وكانت البصرة ايام زارها ناصري خسرو خربة والاجزاء المسكونة منها متباعدة. ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة وكان من عادة اهلها انه اذا هبطها التاجر اودع امواله عند صراف واخذ بها رقاعاً،

---

١ - نفس المكان ص ٥٩.
٢ - نفس المكان ص ٧٠.
٣ - نفس المكان ص ٦٧.

فاذا اشترى شيئاً دفع الرقاع الى البائع وهذا يستبدلها عند الصراف.[1]

ورغب ناصري خسرو واخوه في دخول الحمام، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصائهما.

ومما يدل على دقة ناصري خسرو، ذكره المد والجزر في الخليج العربي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب. ومن البصرة عاد ناصري خسرو الى مرو.

اما الهروي فاصل اسرته من هراة لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية، وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط اهلها، وكانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما. دخل القسطنطينية في زمن عمانوئيل كومنينوس (سنة ١١٤٣ - ١١٨٠ م) وهبط الاسكندرية سنة ١١٧٤/٥٧٠ وسمع فيها لابن الرحال المحدث. وحمله القائد ابو القسم بن حمود رسائل الى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية. وكان في القافلة التي نهبها ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة ١١٩٢/٥٨٨ على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم ففقد فيها كتبه. وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك. ولما جاء رسول ابن الناقد وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله الى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي، ومر بدمشق كان الهروي فيها، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف «الاشارات الى معرفة الزيارات».

وقضى الهروي ايامه الاخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قربه لمعرفته بالسيما، فشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب. وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة، على ما رآه ابن خلكان وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده. والكتاب الذي بين ايدينا هو الاشارات، وقد قدم المؤلف

---

١ - نفس المكان ص ٩٥ - ٩٦.

نفسه وكتابه لقرائه بقوله:

«اما بعد فانه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات، وما رأيته من الاصنام والآثاروالطلسمات .في الربع المسكون والقطر المعمور. ووقع الامتناع الى ان حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، اذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الشيخ الرسول زيارات... فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب...

«وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الايجاز، وانا استعيذ بالله من شر حاسد ونكد معاند يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول - صلوات الله عليهم اجمعين - وعلى ذكر بعض الآثار؛ فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك، وذكر فلان غير ذلك. وانا مما لا أشك في قوله ولا أطعن في حديثه الا انني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته. وقد ذكر بعض اصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا او ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر في أكثر هذه الاماكن ما ذكروه. ولا شك ان قبورهم اندرست وآثارهم طمست وذهبت آثارها وبقيت اخبارها. والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته. وقد ذكروا ايضاً بلاداً أخر واماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وان جرى فيما اذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد، فاسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك واصلاح الخطأ وايضاح الحق. فان كتبي اخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي اليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت اماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت اكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عاينته. وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل اليه اكثر المسافرين والعباد الا رجل جال الارض بقدمه

واثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه.»[١]

على ان للهروي كتباً اخرى غير هذا. فقد قال هو ان ما ذكره من الابنية والآثار والعجائب والأصنام له كتاب مفرد[٢]، واشار في موضع آخر الى كتاب «منازل الارض ذات الطول والعرض». وروى ابن خلكان ان له كتابا اسمه «الخطب الهروية.»[٣]

وقد جاء في الاشارات ذكر لمئات من الاماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف، لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة. كوصفه لدمشق، واشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان، وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة، والذي رواه من أن الصليبيين حاولوا ان يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاء لكن ذلك لم يتم لهم. ومما رواه ان الافرنج لم تغير «ما على ابواب المسجد الاقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم.»[٤]

ولعل من الطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها. قال: «فان ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا. ورأيت بها في آن واحد مجتمع وردا ثلاثة الوان، وياسميناً لونين، ونيلوفرا لونين، وآساً ونسريناً، وريحاناً، وخبزياً، وبنفسجاً، ومنوراً، ونبقاً، واترنجاً، وليموناً مركباً، وطلعاً، وموزاً، وجميزاً، وحصرماً، وعنباً وتيناً اخضر، ولوزاً، وقثى، وفقوسا، وبطيخاً، وباذنجان، وباقلا اخضر، ويقطيناً، وحمصاً اخضر، وخساً، والبقول، والرمان، وهليوناً، وقصب السكر.»[٥] وذكر بيوت الاسكندرية فقال عنها

---

١ - الهروي، ابو الحسن علي «الاشارات الى معرفة الزيارات» دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣ ص ١ - ٢.
٢ - نفس المكان ص ٣.
٣ - ابن خلكان «وفيات الاعيان»، القاهرة، مكتبة النهضة ١٩٤٨ ج ٣ ص ٣٢.
٤ - الهروي ص ٢٥.
٥ - نفس المكان ص ٥٠ - ٥١.

ثلاث طبقات وعمارة المدينة على هيئة رقعة الشطرنج. واشار الى السمك الرعاد فيها[1].

وكان السائح الهروي مغرماً بكتابة اسمه في الاماكن التي يزورها، مثل صنم الاشمونين. والى ذلك اشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه:

اوراق كديته في بيت كل فتى   على اتفاق معان واختلاف روي
قد طبق الارض من سهل ومن جبل   كأنه خط ذلك السائح الهروي

---

١ - نفس المكان ص ٤٨.

الفصل الثاني عشر

رحالة من المغرب

رحلة المغاربة الى المشرق كانت، على وجه العموم، اكثر من رحلة المشارقة الى المغرب. فمركز الحج في المشرق، ومدن العلم الاولى فيه، فكان من الطبيعي ان يزور المغاربة الشرق اكثر من زيارة المشارقة لبلادهم. وعندنا ثلاثة من الرحالين نود ان نتحدث عنهم في هذا الفصل هم ابن جبير وابن سعيد والعبدري.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ١١٤٥/٥٤٠. وقد قرأ على ابيه وعلى ابن ابي العيش وعني بالادب، وتقدم في صناعة القريض والكتابة.

كتب ابن جبير عن السيد ابي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه. فمديده اليه بكأس فاظهر الانقباض لانه لم يشرب قط، فاقسم السيد ليشربن منها سبعاً. ففعل مرغما، فملئت له الكأس دنانير سبع مرات. فحمل المال الى منزله واضمر ان يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير. ولما اظهر ذلك للسيد اسعفه في قصده.

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ١١٨٣/٥٨٧ ووصل الى الاسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينها. وكان سفره البحري في مركب للجنويين. وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير الى الحجاز هو السفر من الاسكندرية الى احد موانىء الشام ليرافق الحاج الشامي. لكن بسبب وجود الصليبيين هناك، اضطر رحالتنا الى السير

بالطريق المصري. فاتخذ سبيله الى القاهرة، ثم مر بقوص وعيذاب وجدة في طريقه الى مكة والمدينة. واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي الى الكوفة وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق سورية. فمر بحلب وحماة وحمص والنبك ودمشق ثم بعكاء. ومن هذه الاخيرة اقلع في مركب افرنجي الى صقلية ومر بصور. وعاد الى غرناطة فوصلها في الثامن من محرم سنة ١١٨٥/٥٨١.

ولم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه. فقد رافقه جده لامه القاضي ابن عطية وابو جعفر الطيب.

وقد رحل ابن جبير الى المشرق مرتين بعد ذلك، اولاهما بعد احتلال صلاح الدين لبيت المقدس والثانية بعد وفاة زوجته عاتكة ام المجد. وقد قضى أواخر حياته في الاسكندرية وهو يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي سنة ١٢١٧/٦١٤.

وتذكرة ابن جبير هي اخبار رحلته الأولى وقد دونها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائماً التارخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين اهل البلاد والصليبيين في الشام. ويشير غير مرة الى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة. وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الاسلوب. وقد اثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا اجزاء كبيرة من رحلته. وليس ادل على ذلك من ان محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد. على انه من المؤسف اننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في اي من البلدان التي زارها. وقد تناول ابن جبير في الجزء الاخير

من رحلته صقلية بوصف رائع وروى اخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيساً من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني، وخاصة فيا يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الاوروبيين.[1]

وابن سعيد رحالة اندلسي ولد بغرناطة ليلة الفطر سنة ٦١٠/١٢١٤ في اسرة عريقة في الحسب والنسب كان لافرادها صلة بالملوك، وكان ابوه من اهل الادب والتأليف. والمترجم به متمم كتاب «المغرب في حلى المغرب». فقد بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو.

عمل ابن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع، وكان للمترجم به ابن عم يعمل للموحدين ايضاً. فوقعت بين القريبين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها، فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج. وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩/١٢٤١، وكان والده قد رحل اليها واقام فيها، وكان متأخرا عن موعد الحج، فذهب الى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذ رئيس الامور بالديار المصرية. وقد استدعى سيف الدين ابن سابق ابن سعيد الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد، وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد:

من فضل النرجس فهو الذي يرضى بحكم الورد اذ يرأس
اما ترى الورد غدا قاعداً وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة، فطرب الحاضرون.

وقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيساً لمصر والفسطاط، اعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ. فتناول شوارع المدينة وابنيتها وازقتها بالوصف، ثم تحدث عن نواح من الحياة في الاحياء المخصصة للهو والطرب، اذ قال عنها انه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من

---

١ – ابن جبير، «رحلة ابن جبير»، ليدن، بريل، ١٩٠٧ ص ٣١٨ – ٣٢٠.

الحشيش[1]. لكن المقريزي علق على ذلك بقوله «وفيه تحامل كثير»[2]. وكان قد جاء مصر كمال الدين ابن العديم رسولا من الملك الناصر صاحب حلب الى صاحب مصر، فتعرف ابن سعيد اليه، فاكرمه، السلطان فاستجلبه وتلطف به وسأله عن قصده من رحلته، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلاً «نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا.»[3] ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالارزاق ما لا يوصف. وتعرف ابن سعيد الى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحول الى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم (٦٣٧ - ١٢٣٩/٦٤٧ - ١٢٤٨) وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل الى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ هـ ثم رحل الى البصرة وحج وعاد الى المغرب فنزل في اقليبة بتونس سنة ١٢٥٤/٦٥٢، واتصل بخدمة الامير ابي عبد الله المستنصر.

على ان ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر انه لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له. ويروي ابن سعيد ما وصل اليه علمه من اخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير.

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات، والمطربات. والمقتطف من أزاهير الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (أي تاريخ بيته وبلده)، والموضوعان الغربيان المتعددا الاسفار، وهما «المغرب في حلى المغرب» و «المشرق في حلى المشرق» و «عدة المستنجز وعقله المستوفز».

والعبدري هو محمد بن محمد بن علي وينسب الى عبد الدار. واسم العبدري

---

١ - راجع للمؤلف، «رواد الشرق» ص ٧٥.
٢ - نفس المكان.
٣ - ابن سعيد، النفح ج ١ ص ٤٥٢.

مرتبط ببلنسية من حيث اصل اسرته وبالصويرة (على مقربة من مغادور) بمراكش من حيث سكنى هذه الاسرة. ولعل ذلك كان في طفولة العبدري او صباه. اما لما بدأ الرجل رحلته عبر شمال افريقية بقصد الحج فقد كان يقطن في حاحة في السوس الأقصى. بدأ الرحلة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩)، واجتاز شمال افريقية ماراً بالسوس الاوسط ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس. ويسير العبدري بعد ذلك مجتازاً ليبيا حتى يصل الاسكندرية. ويتبع الطريق البري من الاسكندرية الى مكة. وبعد ان يتم الحج يعود ادراجه ماراً بفلسطين الى القاهرة براً. ويعود براً كما فعل في طريق الذهاب. وقد خلف لنا هذا الرحالة اخبار المغرب الغربي ومدنه وعلمائه، على طريقة معاصريه.

العبدري يصف مدن المغرب

«في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) بدأنا رحلتنا من حاحة واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب...

«انس مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية.. وارضها شديدة الخصب غزيرة المياه. والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل.. وهي بوقوعها في اطراف السوس الأقصى وفي مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التي تشرف على المنطقة.

«واستمررنا في السير من انس عبر المنطقة الوسطى، وهي بلاد اختفى العلم منها حتى ان اسمه زال. وقد فقد الناس عادة التعليم، وقلما يرتل القرآن في مساجدها. ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة .. ويتمتعون بصفة هامة هي حماية الجار واحترامه والدفاع عنه. واذا حدث ان نشبت بين جماعة واخرى حرب، فان المقاتلين يلتقون في الميدان نهاراً ويتحاربون. فاذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا الى بيوتهم حتى صباح اليوم التالي. واذا نشب الخصام بين اهل بلد واحد، فان المتخاصمين يخرجون الى ميدان فسيح بعيد عن السكان، ويقتتلون فيما بينهم هناك. حتى لا يصيب

الاذى السكان الآمنين.

« ... وقد كانت رعاية الله تكلأنا في اجتيازنا هذه المنطقة... التي لا يجتازها الناس عادة الا والسلاح مهيا مشهور... حتى وصلنا تلمسان... وقد دخلها معنا ما يزيد عن الف حاج.. وتلمسان مدينة كبيرة نصفها في السهل ونصفها الثاني في منعرج من الجبل... وفيها مسجد جامع فخم واسع، واسواقها حافلة.. وفي مرتفع من الارض تقوم العباد - وهي مقبرة اهل التقى والمرابطين، وافخم القبور هناك واجملها ضريح ابي مدين... وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة... وفي داخلها الحمامات الحسان.

« ولم يبق للعلم من اثر في هذه الديار، وقد جفت سواقي المعرفة. وقد حضرت درساً في النحو فوجدت الجهل مطبقاً على الجميع.

« وقد طالت اقامتنا بتلمسان حتى ٢٥ ربيع الاول ثم خرجنا منها. واخيراً وصلنا مليانه البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الابنية ولا ينقصها شيء من ميزات المدن الكبيرة.

« واخيراً وصلنا الجزائر وهي مدينة لا يكف المرء عن الاعجاب بها اذ فيها ما يسحر اللب. تقوم على شاطىء البحر، مقتعدة نشزا من الارض، بحيث تستمتع بكل ما يمكن ان يضفيه مثل هذا الموقع الخاص على بلدة ما، ويصبح البحر والسهل موردين لها. جمال ابنيتها يأسر الرائي، وحصونها تتحدى الاعداء بمتانتها. لكنها خالية من العلم... وليس فيها من يمكن ان يعد من العلماء...

« وخرجنا من الجزائر الى بجايه وهي ميناء كبير ومدينة حصينة... وكم حاول الأعداء اخذها فباءوا بالفشل. وفيها مسجد يبز مساجد الجهة كلها حسناً. وفيها جماعة من العلماء الاعلام.

« وجئنا قسنطينة... شفى الله جراحها ومتع سكانها بسبل انعاشها... انها

بلدة جميلة وحصينة، لكن حدثان الدهر طغى عليها... بحيث اصبحت كالمرأة الجميلة وكالكريم الخالي اليدين من المال... تكثر فيها بقايا الابنية القديمة... يحيط بها احاطة السوار بالمعصم نهر يجري في واد عميق يدور بها فيدفع عنها أذى العدوان... ولم أر في قسنطينة الا رجلاً واحداً يصح ان يشار اليه كعلم في المعرفة وهو الشيخ ابو علي حسن بن بلقاسم بن باديس.»[1]

العبدري ومدينة تونس

«ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق. ومحط الرحال من الغرب والشرق. وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك. فان شئت اصحرت في موكب. وان شئت ابحرت في مركب. كانها ملك والأرباض لها اكليل. وارجاؤها روضة باكرتها ريح بليل. ان وردت مواردها نقعت غليلا. وان رددت فرائدها شفيت حشا عليلا. جليت بها عروس الغروس. وحليت بها على ممر الدهر الطروس... فاقت بحسن معانيها واقتان مغانيها غيرها من المدن وطالت. وسطت بنخوتها وانتخت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت. وترجم حسنها البهيج، وعرفها الاريج، عن معناها ولو نطقت لقالت:

انا الغادة الحسناء فاق جمالها ... فئالت يميناً لا خطبت على زوج
اذا الغانيات ارتدن وصل بعولة ... فمالي ولا فخر الى الزوج من حوج
اعادي اذا ما شئت ظبياً بقفزة ... واطرق نوء اليم في ظلم الموج
وفيّ لمكدود الحجيج استراحة ... فهم يردوني الدهر فوجاً على فوج
واني الى البيت العتيق كسلم ... به يرتقي من في الحضيض الى الاوج

«وما زالت مدينة تونس كلاها الله دار ملك وفخامة وهي الى الآن دار مملكة افريقية، على ضعف المملكة بها وانتهائها الى حد التلاشي ومع ذلك فقد اربت على البلاد في كل فضيلة...

---

١ - العبدري، راجع للمؤلف، «الرحالة العرب» ص ١١٧ - ١١٨.

« ثم وصلنا الى مدينة تونس حرسها الله تعالى وهي كما مر ذكرها واستقر عند المؤالف والمخالف شكرها وهي مؤنسة عند اسمها ومسعفة على مقتضى رسمها وما انصف من ذمها بالمحال. وتعسف عليها فقال:

لعمرك مــا الفيت تونس كاسمهـا ولكنـــــي الفيتهـــا وهي توحش تونس وارباضها

« وهذه المدينة كلاها الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان والرخام بها كثير واكثر ابواب ديارها معمول بها عضائد وعتب، وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل. ولها ابواب عديدة وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل. ولو اتفق ان كان بها ماء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً، ولكن ماءها قليل وفي ديارها مصانع لماء المطر وهو المستعمل عندهم، واما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى سقاية جامع الزيتونة، يترشف منها في انابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ويكثر عليها الازدحام.

الجامع الأعظم

« وهذا الجامع من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقاً ودائره مسقف ووسطه فضاء، قد نصبت فيه اعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شداً محكماً، فاذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف.

ماء زغوان والحنايا

« واما الساقية المذكورة فهي من جملة غرائب الدنيا وهي قديمة من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوبي تونس، على مسيرة يومين او نحوهما، في اوعار واودية منقطعة وجبال وأكام. فاذا انتهوا بها الى جبل او تل خرقوه وسربوا

الماء فيه واذا انتهوا الى واد او وهد بنوا لها قناطر بعضها فوق بعض، حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخر منحوت اتقن ما يكون من البناء واغربه واوثقه، حتى ينسرب الماء منها في مستوى معتدل. واتصلت هذه الساقية بهذا العمل حتى دارت من وراء تونس الى الغرب وانتهت الى مدينة قرطاجنة وبينها وبين تونس نحو اثني عشر ميلاً، وهي (أي قرطاجنة) من اعجب مدن الارض واغربها، لما يحكى عنها من فرط الاعتناء وغرابة الصنعة وحسبك ان هذه الساقية من جملة الاعتناء بها. واما الرخام فيجلب منها الى كل موضع بافريقية قديماً وحديثاً ولا يفنيه ذلك منها وهي الآن داثرة لا انيس بها؛ واهل تونس يخرجون اليها تفرجا وتعبدا، والقناطر من تونس اليها معطلة. وهذه القنطرة تعرف عندهم بالحنايا، وهي مما يقصر عنها الوصف لفرط اتقانها وغرابتها. ويذكر ان الروم اقاموا في تدبيرها والنظر في وضعها أربعمائة سنة، وهذا بعيد. أما عبيد البكري فحكى ان عملها فرغ حتى استوى جري الماء في اربعين سنة، وقد كان بعض الامراء وهو اخو القائم بها الآن احتاج الى اصلاح بعض الحنايا بها مما يلي تونس، ليوصل الماء اليها اذ كانت معطلة قبله فاقام في عملها مجتهداً باقصى ما يمكنه اعواما عديدة، ولم يمكنه رد ذلك على ما كان عليه ولا ما يقرب منه، بل اقتنع بتسديده كيفما امكن مع قلته وتفاهته بالاضافة الى غيره.»

اهل تونس

«وما رأيت لاهلها نظيراً شرقاً وغرباً، شيماً فاضلة واخلاقاً حميدة. وقد كان الأخلق بمن شاهد اخلاقهم ان يطنب في وصفهم ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد وينصفهم، اذ ذلك من بعض واجبهم واقل مراتبهم ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق ولا يتعمد الفراغ (كذا) الا اهل العقوق. وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ولا يعدم فيه كل فاضل اريب يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين اهل مشفق ورفيق مرفق. وقد كان بعض خيار طلبتها وحسبائهم لازمني مدة الاقامة بها

وترك لأجلي مهمات اموره وعرفني بفضلائها، وكان لا ينفصل عني عامة النهار. وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني بفضلائها، من أهلها فأسأله عن الطريق الى ناحية منها، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل بي، وهذا من اغرب ما يسمع من جميل الاخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.ولولا اني دخلتها لحكمت بان الصلاح في أفق المغرب قد محي رسمه ونسي اسمه وضاع حظه وقسمه، ولكن قضى الله بان الأرض لا تخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة.... ويقول مادحاً لاهل تونس ايضاً في معرض المقابلة بينهم وبين بعض من لم يؤتوا ما أوتوا من الفضل ما نصه: فسبحان من خلقهم واهل تونس في طرفي نقيض اولئك في الأوج وأولاء في الحضيض...»

العلم بتونس

«لا تنشد بها [بتونس] ضالة للعلم الا وجدتها ولا تلتمس بها بغية معوزة الا استفدتها... وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائماً ولا مورداً من موارد المعارف الا رأيت بها حوله وارداً وحائماً...»[1]

أهل العلم بتونس

«ولقيت بها الشيخ الأديب الحسب، الكاتب البليغ، ذا الفضائل المذكورة والمآثر المأثورة، شيخ الادباء واوحد البلغاء وزين الناظمين والشعراء ابا الحسن علي بن ابراهيم التجاني التونسي،له بيت عريق في العلم والأدب، قال لي بمسجد اقرائه: انا الثاني عشر مدرساً من آبائي على نسق كلهم قد قعدوا هنا للاقراء وبيتهم بالعلم شريف شهير وقل منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر. واما ابو الحسن فهو فيه آية الزمان اجادة معنى وتنقيح لفظ وسرعة بديهة، وكثيراً ما يمليه ارتجالاً فيجود ويتقن. وله مشاركة حسنة في العلم ورواية عن الشيوخ

---

١ - ما ذكره العبدري عن تونس منقول عن «المجلة الزيتونية»، المجلد الثاني (١٩٣٧) الجزء الثالث ص ١٢٢ - ١٢٥.

ورحلة الى المشرق وحج فيها. وهو بالجملة من خواص اهل العلم واحادهم جالسته كثيراً وسمعت كلامه في الادب وغيره... (قلت) اتماماً للفائدة انقل الى ما ذكره العلامة الوالد تغمده الله برحمته في شأن بيت التجاني الرفيع العماد في المجد والسؤدد، من كتابه عنوان الأريب ونصه: وكان بيتهم (اي التجانيين) بحاضرة تونس مطلعاً لبدور العلماء والكتاب والشعراء. تناوبوا خطط الدولة الحفصية وتقدموا في كتابتها ودسوت رئاستها باستحقاق واضطلاع في العلم والادب، وكان الادب والشعر مستفيضاً في كبيرهم وصغيرهم وذكورهم واناثهم. فلقد نقل التاريخ ان صبيين من بيتهم خرجا يتفسحان فجلسا يستريحان عند حنايا ماء زغوان. فقال احدهما وقد رأى انهدام بعض الحنايا لكرور الأيام وتعاقب الاعوام وقيام بعضها على أصوله:

تمتع من بقايا الحنايا

فقال الآخر:

بابدع منظر تصبو اليه

فقال الاول:

تأمل صنع ارسمها البواقي

فقال الآخر:

وقد مد الفناء لها يديه

فقال الاول:

كسطر بعض احرفه تمحى

فقال الآخر:

وبعض لاح مضروباً عليه

علماء تونس وبث العلم

« فممن واظبته مدة الاقامة ولزمته لزوم الطوق للحمامة، الشيخ الفقيه الفاضل والحبر النزيه الكامل، قاضي القضاة وزين الحملة والرواة، ذو التواضع

والانصاف والمعروف بوطاءة الاكناف، مسند عصره والمرجوع اليه في مصره ابو العباس احمد بن محمد بن حسن بن محمد بن الغماز الخزرجي وصل الله صيانته وأدام على الخيرات اعانته. فلقيت منه عالماً يأخذ بالاسماع والابصار وفاضلاً خلت عن مثله القرى والامصار... الى ان يقول يدأب على الاسماع دؤوب من عد العلم أرفع صناعة ورأى الاشتغال به انفع بضاعة، لا يشغله عنه الابقاء على اعضائه الواهية ولا يصده عنه ما تتحمله من المشقة نفسه السامية، ولم يؤثر في قوة اجتهاده ضعف قواه ولا هوى به الى استيطاء الراحة هواه، بل يستعذب في خدمة العلم ما يلاقي ويعده عدة ليوم التلاقي...»

شبان علماء تونس

حكى العبدري عن بعض من لقيهم من العلماء بتونس ما نصه« وممن لقيت بها فسرني لقاؤه، وواليته في ذات الله فنفعني ولاؤه، وحاضرني فاعجبني ذهنه وذكاؤه، وصحبته فبهرني حياؤه وفضله وكرمه وسخاؤه وتواضعه ورجاؤه صاحبنا في الله وولينا وصديقنا في طاعته وصفينا ابو العباس احمد بن عمر بن ميمون الأشعري المانعي يعرف بابن السكان رأيته مجرياً الى غاية من كمل. ومبرزاً في حلبة العلم والعمل. عذبت اخلاقه وفاقت زلالا، واستقامت احواله كالبان اعتدالا، وفاضت انامله كالمزن انهمالا، ادرك مزايا الشيوخ على فتاء سنه. فما تكلم في علم الا قلت هذا معظم فنه، قد الف الانقباض فما يبسط الا يده. وسحب قصر الأمل فما يؤمل غده فقل من الآمال اذ لا يضمها.

ولكنه من كل مأثرة يثري سري غني النفس ما تستفزه زخاريف دنياه بقل ولا كثر« وله اعتناء بتصحيح الرواية واعباء في تنقيح الدراية. سمع من الشيوخ واستجازهم واستجيزوا له. فأتسعت لذلك روايته. وله مجموعات تشوق ومؤلفات تعجب وتروق. منها كتاب في اكمال التذييل لابي بكر بن فتوح على كتاب الاستيعاب للحافظ ابي عمر بن عبد البر. قد اعتنى به اعتناء تاما وهو الى الآن لم يكمل.»

عدول تونس

وهذا العبدري يذكر ان ممن لقيهم من علماء تونس الفقيه الأفضل أبا عبد الله محمد بن ابي القاسم الأزدي ويعرف بالقسي - بضم القاف - قال: وهو رجل فاضل وقور ذو سمت ومن عدول البلد رحل الى المشرق فلقي الناس وأخذ عنهم قرأت عليه جزءاً في فضيلة من اسمه محمد واحمد تخريج الشيخ الحافظ ابي عبد الله الحسين احمد بن عبد الله بن بكير البخاري.»

مؤدبو تونس

وهذا العبدري يحدثنا ان ممن اجتمع بهم في تونس« الشيخ الفقيه الصالح الفاضل ابا العباس احمد ابن موسى بن عيسى بن ابي الفتح البطرني (نسبة الى بطرنة بفتح واسكان الراء) وهو مؤدب في بعض ارباض تونس ضرير البصر دين صالح معتن بالعلم وروايته مواظب على افعال الخير لقي جماعة من العلماء وسمع من ابي عمر ابن الشقر وقرأ عليه كثيراً وروى عنه وأجازه قال: وقد قرأت عليه الاربعين المسلسلات لأبي الحسن بن ابي الفضل المقدسي... ثم يقول: وكانت له مسموعات ومرويات لم يتسع الوقت لاخذها عنه والحمد لله على كل حال.

تجار تونس

لا ريب ان انتشار انوار العرفان في الامة حتى ينال حظه منها التاجر والصانع وغيرهما من اللفيف فهو عنوان تقدم الامة ورقيها وتجار تونس في عصر صاحب الرحلة قد اخذوا حظاً من العلم غير منزور فقد روى «أن ممن لقيهم بتونس الشيخ الفقيه الحاج المبارك الافضل معين الدين ابا محمد جابر بن محمد بن القاسم بن حسان قال وكان من التجار رحل الى المشرق قديماً فلقي به الامام علم الدين السخاوي وسمع منه وأجازه وقرأ عليه قصيدتي الشيخ الامام ابي القاسم الشاطبي في القرآت وفي المرسوم وحدثه بهما عنه قال: وقد قرأت عليه بعض الاولى وجميع الثانية وحدثني بهما معاً عن السخاوي عن ناظمهما

المذكور وأجازة عامة وكتب لي بذلك خط يده وقرأت ارجوزة السخاوي في المتشابه من الفاظ القرآن وحدثني بها عنه قراءة ثم قال: وقرأت على الشيخ أبي محمد احاديث من احاديث المعمرين...»[1]

١ - العبدري، منقول عن «المجلة الزيتونية»، المجلد الثاني (١٩٣٨) الجزء التاسع ص ٣٨٤ - ٣٨٧.

الفصل الثالث عشر

رحالة عالم

عبد اللطيف البغدادي رحالة عالم شملت معرفته الطب بالاضافة الى النحو واللغة وعلم الكلام. واشتهر بصناعة الطب في كل مكان اقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته، فتراه يشير الى انه رأى وفحص ونقب، فضلاً عما يسمع. واذا روي له امر وشك فيه اظهر ذلك في كتابته. والثاني لأنه خلف لنا وصفاً لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ - ٥٩٨ هـ). هذا بالاضافة الى انه تناول اموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانيه بتفصيل العالم ودقته.

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ١١٦٢/٥٥٧، وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الاسلامي في عصره، الى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات، واخذ لنفسه اجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان فلما اطمأن الى أنه أخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحول الى الموصل وحدث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث. ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات.

وكان صلاح الدين،سيد سورية ومصر آنئذ، قد أحسن الى عدد كبير من العلماء فأووا الى دمشق. وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم، فتوجه الى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين

الكاتب والقاضي الفاضل. والراجح ان الاخير اعجب بعبد اللطيف لأنه زوده برسالة توصية الى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به. وهناك تيسر له الاتصال بياسين السبيائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي. وقد اعجبه الاخير من هؤلاء الثلاثة. فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف « بقوة الجدل وفضل اللسن »، ويتغلب الشارعي « بقوة الحجة وظهور المحجة. »[1]

على ان اقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل، اذ رحل الى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة، وتم له ذلك. وقد وصف مجلس السلطان بقوله: « ... واول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً باهل العلم يتذاكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة. ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع »[2]. ورتب صلاح الدين واولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر. فدخل دمشق وأكب على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع.[3]

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة، فرحل الى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الأفضل اخيه في دمشق في حملة فاشلة. وعاد في مصر الى مصاحبة الشارعي حتى توفي.[4] وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحا ومساء ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار. وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت، وكتب عبد اللطيف كتاب « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر »، في وصف احوال مصر في وقته.

---

١ - البغدادي. عبد اللطيف. « الافادة والاعتبار »، القاهرة، مطبعة وادي النيل ١٨٦٩ ص و.

٢ - نفس المكان ص ز.

٣ - نفس المكان ص ز.

٤ - نفس المكان ص ز - ح.

ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل الى القدس ودرس في الجامع الأقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرس في المدرسة العزيزية (٦٠٤ هـ) وتنقل بعد ذلك بين حلب واذربيجان في بلاد الروم وارزن الروم وبغداد وتوفي بها[١].

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدث وعلم الطب والف كتباً كثيرة فيه، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد.

البغدادي في مصر

أبنية مصر - « واما ابنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة. ودورهم افيح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً الا وتجد فيه باذاهنج. وباذاهنجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يغرم على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة، وان كانت باذاهنجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها مائة دينار. واسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة. ويبنون الحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

«ويحكمون قنوات المراحيض حتى انه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف الى المعين فيغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح. واذا ارادوا بناء ربع او دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة، وهي تل تراب او نحوه، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد الى جزء من تلك العرصة فيعمر ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر، ولا يزال كذلك حتى

---

١ - نفس المكان ص ي.

تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك.»[1]

الترقيد في مصر - «من ذلك حضانة الفراريج بالزبل قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يعرفوه ايضاً. وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها. وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك. ويسمى الموضع معمل الفروج. وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة ابيات الى عشرين بيتاً في كل بيت الفا بيضة ويسمى بيت الترقيد. وصفته ان يتخذ بيت مربع طوله ثمانية اشبار في عرض ستة في ارتفاع اربعة، ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر، ثم تسقف باربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجا منه وفوقه ساس وهو مشاقة الكتان وحطبه، ومن فوق ذلك الطين، ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه واعلاه واسفله حتى لا يخرج منه بخار. وينبغي ان تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة. ثم تتخذ حوضين من الطين مخمر بساس طول الحوض ستة اشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو اربع اصابع، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على ارض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف احدهما على وجه الباب والآخر قبالته على الطرف الآخر تركيباً محكماً واخذت وصولهما بالطين اخذاً متقناً. وينبغي ان يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه، وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحي الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد، ويفرش فوقه خب اوديس يعني حصيرا برديا على مقداره سواء، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه. ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض الفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد.»

---

١ - نفس المكان ص ٣٨ - ٣٩.

صفة الحضان–« تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساس والشباك ايضاً بساس وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت متنفس للبخار. وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وذلك ثلاث ويبات وتقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتمهله ريثما يرجع رماداً وانت تتفقد البيض ساعة بعد اخرى بان تضعه على عينك، وتعتبر حرارته. وهذا الفعل يسمى الذواق. فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات، تجعل اسفله اعلاه واعلاه اسفله. وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيض بمنقارها وتفقدها اياه بعينيها وهذا يسمى السماع الاول. فاذا صار الزبل رماداً ازلته وتركته بلا نار الى نصف النهار ان كان ترقيده بكرة. وان كان ترقيده من اول الليل حرسته الى ان تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة، ثم تخلى الطاجنين من النار الى بكرة، ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة اقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفاً. ومد الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، واياك ان تغفل عنه ليلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل.

« واذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء الى البيض اسفل البيت، فغير الرماد من الطواجن بزبل جديد مثل الاول. وانت كل وقت تلمس البيض وتذوقه بعينك فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين، فاجعل مكان الثلاثة الاكيال لطاجن الباب كيلين وربعاً وفي طاجن الصدر كيلين فقط. ولا تزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة ايام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان. ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب اصفر في زجاج لا عكر فيه فهي لاح بلا بزر، وتسمى الارملة فاخرجها فلا منفعة فيها. ثم عدل البيض في البيت بعد تنقيته وأخرج

اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح، ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الاول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى يتصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء، فحينئذ يكمل الحيوان ويسعر وينفخ. فاقطع اذا النار عنه فان وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب وخلها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وانت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر الى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الهواء فيصير في طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد، فيعتدل مزاجه. وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء. وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل الى تمام تسعة عشر يوماً. فان الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضه، يكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح. وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه، واحمد الأوقات عاقبة لعمله امشير وبرمهات وبرمودة وذلك في شباط واذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح للنشىء والتكوين وينبغي ان يكون البيض طريا. وفي هذه الاشهر يكثر البيض ايضاً.»[1]

---

١ - نفس المكان ص ١٧ - ١٩.

الفصل الرابع عشر

شيخ الرحالين

أن الرجل الذي يقصي ثماني وعشرين سنة من حياته يتنقل في اجزاء العالم المعروف، فتحمله اسفاره من طنجة الى مصر عبر شمال افريقية ثم الى الشام وبعد ان يؤدي فريضة الحج يزور ايران وبلاد العرب وشرق افريقية ويدخل القرم وحوض الفولغا الادنى ويعرج على القسطنطينية.وبعد هذا كله يمعن في الرحلة شرقاً الى خوارزم وبخارى وكردستان وافغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية وجزر الملديف، وبعد ان يعود الى بلده يعاوده الحنين الى السفر فيزور الاندلس والسودان. والذي يقطع في اسفاره ما لا يقل عن ١٢٠.٠٠٠ من الكيلومترات: ان رجلاً هذا شأنه يعتبر بحق شيخ الرحالين العرب. وسيد الرحالين اطلاقاً في عصره، أي في القرن الثامن (الرابع عشر).

وابن بطوطة من مواليد طنجة، عروس المغرب، ولد فيها سنة ١٣٠٤/٧٠٣ وفيها درس العلوم الشرعية على ما عرف عن اسرته من اهتمام بها. فلما بدأ رحلاته كان قد اصبح ممن يشار اليهم بالبنان في هذه العلوم. وقد عرف الحجاج المغاربة رفاقه في السفر فضله وهم في الطريق الى مصر فجعلوه قاضياً لهم، مع انه كان في الثانية والعشرين من سنه. وقد اجتاز ابن بطوطة المغرب والجزائر وتونس وليبيا الى مصر وهبط الاسكندرية، فاعجبته فقال «ثم وصلنا في اول جمادي الاولى الى مدينة الاسكندرية (حرسها الله)، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشان، الاصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين. كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت

بين الضخامة والاحكام مبانيها. فهي الفريدة تجلي سناها، والخريدة تجلى في حلاها الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فاليها انهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا.»[1]

وانتقل من الاسكندرية الى القاهرة مجتازاً الدلتا، ولم يتمكن من الذهاب الى الحجاز بحراً من عيذاب على النحو المألوف لان سلطان البجاة قد خرق المراكب، فلم يكن ثمة سبيل الى قطع البحر الأحمر، فاضطر الى السير من القاهرة الى الشام ومنها رافق الحاج الشامي الى المدينة ومكة. وهنا ننقل جزءاً من وصفه للطريق من بدر الى مكة. قال «ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء. وهي برية يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل، مسيرة ثلاث، وفي منتهاها وادي رابغ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زماناً طويلاً. ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة. وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص، ومررنا بعقبة السويق، وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل، والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلوطاً بالسكر. والامراء يملأون منه الاحواض ويسقونها الناس. ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل، لها حصن مشيد في قنة جبل. وفي البسيط حصن خرب، وبها عين فوارة، قد صنعت لها اخاديد في الارض وسربت الى الضياع. وصاحب خليص شريف حسني النسب. وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والأدام.»[2]

وبعد تطواف دام سنين، منها ثمانية اعوام قضاها في الهند وغيرها في جنوب شرق آسية، عاد الى مصر ومنها الى طنجة ١٣٤٩/٧٥٠ وحط رحاله

---

١ - ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار»، باريس، المطبعة الوطنية، ١٨٧٤ ج ١ ٢٧ - ٢٨.

٢ - نفس المكان ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٨.

بعد ذلك في فاس في بلاط السلطان أبي عنان. ومن فاس خرج في رحلتين الواحدة الى الاندلس والثانية الى السودان الغربي (١٣٥٢/٧٥٢) وهذه دامت سنتين. وتوفي ابن بطوطة في المغرب سنة ١٣٦٨/٧٧٠ - ١٣٦٩.

وفي بلاط ابي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن اسفاره - قص اخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. فاعجب السلطان بها، ولذلك صدرت ارادته الى الرحالة بان «يملي ما شاهده في رحلته من الامصار، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الأبرار»[1]، ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة. فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الادبية التي ننعم بقراءاتها فنطلع على كنوز من المعرفة. فنذكر بالخير الرحالة والسلطان وابن جزي.

يجدر بنا ان نذكر ان ابن بطوطة كان قد فقد اوراقه وكتبه غير مرة، ولذلك فقد املى الرحلة من الذاكرة. وهذه الاسفار التي قام بها، لم يكن من السهل تذكرها مرتبة منظمة، ومن ثم فقد بدا في الرحلة شيء من الاختلاط الذي اثار بعض الريب في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم، مثل ابن خلدون وفران. لكن اكثر الذين درسوا الرجل واسفاره مجمعون على انه كان صادقاً مخلصاً اميناً فيما نقل وشاهد وروى وتذكر. اما الخطأ او السهو فسببه بعد الشقة وطول الزمن.

ولابن بطوطة، في رحلته، خصائص جديرة بعنايتنا. منها انه كان قليل الحفاوة بالارض والمدن، ولكنه كان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء. ومن ثم فالرجل، بالاضافة الى كونه رحالة من الطبقة الاولى، يمكن اعتباره مؤرخاً اجتماعياً للمسلمين في عصره.

وحري بنا ان نشير هنا الى ان ابن بطوطة عاش في عصر، كانت حضارة العرب والاسلام قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة، لعل

---

١ - راجع للمؤلف، «الرحالة العرب» ص ١٢٣.

اهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه ان يقوي كيانها - مؤيداً بالدين - ويظهر زيغ خصومها. وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها. ولعل القارىء رأى من بعض ما نقلناه قبلاً عن العبدري مثلاً ان بوادر مثل هذه الحال كانت قد طلعت من قبل. ولكن هذا الأمر يبدو واضحاً كل الوضوح في صفحات ابن بطوطة - في اختباراته وزياراته واتصالاته والرجال الذين قابلهم. وقد يقال ان ابن بطوطة بحكم تكوينه الفكري لم يتصل الا بفئة من اهل العلم توازيه وتسامته. ولكن ابن بطوطة، كان يسير يقظ الذهن مفتوح العين، ويصف ما يرى ويسمع وتنطبع الصور في نفسه انطباعاً جيداً. فلو وقع على اختبارات حاسمة في ميادين الفكر الوثاب، او اتصل باصحاب العقول التي تنفذ الى ابعد من المألوف لكان صرح او لمح. ولكن لم يسعد الحال فلم يسعد النطق.

ولا يتسع المجال هنا لنقل الكثير من رحلة ابن بطوطة، ولذلك فاننا نجتزىء بالقليل القليل.

في الخليج العربي - « واكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة، طبخها من غير طحن، وصب عليها عسل التمر وأكلناه. ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها الا من السمك، ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة. وأقمنا بها يوماً، وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد الينا. ثم سرنا يوماً وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل، فخيل لنا انها قريبة. وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال او قبله فلما ظهرت لنا المدينة احببت المشي اليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب، فسألت عن طريقها فأخبرت اني أصل اليها عند العصر، فاكتريت احد البحريين ليدلني على طريقها،

وصحبني خضر الهندي، وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم. واخذت اثواباً كانت لي فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها، وحملت في يدي رمحاً، فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولي على اثوابي، فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر. فاراد عبوره بالثياب فقلت له: اذا تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا، فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز، فرجع. ثم رأينا رجالاً جازوه عوماً، فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب. فحينئذ اظهرت النشاط واخذت بالحزم. ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها، وعطشنا واشتد بنا الامر، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من اصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي، وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا، وبيننا وبينها خنادق تمشي فيها الاميال الكثيرة. فلما كان من العشي اراد الدليل ان يميل بنا الى ناحية البحر، وهو لا طريق له لان ساحله حجارة، فأراد ان ننشب فيها ويذهب بالثياب، فقلت له: انما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها، وبينها وبين البحر نحو ميل. فلما اظلم الليل قال لنا: ان المدينة قريبة منا، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح، فخفت ان يتعرض لنا أحد في طريقنا، ولم احقق مقدار ما بقي اليها، فقلت له: انما الحق ان نخرج عن الطريق فننام، فاذا اصبحنا اتينا المدينة (ان شاء الله)[1]. »

في المغرب (وطنه) وقد قابله بغيره فقال: « ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة في اواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعماية الى حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم، الامام الاكرم، امير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان، وصل الله علوه، وكبت عدوه. فانستني هيبته سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة.

---

١ - ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣.

« وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة، والمآثر الكثيرة، ابو زيان بن ودرار. فسألني غن الديار المصرية، اذ كان قد وصل اليها، فاجبته عما سأل. وغمرني من احسان مولانا ايده الله تعالى ما اعجزني شكره، والله ولي مكافأته. والقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد ان تحققت بفضل الانصاف أنها أحسن البلدان.. لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والاقوات غير متعذرة. وقل اقليم يجمع ذلك كله. ولقد احسن من قال:

الغـــرب احســـــن ارض ولي دليـــــــل عليـــــــه
البـــــدر يرقـــــب منـــه والشمس تسعـــــــى اليـــــه

« ودراهم الغرب صغيرة، وفوائدها كثيرة. واذا تأملت اسعاره مع اسعار ديار مصر والشام، ظهر لك الحق في ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب. فأقول: ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة اوقية بدرهم نقرة. والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب. وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره، ثمان عشرة أوقية بدرهمين. وهما ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات،والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب، ولأن اكثر ذلك العدس والحمص. يطبخونه في قدور راسيات، ويجعلون عليه الشيرج والبسلا، وهو صنـــف من الجلبـــان، يطبخونـــه ويجعلون عليـــه الزيت. والقرع يطبخونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك. واعين اغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن. والقلقاس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالمغرب. لكن اغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك.

« واما الخضر فهي اقل الاشياء ببلاد مصر. وأما الفواكه فاكثرها مجلوبة من الشام. واما العنب فاذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة ارطال من ارطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة اوقية. واما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، الا انها ببلاد الغرب ارخص منها ثمناً. فان العنب يباع بها بحساب رطل من ارطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم ثلاثة ارطال مغربية. واذا رخص ثمنه بيع

بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر اواقي بدرهم نقرة. وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس، وهي درهم من دراهم المغرب. واما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها اقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير. واما اللحم فيباع فيها الرطل منه من ارطالهم بدرهمين ونصف نقرة.

« فاذا تأملت ذلك كله، تبين لك ان بلاد المغرب ارخص البلاد اسعاراً، واكثرها خيرات، واعظمها مرافق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً الى شرفها، وفضلاً الى فضلها، بامامة مولانا أمير المؤمنين، الذي مد ظلال الامن في اقطارها واطلع شمس العدل في ارجائها، وافاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين. واقام بها رسوم الدنيا والدين. وانا اذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته، واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية، ورفع المظالم.»[1]

من افعال السودان

« فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه. وسلطانهم لا يسامح احداً في شيء منه. ومنها شمول الامن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد، لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة.

« ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، اذا

---

١ - نفس المكان ج ٤ ص ٣٣٢ - ٣٣٧.

ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت: له « الا تسرحهم؟ » فقال « لا افعل حتى يحفظوا القرآن ». ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: « ما فعل هذا، أقتل؟ » ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: « انما قيد حتى يحفظ القرآن. »[1]

---

١ - نفس المكان ج ٤ ص ٤٢١ - ٤٢٣.

الفصل الخامس عشر

التجاني التونسي

في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد، وفي سنة ١٢٣٦ على التحقيق، اقام الحفصيون دولتهم في تونس وغرب الجزائر. وكان ابو زكريا هو مؤسس هذه الدولة. وقد دامت دولة الحفصيين الى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد، الا ان ايامها لم تكن كلها هينة لينة. فقد تنازعت الدولة الأهواء، وتضاربت فيها المصالح، وتقسمتها الحروب الأهلية في فترة من تاريخها. وجاءت اول هذه الخصومات في اواخر القرن الثالث عشر الى اوائل القرن الرابع عشر (١٢٧٧ - ١٣١٨). وهي الفترة التي تعيننا بشكل خاص اذ فيها كان صاحبنا ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني في فترة نضجه وازدهاره.

فقد ولد عبد الله بين سنتي ٦٧٠و ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦ للميلاد) في مدينة تونس، عاصمة الحفصيين ودار ملكهم. والظاهر ان اسرته هبطت المدينة مع جيش الموحدين في اواسط القرن السادس للهجرة. وقد كان ابوه وجده وابناء عمومته من اهل العلم والأدب والفقه. واذن فقد نشأ ابو محمد في بيت عرف للعلم قيمته، ونشىء في اكناف ابيه الذي كان احد شيوخه. وكانت للاسرة مكتبة حافلة بانواع العلوم من الفقه الى الأدب الى الشعر الى التاريخ وما الى ذلك. فضلاً عن ان تونس نفسها كانت موئل العلم والأدب؛ كما قال العبدري الرحالة الذي زارها في ايام صاحبنا عبد الله[1].

---

١ - راجع فوق الفصل الثاني عشر.

واذن فقد اتيح لعبد الله التجاني كل ما يحتاجه المرء للنبوغ من ظروف واحوال وفرص وهمة عالية وجهد لا يفتر ورغبة في العلم وصبر واناة كانا خليقين بان يبوئاه المركز اللائق بسليل الأدباء والعلماء. وادرك ابا عصيدة، احد سلاطين بني حفص، في مستهل القرن الثامن. وكان على ادارة الدولة يومها شيخ الموحدين الأمير ابو يحيى بن اللحياني، فاختص التجاني بعنايته واختاره كاتباً خاصاً. ثم اراد بن اللحياني ان يتفقد شؤون الدولة، ولعله كان يريد الحج، وان لم يفصح عن ذلك مقدماً، فأخذ عبد الله معه وجعله المشرف على رسائله.

٢

خرج ابن اللحياني من تونس في جمعه الكبير وبرفقته عبد الله المذكور في اواسط جمادي الأولى سنة ٧٠٦ هـ (اواخر ١٣٠٦ م)[١]. وبعد ان وصل الجمع الى طرابلس واقاموا فيها مدة استمر ابن اللحياني في اتجاهه شرقاً لاداء فريضة الحج، وعاد التجاني الى تونس فوصلها في صفر سنة ٧٠٨[٢] أي انه غاب عن بلده سنتين وثمانية اشهر ويزيد.

وقبل ان نتحدث عن الرحلة ذاتها نسمح لأنفسنا ان نستبق الحوادث قليلاً لنضع الاطار التاريخي لما تبقى من حياة الرجلين ابن اللحياني والتجاني. ذلك ان ابن اللحياني عاد من الحج لكنه لم يرجع الى تونس بسبب ما كان قد عمها من الفوضى والاضطراب، بل استقر في طرابلس الغرب يرقب الأمور، فلما ادرك ان الفرصة اصبحت مواتية، هاجم تونس في رجب ٧١١ (١٣١١)، واحتل البلد، وبويع له بالسلطنة، وجلس على العرش الحفصي ٧١١ - ٧١٧ (١٣١١ - ١٣١٧). فلما وجد انه لا يمكنه السير بالأمر الى نهايته ترك البلاد والسلطان، وارتحل الى الاسكندرية حيث مات سنة ٧٢٧ (١٣٢٦).

---

١ - التجاني، ابو احمد عبد الله، رحلة التجاني، تونس، المطبعة الرسمية ١٩٥٨ ص ٤.
٢ - نفس المكان ص ٣٩٣.

ومع ان ابنه تولى الأمر بعده فانه تعرض في السنة التالية لهجوم عنيف من ابي يحيى الذي انتزع السلطة والسلطان وحكم دولة الحفصيين ٧١٨ - ٧٤٧ (١٣١٨ - ١٣٤٦) واعاد الى البلاد وحدتها.

لما تولى ابن اللحياني الملك ولى التجاني خطة العلامة الكبرى اي رياسة دواوين رسائله.

يقول المرحوم العلامة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب: « ولا مراء في ان عبدالله التجاني باشر ما القي على عاتقه من المهمات احسن مباشرة طيلة اقامة هذا السلطان في الملك... ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة، الى ان عقد مخدومه العزم على مغادرة تونس.»[1] ويرى مؤرخنا الكبير ان التجاني وغيره من افراد اسرته لقوا حتفهم قتلاً على اثر انتصار ابي يحيى سنة ٧١٨ (١٣١٨).

وللتجاني مؤلفات عدة اكثرها مفقود وهي في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث والمراسلات (مثل مراسلاته مع ابن شبرين) والعلامة وحتى في الأدب النسائي.

٣

هذه المدة التي قضاها التجاني في صحبة ابن اللحياني في رحلته كانت خيراً وبركة على الأدب والتاريخ. فقد كان التجاني يقيد اخبارها ويدون آثارها ويسجل مشاهداته ويعبر عن انطباعاته، بلغة انيقة وديباجة مشرقة واسلوب جلي وبيان طلي. وهو، فضلاً عن ذلك، يهتم بالتاريخ، فاذا حدثنا عن المهدية استعرض تاريخها وتاريخ العبيديين فيها. وكان مغرماً بتراجم اهل الأدب، ولذلك فهو يتقصى اخبارهم وينبش عن آثارهم ويدون اشعارهم. بل ان الرجل فعل اكثر من ذلك فقد دوّن في « تقييده »، كما سمى اخبار رحلته، ما

---

١ - نفس المكان ص ٢٧ م - ٢٨م.

كان يرد عليه من الرسائل المنظوم منها والمنثور، وما يردّ عليها به من نثر او شعر. ولذلك فقد كان هذا التقييد ترجمة وتاريخاً ورحلة وادباً وانساباً للقبائل. انه سحر حلال.

اما طريق الرحلة فقد كانت على ما يلي: خرج الجمع من تونس الحاضرة الى سوسة، ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم الى الجم ثم الى سفاقس فقابس. ومن هذه زارت الجماعة توزر وعادت الى قابس فتجفت حيث عرجت على جزيرة جربة. ورجعت الى الداخل الى غمراسن فزوارة فصبرة فطرابلس فمصراته. وكانت طريق العودة اقرب الى الساحل بحيث لم يعرج التجاني على اي من الأماكن الداخلية (راجع الخارطة).

قلنا ان التجاني كان يدون ما يرد اليه من الرسائل وما يبعث به رداً او بدءاً. ولعلّ القارىء الكريم يقبل منا مثلاً واحداً من هذه المساجلات والمخاطبات. فقد روى التجاني انه اثناء اقامته بتوزر وصلت اليه رسالة من ابن شبرين، بعضها نثر. قال «وفي اثناء اقامتنا بتوزر وصلت إلي قصيدة من الفقيه الأجل الأديب ابي بكر محمد بن احمد بن شبرين الجذامي السبتي من مستقره غرناطة. وهذا الرجل من اعظم من رأيت تحقيقاً، واحسنه في النظم والنثر طريقاً. وقد كنت اجتمعت به بتونس ووصل الينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة، وكان في نيته التوجه الى الحج، فلم يقض له ذلك. فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائداً الى وطنه سبتة... فاتفق بعد وصوله الى بلاده من اخذ البلد ما اتفق، وطرق اهله من التشتيت بسبب ذلك ما طرق فكان... ممن انتقل الى غرناطة.»[1] ثم يروي القصيدة ومنها:

يا نسمة سحبت فضول ذيولها ما بين ورد بالعذيب ونرجس
والورق قد صدحت على افنانها والأرض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيتي في معهد بين الجوانح منه عهد ما نسي

---

١ - نفس المكان ص ١٦٤.

والحي من تيجــان فاشرح عندهم   فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس [1]

وكان مما جاء في قصيدة التجاني جواباً على ذلك قوله، وفيه تعزية عما حلّ به وبأهله وببلده:

امــر مــن الله لا مرد له   لم يبــق كهــلاً منهم ولا يفعــا
وخدعــة تم امرهــا فمضــت   وكم سديــد الآراء قــد خدعــا
هــاك سلامي عــلى البعــاد ابا   بكر فقلــبي إليــك قــد نزعــا
وثــق بود ادين فيــك بــه   ملتزمــاً منــه كــلّ مــا شرعــا
ان حــال خــل عن المودة او   اجــاب داعي السلوّ حــين دعــا
فاعــلم بــاني والصــدق من شيمي   ممن رأى حفــظ عهــده ورعــا
وانــي مــا قطعــت ذكرك بــل   ما زلت للشكر فيك منقطعا [2]

ولما كان عبد الله التجاني في قابس وصلت اليه كتب من ابيه، وقد صدر احدها بالأبيات التالية، التي تدل على صلة الود بين الابن والأب:

حملتم القلـب اذ جد الرحيل بكم   من الصبابـة مـا لا تحمـل الإبـل
فلو سلكتم سبيـل الحزم ما عجزت   اذ ذاك مـني على دفع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينــكـم   كما يكابــد من احبابــه رحلوا
فـالله يجمـع منـا الشمـل عن عجل   فالخير اجمل ما في نيله العجل [3]

٤

تقييد التجاني، كما يحب المؤلف ان يسمي رحلته، هي ادب وتاريخ وجغرافية ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه. وقد صيغت، كما قلنا من قبل، باسلوب جميل وعبارة انيقة، بحيث انك تحس كأن الأشياء التي يتحدث عنها « تتقولب » امامك. ولعله من المؤسف ان التجاني لم يخلف لنا وصفاً لتونس،

---

١ - نفس المكان ص ١٦٥.
٢ - نفس المكان ص ١٧٠.
٣ - نفس المكان ص ١١٧.

ولكن من الطبيعي ان يقيد الرحالة ما يمر به خارج منطقة عيشه وسكنه.

وقد نال صفاقس وصف لطيف اذ قال عنها « ووصلنا الى صفاقس ظهراً فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما، وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فافسدتها العرب فليس بخارجها الآن شجرة قائمة وفواكهها مجلوبة اليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ وإنما يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار. ويصطاد بها من السمك أنواع تفوت الاحصاء وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب ومرساها مرسى حسن ميت الماء والماء يمد به ويجزر عنه كل يوم، فاذا جزر استوت السفن على الحماة واذا مد عامت.»[1]

اما قابس فتنال من قلمه صورة لطيفة، يقول: « وأصبحنا يوم الاثنين مرتحلين فاشرفنا على غابة قابس، ووصلنا اليها ضحى فراينا بلداً قد استوفى المحاسن واستغرقها، واذكر بمنظره الانضر، وورقها الاخضر، جنة الخلد واستبرقها، وقد احدقت غابته من جميع جهاته، وبهذه الغابة من الجواسق، والنخل المتناسق، ما يستوقف الطرف، ويستوفي الحسن والظرف، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا، وانها دمشق الصغرى، وهي مدينة بحرية صحراوية فان الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة اميال منها.»[2]

ولعل جزيرة جربة لم يصفها احد من رحالي العصور الوسطى واوائل العصور الحديثة، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني. قال عنها: « وجزيرة جربة من اعظم الجزائر خطراً، واشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرا، وطولها من المغرب الى المشرق ستون ميلاً... وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً، وهو الطرف الواسع. ومن هذا الموضع الى جزيرة قرقنة في

---

١ - نفس المكان ص ٦٨.
٢ - نفس المكان ص ٨٦ - ٨٧.

البحر ستون ميلاً؛ وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلاً وهو اضيق مكان بها، وهي ارض كريمة المزارع، عذبة المشارع، واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين. وبها اصناف كثيرة من سائر الفواكه، الا ان هذه هي اكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من كرائم الارضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها او يساويها، وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير، لما يوجد بها منه صفاء وجفافاً وطيب مذاق وعُطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة، والأميال العديدة، وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير. ثم قل الآن بسبب ان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه؛ فرأى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر اعود بالفائدة عليهم فقطعوا اكثره، واختصت هذه الجزيرة ايضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بافريقية لما ينسج من اثوابها نظير، وذلك معلوم من امرها شهير.

« واكثرمساكن اهلها اخصاص من النخيل، يجعل كل واحد منهم في ارضه واحداً او اثنين او اكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله، وليس بناء قائم الا دور قليلة. »[1]

وقد ذكرنا من قبل ان التجاني اوغل مع ابن اللحياني في داخل القطر التونسي. ونكتفي بنقل ما جاء في رحلته عن توزر. يقول الرحالة: « توزر هي قاعدة البلاد الجريدية وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا اكثر مياهاً، واصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في وادٍ متسع وتتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها امناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف، وامر مقرر مألوف. وعلى ذلك الماء أرحاء كثيرة منصوبة، ومن العجب ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غثاء او غيره، فاذا انتهى الى

١ - نفس المكان ص ١٢١ - ١٢٣.

المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية على عدد المسارب فمضى كل قسم منها الى مسرب منها، وهذا مما شاهدته فيها عياناً. وكثير من اهلها انما يسكنون بغابتها ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد فان مباني الغابة اضخم واحسن. وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر، وهو من احسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقدم، ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره، واطردت انهاره، وليس بتوزر احسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها، والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها.»[٢]

قضى التجاني سنة ونصف السنة في طرابلس الغرب. فأتاح له ذلك الفرصة للتعرف الى المدينة واهلها وعلمائها ومباهجها. ولذلك فهو يتحدث عنها بشيء كثير من الحرارة والحب. وها نحن اولاً نسمح لأنفسنا بان ننقل عنها اكثر مما نقلنا عن غيرها. فالمهم، بالنسبة الى القارىء، هو ان يتعرف الى الأماكن ويتذوقها تذوق الرحالة نفسه.

وصل التجاني طرابلس فقال يصف اثر ذلك في نفسه «ولما توجهنا الى طرابلس واشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار فعرفت صدق تسميتهم بها بالمدينة البيضاء: وخرج جميع اهلها مظهرين للاستبشار رافعين اصواتهم بالدعاء، وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها، ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة؛ غير ان الخراب قد تمكن منها، وقد باع الولاة اكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن انما استخرجت منها. ولها رحبتان متسعتان، وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون امر البلد وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع

---

١ - نفس المكان ص ١٥٧ - ١٥٨.

ذلك الرسم، وزال عن المسجد ذلك الاسم.»[1] ودخل الحمام وجال في الشوارع واطل على البحر فقال في ذلك «ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة الا انه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد وبالبلد حمامان آخران غيره الا أنهما في الحسن دونه، ورأيت شوارعها فلم أرَ أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك ان اكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها الى آخرها على هيئة شطرنجية... ورأيت بسورها من الاعتناء واحتفال البناء، ما لم اره لمدينة سواها. وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مجباها، يصرفونه في رم سورها، وما تحتاج اليه من مهم امورها، فهم لا يزالون ابداً يجددون البناء فيه ويتداركون تلاشيه بتلافيه.»[2]

«وبخارج باب البحر منها منظر من انزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في اواريها.»[3]

وتعرف التجاني الى مدارس طرابلس وعلمائها وشازكهم في مجالسهم. ونتج عن ذلك ان وضع كتابين هما «تقييد على صحيح مسلم» و«تقييد على المسند الصحيح للبخاري». وها نحن اولاً نقدم الى القارىء الكريم وصفه لأحدى المدارس وحديثه عن واحد من العلماء الاعلام. «وبداخل البلد مدارس كثيرة واحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين الى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعاً واظرفها صنعاً.»[4]

١ - نفس المكان ص ٢٣٧.
٢ - نفس المكان ص ٢٣٨.
٣ - نفس المكان ص ٢٤٦.
٤ - نفس المكان ص ٢٥١ - ٢٥٢.

اما العالم الذي يتحدث عنه فهو الامام الحافظ، يقول: « والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى. حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه احد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركاً في علوم جمة، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل او تفسير او تفريق او تخريج. واعتماده في الاصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابي المعالي، وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي، وهو سبأي النسبة من ولد سبأ بن يسجب بن يعرب بن قحطان، واخبرني ان مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة. واكثر استفادته على ما اخبرني على الفقيه القاضي ابي موسى عمران ابن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى، وليس له رحلة عن بلده الا الى الحج، حج في عام ثلاثة وسبعمائة.

« ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم احببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك، وطلب مخدومنا ان يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا فعقدنا مجلساً لذلك بالقصبة وفي مجلس الامر منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من اعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم، ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الانام، الذي هو الاصل لجميع الاحكام، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شهر شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه، وتدقيق للبحث في الفاظه الكريمة ومعانيه، وقد كنت ابتدأت تقييد ما انتجته فيه بيننا المناظرة، وافادته المحاضرة، مما جاء كالاكمال، لكتاب « الاكمال » ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة اخرى من كتاب المسند الصحيح للامام الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله، وامتد في

قراءتهما مدى، قرىء فيه منهما ما هو نور وهدى، الى ان دعا بنا داعي البين فاعجلت النقلة عن تمام الكتابين.»[1]

هذا هو التجاني الرحالة العالم الأديب، وهذه نماذج من رحلته اقتبسناها عن طبعة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب التي نشرت بتونس سنة ١٩٥٨ باسم «رحلة التجاني».

---

١ - نفس المكان ٢٥٤ - ٢٥٦.

القِسمُ الثَالِث

تجَارة الخَليج العَرَبي

الفصل السادس عشر

طريق البخور وطريق الحرير

طريق البخور

كانت مصر وبين النهرين لهما علاقات تجارية قوية مع بلاد العرب الجنوبية، وخاصة مع اليمن، منذ أزمنة متغلغلة في القدم. واليمن كانت نقطة الاتصال بين الهند ومصر مثلاً منذ حول القرن الخامس عشر ق. م. أن لم يكن قبل ذلك. والذي كان يجذب التجار المصريين وغيرهم الى اليمن نفسها هو البخور. ذلك ان البخور كان يستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم، فكان وجوده ضروريا. وحضرموت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم، التي كانت تنتجه. فكان لزاماً على الناس ان يحصلوا عليه منها وكانت اليمن مركز هذه التجارة. ومنها تنتقل اما بطريق البحر الأحمر او بطريق الحجاز ومن ثم توزع في اقطار العالم القديم - مصر والعراق وسورية وآسية الصغرى والعالم اليوناني وايطالية وغيرها.

كانت ظفار (في حضرموت) المكان الذي تجمع فيه غلات البخور وتنقل عن طريق وادي حضرموت الى اليمن، واليمن هي التي توزعه. وعلى طريق البخور هذه قامت دول اليمن الكبيرة، واحدة بعد الاخرى - معين وسبأ وحمير، وعلى هذه الطريق ظهرت المدن الكبرى في الجنوب العربي لبلاد العرب.

ولنتمكن من تصور الثراء الذي جلبته تجارة البخور للعرب، يجب ان نعرف بعض الكميات التي كانت تنقل على هذه الطريق وتستهلك في معابد العالم القديم. فقد كان في هيكل القدس غرف مقدسة مخصصة لخزن البخور.

---

١ - راجع للمؤلف، «العالم القديم»، يافا، ١٩٤٦، ج ٢، ص ١٩٣ وما بعدها.

ونعرف ان أمون ارسل اليه في سنة واحدة في القرن الثاني عشر ق. م. ما زنته ٢،١٥٩ جرة و٣٠٤،٠٩٣ مكيال من البخور. وقد احرق كهنة بعل في بابل عشرة آلاف وزنة من البخور في السنة الواحدة. ولما نظم دارا الكبير امبراطوريته وعلاقاته مع التجار العرب كانت حصته في العام الواحد الف وزنة من البخور. وقد ارسل الاسكندر الكبير خمسمئة وزنة منه من غزة لما احتلها الى معلمه هدية! هذا واذا اضفنا الى ذلك الجنازات وما كان يحرق فيها من هذا البخور العربي ادركنا مصدر هذه الثروة الكبيرة التي تمتعت اليمن بها.

على ان اليمن كانت، فضلاً عن انها مركز للاتجار بالبخور، مركز التجارة الهندية مع البحر الأبيض المتوسط، وقد تقلبت هذه العلاقات التجارية تبعاً للدول التي كان من واجبها ان تشرف على البحر الأحمر وما اليه. فنحن نرى مثلاً انه لما استقر البطالمة في مصر ونظموا شؤونها وانشأوا لهم اسطولاً في البحر الأحمر، نشطت التجارة كثيراً، وامتدت المنشآت التجارية المصرية الى الشاطىء الافريقي الصومالي والى جزيرة سومطرى، ومن هناك كان يحمل الى مصر العاج والعبيد والصدف. وكم نقل الهلينيون من الفيلة التي كانت عدة جيوشهم في معاركهم! ولمثل هذه المتاجر وغيرها حفر البطالسة الترعة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، واصلحوا الطريق بين قفط (على النيل) وميناء برنيسي (على البحر الاحمر). لكن لما ضعف شأن البطالمة افلتت تجارة البحر الاحمر من ايديهم، واقتصر نقل المتاجر على طريق الحجاز البرية الى بطرا ومنها الى بقية الاسواق السورية وغيرها.

واخيراً احتل الرومان مصر، واعاد اغسطس السلم الى العالم الروماني، وحافظ خلفاؤه عليه. وادرك اغسطس قيمة البحر الاحمر في التجارة الرومانية الشرقية، فارسل حملة الى بلاد العرب، بقصد احتلال اليمن، لكن الحملة فشلت. ذلك ان اغسطس امر غالوس، القائد العام في مصر، بان يسير ومعه عشرة آلاف جندي، وطلب من الانباط ان يمدوه بالف جندي وان يرشدوه في سيره. وكذلك امر اغسطس هيرودس ملك القدس ان يساعد

غالوس في حملته واستعداده. وقد تولى الوزير النبطي « سيلوس » مهمة التموين والارشاد.

قامت الحملة من ارزينوي، وهي قرب السويس الحديثة، ونقل الجنود الى « لوكي كومي » على مقربة من ينبع، اي عبر البحر الاحمر تقريباً. ومن هنا بدأوا سفراً برياً طويلاً الى مأرب، والمسافة تقرب من الفين وخمسمئة كيلومتر، في بلاد لا يعرف عنها شيء. وقد بدأ الجيش السير من لوكي كومي في ربيع سنة ٢٤ ق. م فلقي صعوبات كبيرة لقلة الماء، واخيراً وصل الى نجران فحاصرها واحتلها ودمرها انتقاماً لنفسه مما اصابه في الطريق. ثم التقى الرومان جيشا عربيا الى الجنوب من نجران فانتصروا عليه. ويروي بعض من ارخ للحملة ان الرومان احتلوا مدينتين، لعلهما براقش والبيضاء الحديثتان. وترك غالوس هناك حاميته ثم سار الى مريما وحاصرها ستة ايام، لكن الرومان اضطروا اخيراً الى الانسحاب، فارتدوا على اعقابهم، ولم يبلغوا مأرب، ومريما تقع الى الجنوب الشرقي من مأرب. وهنا يبدو لنا ان نسأل انفسنا عن الخطة التي كان يتبعها غالوس لمهاجمة المدينة المقصودة. ولعلّ التفسير الوحيد لحركاته هو انه اراد ان يحيط باطراف اليمن قبل مهاجمة القلب. فكانت النتيجة الفشل بعد سفر دام ستة شهور.

والغريب ان غالوس عاد بنفس الطريق، ولعل السبب هو انه لم يكن لديه سفن تمكنه من العودة بحراً. وعند حدود المملكة النبطية نقل جنده عبر البحر الاحمر الى القصير ومنها الى قفط فالاسكندرية.

وقد اتهم سيلوس الوزير النبطي بانه غرر عمداً لتظل التجارة بايدي العرب، لذلك اعدم في رومة بعد الحملة بمدة.

على انه وان كان اغسطس فشل في امتلاك اليمن، فان النظام الذي اعيد الى مصر ادى الى انتعاش التجارة، حتى اننا نجد ان سترابو يتحدث فيا بعد عن ميوس هرموس، على البحر، فيذكر ان مئة وعشرين سفينة سافرت منها في سنة واحدة الى الهند.

واحتفظ العرب باحتكارهم لطريق التجارة الى اواسط القرن الاول للميلاد، لما اهتدى هبالوس الى سر الرياح الموسمية ومواعيد هبوبها، وعندئذ نفذ « الغربيون » الى مياه المحيط الهندي. لكن ذلك كان قليلاً. وظلت تجارة البخور، بأيدي العرب. واكتشاف سر الرياح الموسمية ادى الى تنظيم السفر مباشرة. ففي تموز كانت السفن تقلع من مصر، فتصل الى المحيط الهندي، والرياح الموسمية في اقوى هبوبها، فتحملها الى الهند فتصل في شهر أيلول، ويقضي التجار شهرين هناك لبيع البضائع وتجهيز السفن بالبضاعة الجديدة، ويبحرون في تشرين الثاني فتنقلهم الرياح الموسمية الشتوية الى عدن. وفي شهر شباط تكون المتاجر قد وصلت الى الاسكندرية.

وقد ترتب على هذا كله ان ازدادت كميات المتاجر المتبادلة بين الهند والعالم الروماني، بحيث اصبح الكتاب الرومان ينعون على قومهم افراطهم في الاستمتاع بهذه الكماليات الغربية. واستمرت الزيادة الى اوائل القرن الثالث للميلاد، اذ اضطربت شؤون الامبراطورية الداخلية فاختلت تجارتها تبعاً لذلك.

اما الموانىء التي كانت على البحر الأحمر، والتي كانت السفن تبحر منها وتعود اليها فهي ارزينوي (عند رأس خليج السويس) وميوس هرموس (في منتصف الشاطىء المصري)، وتبعد سبعة ايام عن قفط (على النيل)، والثالثة برنيسي وهي في طرف الولاية المصرية الجنوبي. هذه موانىء مصر. اما الانباط فقد كان لهم ايلة (العقبة) ولوكي كومي. ومن هنا كانت تنقل المتاجر الى بطرا. وقد كانت هذه الطريق تغص بالمسافرين، والقوافل التي تجتازها اقرب الى الجيوش، من حيث ضخامتها، منها الى التجار. والظاهر ان جماعة من الرومان كانوا يقيمون في بطرا. وبعد احتلال الرومان لدولة الانباط اقاموا في لوكي كومي موظفاً خاصاً يجمع الضرائب المدفوعة عن السفن التي تأتي الميناء.

هذه كلها موانىء الشمال، اما في الجنوب فقد كان على الشاطىء الافريقي

مدينة ادوليس حيث تحفظ منتوجات الحبشة واهمها العاج والجلود والاصداف والعبيد. وهنا كانت هذه تبادل بما تحمله السفن من قماش مصر وزجاجها وزيوت سورية وخمورها وسيوف وادوات اخرى كثيرة تأتي من جهات مختلفة. واما الشاطىء العربي ففيه مخا ولعلها كانت اكبر الموانىء اهمية في هذه المنطقة وهناك «أوكليس». اما خارج البحر الاحمر فقد كانت عدن اكبر الموانىء المعروفة حتى حضرموت.

اما جماع ما كان يتاجر به عن هذه الطريق، التي سميناها طريق البخور لاهمية هذه التجارة، فهو الزيوت والاقمشة واللآلىء والجواهر والارز والبهارات والعاج والخمور والطيوب والاصداف والفيلة. هناك كانت تتبادل السفن احمالها واثقالها.

وقد كان من الطبيعي ان يتصل العرب بالصين بحراً عن طريق البحر الاحمر والمحيط الهندي لكن هذا جاء في اخريات القرن الثاني. واهم ما كان ينقل من الصين الى العالم الروماني هو الحرير، لكن هذا كانت له طريق برية.

طريق الحرير: كانت التجارة البرية بين البحر المتوسط وشرقي آسية رائجة في العصر الهلينستي، ولكنها تأخرت قليلاً في القرن الاول ق. م. على ان استقرار امور الامبراطورية الرومانية في شرقي حوض البحر المتوسط اعاد الى التجارة سابق عزها. وقيام الدولة الفرثية والخصومة التي كانت بين ملوكها واباطرة رومة لم تمنع القوافل التجارية المحملة حريراً من الشرق ان تجتاز بلادها الواسعة لتبيع حمولتها في صور وبيروت، بحيث زادت كمية التجارة الشرقية الرومانية في القرنين الاول والثاني للميلاد زيادة كبيرة عن تجارة العصر الهلنستي.

ويرجع الفضل الى تجار فرثية في فتح طريق الحرير عبر تركستان واحتكار التجارة في هذا الصنف. وقد كان هؤلاء التجار قديرين دقيقين منظمين. وقد بنوا طرقا مكنتهم من نقل متاجرهم في مركبات بدل نقلها على ظهور الدواب!

والحرير كان المادة الصينية الرئيسية في الاتجار مع العالم الروماني، اذ كان تسعة اعشار ما يستورده من الصين. فقد كان الحرير الخام وخيوطه والقماش الحريري ينقله التجار ان موانىء سورية (بيروت وصيدا وصور وغزة) حيث يعالج هناك بالاصبغة المختلفة ليصبح صالحاً للاستعمال. أما السلع الاخرى التي كانت تأتي من الصين فتشمل الفراء والحديد ونباتات عقارية.

اما العالم الروماني فكان يبعث بمنتوجاته هو الآخر، الى الصين والى الهند. وطريق الحرير هذه كانت نهايتها الغربية مدن سورية والعراق. وفي العراق كانت لها ثلاثة مراكز سلوقية وكتسيفون (المدائن) وفولوغسياس في جنوب العراق. وطريق الحرير كانت تبدأ من سلوقية (على دجلة) او المدائن، وخاصة من هذه التي انشأها الملوك الفرثيون. والطريق كانت تمر، بعد المدائن، بجبال زغروس الى اكبتانا (همذان) ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر. ثم تجتاز الطريق بلاد سريس او سكاي وهم قبائل شبه بدوية، والبلاد هي التي تسمى اليوم تركستان. وهنا كانت(سوق الحرير). لكن الطريق كانت تتجه بعد ذلك مارة بحوض تاريم ثم تخترق جنوباً في شرق حتى تصل « هسيان - فو » وهي بلاد الحرير.

والحد الفاصل في هذه الطريق الطويلة، اي المكان الذي يلتقي فيه التاجر الصيني والتاجر الفرثي دون ان يحاول احدهما اجتيازه الى بلاد الآخر - هذا الحد الفاصل يقع عند مكان يسمى « برج الحجر » (وقد اتفق على انه طاشكرغان)، بين كاشغر وسمرقند. هناك كان التجار الصينيون ينتظرون الفرثيين، فيضعون ما معهم من حرير خام او غزولات او اقمشة على ضفة النهر ويأتي الآخرون يحملون الحجارة الكريمة والكهرمان والمرجان. ولم يتبادل التجار كلمة واحدة، ولكن يختار كل ما يريد ويضع مقابله قيمته ثم ينسحب، حاملاً بضاعته الجديدة.

ورغم المحافظة الشديدة واليقظة التي كانت تبذل للاحتفاظ بهذه الطريق سراً للجماعات المعنية بها - كل في جهته، فقد تمكن رجلان من اجتياز

الحدود المألوفة. اما الاول فصيني اسمه «كان ينغ» الذي انتدبه احد القواد الصينيين ليجمع له من المعلومات ما قد ييسر له افتتاح بلاد الفرثيين. فتمكن هذا من الحصول على معلومات دقيقة دونها في تقريره. فذكر مناطق البريد ومراكزه والمسافات والاجواء والمنتوجات والمعادن. ووصل سورية وقال عن اهلها انهم امينون في معاملتهم. ونقل ما وصل اليه عن السفر البحري الى الهند، بطريق البحر الاحمر. وقد قام بسياحته في اواخر القرن الاول للميلاد.

واما الثاني فهو «ميس تتيانوس» وهو تاجر ثري سوري، وقد اراد ان يتعرف الى طريق الحرير هذه، فارسل، حول سنة ١٠٠ م، بعثة من الرجال المدربين للتعرف الى الطريق من «برج الحجر» في البامير الى «هسيان - فو» في الصين. فقامت البعثة بذلك وقطعت المسافة في سبعة اشهر، ورسمت لها خريطة وتركت وصفاً مسهباً.

لكن طريق الحرير ظلت وقفاً على التجار الذين تملك دولتهم ايران. لذلك حافظ عليها الساسانيون بعد الفرثيين، وكانت محاولة الاستيلاء عليها سبب خصومة عنيفة بين البيزنطيين، خلفاء الرومان، والساسانيين، خلفاء الفرثيين.

على ان بعض الحرير الصيني كان ينقل الى الهند ومن هناك يحمل الى العالم الروماني بطريق البحر الأحمر او الخليج الفارسي.

هاتان هما الطريقان الرئيسيتان بين البحر المتوسط والشرق. اما الطريق الشمالية من آسية الصغرى الى بحر قزوين فالصين فقد كانت قليلة الاستعمال.[1]

١ - راجع للمؤلف العالم القديم الجزء الثاني (يافا ١٩٤٦) ص ١٩٣ وما بعدها.

الفصل السابع عشر

الخليج العربي وتجارته

للخليج العربي تاريخ في التجارة طويل، ولسنا نقصد ان نؤرخ له في هذا الفصل، وجل ما نرمي اليه هو ان نتحدث عنه في فترة من تاريخه ازدهرت تجارته فيها ازدهارا كبيراً في العصور العربية الأولى .

يبدو من اشارات مقتضبة وردت هنا وهناك ان السفن الفارسية كانت، في القرن الرابع للميلاد، تنتقل من ميناء الابلّة الى الموانئ الصينية وان بعض سفن الصين كانت تصل موانئ الخليج. وقد ورد في الطبري عن الابلة أنها كانت قديماً « فرج الهند »[1]. ومن الطريف ورود اشارة الى القراصنة الهنود في الخليج نفسه وفي خليج عمان في تلك الازمنة. ومن الواضح ان اهل البحرين وعمان كانت لهم سفن تمخر عباب البحار والمجاورة في ايام الرسول والخلفاء الراشدين.

على ان الازدهار الذي عرفه الخليج العربي في القرنين التاسع والعاشر للميلاد مدعاة للفخر والزهو. ولذلك اسباب كثيرة منها ان الدولة العباسية، التي قامت في اواسط القرن الثامن، كانت بطبيعة الحال تتجه شرقاً اكثر من اتجاه الدولة الأموية التي كانت تتطلع نحو البحر الأبيض المتوسط. ومنها، على ما قاله الدكتور جورج حوراني، في كتابه عن الأسفار البحرية العربية في

---

١ - الطبري، ابو جعفر محمد، « تاريخ الرسل والملوك »، ليدن، بريل ١٨٧٩، ج ٤.

المحيط الهندي[١]، من ان استتباب الامن في الدولة الاسلامية من جهة ووجود دولة قوية في الصين، هي اسرة تانغ، واخرى في الاقطار الجنوبية المحاذية لها - كل هذا في القرون السابع والثامن والتاسع - قد ادى الى انتعاش في التبادل التجاري بين منطقتين كانت كل منهما بحاجة الى منتوجات الاخرى الطبيعية والصناعية.

ومن حسن الحظ ان المصادر التي بين ايدينا عن القرنين التاسع والعاشر كثيرة، بحيث يمكن رسم صورة تكاد تكون صحيحة لما كانت عليه الحال في الخليج العربي في تلك الفترة. فقد خلف لنا الجغرافيون العرب مكتبة قيمة وضعت بين سنتي ٨٥٠ و ٩٨٥ للميلاد، وكان من الاسماء اللامعة فيها، على الترتيب الزمني، ابن خرداذبه واليعقوبي وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي والمقدسي. يضاف الى هؤلاء رحالون هم في الاصل تجار او قباطنة سفن خلفوا اخبارهم في مدونات هامة بين سنتي ٨٥٠ و ٩٥٠، منهم السيرافي وبزرغ.

والذي يمكن ان يؤخذ من دراسات الذين عنوا بتقصي اخبار اولئك وهؤلاء ان الخليج كان مسرحاً لتجارة رابحة وحركة نشيطة[٢] وان المواني‌ء على شواطئه كانت تنعم بالكثير من الخيرات. وها نحن اولاء نعرض على القراء بعض هذا الذي وصل اليه الباحثون، مستفيدين من دراستهم، مع الرجوع الى المصادر الاصلية ناقلين عنها ما قد يلذ ويفيد.

اما المواني‌ء الرئيسية على الخليج وما يجاوره من خليج عمان فكانت سيراف وعمان والبصرة. والظاهر ان سيراف كانت في الفترة التي نتحدث عنها الميناء الذي تمر به متاجر فارس - صادراتها ووارداتها. « فهي الفرضة

---

١ -Hourani,George, Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times,(Princeton University Press 1951,)p. 61.

٢ -Cathay and the Way Thither, Haklyut Society,(2nd series, vol. 38, 1915) pp. 89 - 93

العظيمة لفارس، وهى مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية شيء... وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع، وهي اغنى بلاد فارس[1]....فاما اهل سيراف والسواحل فانهم يسيرون في البحر حتى ربما غاب أحدهم عامة عمره في البحر ولقد بلغني ان رجلا من سيراف الف البحر حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة نحو من اربعين سنة وكان اذا قارب البر اخرج صاحبه بقضاء حوائجه في كل مدينة يتجول من سفينته الى اخرى اذا انكسرت وتشعثت فاحتيج الى اصلاحها، وقد اعطوا من ذلك حظا جزيلا حتى ان احدهم يبلغ ملكه اربعة آلاف ألف دينار وفي عصرنا قد بلغني ما هو اكثر من ذلك فتراه في لباسه لا يتميز من اجيره.»[2]

والقول بان سيراف هي بلدة غنية يشهد عليه، بالاضافة الى ما ذكر، ان ابنيتها ذات الطبقات العديدة كانت من خشب الساج الثمين. ويقول المقدسي انها كانت « دهليز الصين ... وعلى الجملة ما رأيت في الاسلام اعجب من دورها ولا احسن. وقد بنيت من خشب الساج والآجر، شاهقة تشتري الدار الواحدة بفوق المئة الف درهم. »[3]

والبصرة تقع على شط العرب، وتبعد عن البحر بعض الشيء. وعندما نذكر البصرة يجب ان نذكر معها الابلة وعبادان. فهذه الأماكن الثلاثة كانت تعين سير السفن في رأس الخليج. « فالابلة على دجلة ...عامرة كبيرة أرفق من البصرة وأرحب. »[4] وثمة بحر رقيق ويسمى هذا الموضع بالجرارة « وهي دخلة من البحر في البر بقرب من بلاد الابلة... ولهذه الجرارة اتخذت الخشبات في البحر مما يلي الابلة وعبادان، عليها اناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكراسي في جوف البحر خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف

---

١ - الاصطخري، ص ٣٤.
٢ - نفس المكان، ص ١٣٨ - ١٣٩.
٣ - المقدسي، ص ٤٢٦.
٤ - المقدسي، ص ١١٨.

وغيرها فتعطب فلا يكون لها خلاص. »[1] وقد تحدث الاصطخري عن هذه الجهة وعن الخشبات فقال« ويرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المد. وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى دجلة. »[2] والمكان الثالث عبادان، وهذه المدينة تقوم على جزيرة صغيرة وهي ذات حصن صغير وكان فيها « رباطات وعباد صالحون، واكثر اهلها يصنعون الحصر من الحلفاء. »[3] والماء بها ضيق والبحر عليها مطبق. والظاهر ان عبادان كانت في وقت من الاوقات مقراً للقرصان او متلصصة البحر[4]، كما سماهم العرب القدامى، ثم اصبحت مقراً لحامية تدفع أذاهم عن المسافرين.

وكانت عمان احد المراكز الرئيسية التي تمر بها التجارة بين شرق افريقية والصين والخليج الى العراق وغيرها. وعمان، على ما رواه ابن حوقل « ناحية ذات اقاليم مستقلة باهلها، فسحة كثيرة النخل والفواكه من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك. وقصبتها صحار وهي على البحر ، وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة، وهي اعمر مدينة بعمان واكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الاسلام مدينة اكثر عمارة ومالا من صحار. »[5] وجاءالمقدسي في اواخر القرن العاشر للميلاد يتم الصورة فقال « وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات... اسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر. دورهم من الآجر والساج، شاهقة نفيسة.... دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن. »[6]

---

١ – المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.
٢ – الاصطخري، ص ٣٢، راجع ايضاً المسعودي، ج ١، ص٢٣١٠.
٣ – المقدسي، ص ١١٨.
٤ – ابن حوقل، ص ٤٨.
٥ – نفس المكان، ص ٣٨.
٦ – المقدسي، ص ٩٢.

وهكذا فقد كانت الرحلة الى بحار الصين أو الى شرق افريقية تبدأ من الابلة، في منطقة البصرة، وتجتاز عبادان، بارشاد الخشبات والناظور وما الى ذلك، مستفيدة من المد واوقاته. وفي سيراف كانت تجتمع السفن أيضاً. وقد تحمل المتاجر في صغار السفن من البصرة الى سيراف، حيث توضع في السفن الكبار، فاذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها ان تتجنب متلصصة البحرين وقطر وسقطرى وحتى الهند. ولذلك فان السفن كانت، في اغلب الحالات، تحمل النفاطين والمقاتلين. ويبدو ان اهل البصرة قاموا بحملة على القرصان في البحرين (٩١٢ م) لكنهم اخفقوا.

وللسفن ان تختار، في سيرها نحو بحار الصين، واحداً من طريقين. فهي اما ان تعرج على صحار ومسقط، حيث تحمل البضائع وتتزود بالماء والمؤن، ثم تقصد كولام (كويلون) في مالابار. اما الطريق الآخر فكان السير فيه محاذيا لشواطئ فارس ثم شواطئ السند .

اما السير نحو شرق افريقية فكان اقصى ما تصل اليه مراكب المسلمين، من اهل البصرة وعمان وسيراف، هو مدغشقر. وكانت عدن المركز التجارى الكبير بين بلاد العرب وشرق افريقية.

وكانت الملاحة متيسرة في الخليج العربي، وهو بحر فارس عند جغرافيي العرب، في كل اوقات السنة، اما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه.

اما ما كان ينقل من المتاجر على هذه السفن في هذه الرحلات الطويلة التي كانت تقتضي من الوقت سنة او ما الى ذلك، فانه يشمل الاقمشة الحريرية والكافور والمسك والافاوية والعاج والحديد وقضبان النحاس.

هذه فترة كانت فيها التجارة ناجحة منتشرة، وكانت فيه السفن تتجه شرقا وغرباً، وقد كانت سفن الصين تصل موانيء الخليج[١]. لكن اضطراب

---

١ - Cathay, pp. 83 - 88.-

امر الصين فيا بعد اوقف سيرها على ما يظهر. وهذا المسعودي يقول « بلاد كلة وهي النصف من طريق الصين او نحو ذلك واليها تنتهي مراكب اهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من ورد من ارض الصين في مراكبهم، وقد كان في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع المذكورة الى هناك، فلما عدم العدل وفسدت النيات وكان من امر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعاً في هذا النصف، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلّة في مراكب الصينيين الى مدينة خانفو. »[1]

. ويظهر ان المسعودي الذي ركب الكثير من البحار كبحر الصين والروم والخزر واليمن، والذي اصابته فيها من الاهوال ما لا يحصيه كثرة لم يشاهد أهول من بحر الزنج، وهو البحر الذي يركبه المسافرون من عمان وغيرها الى شرق افريقية.

وقد قال المسعودي في وصفه « وارباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج... والعمانيون... من ارباب المراكب يزعمون ان هذا الخليج المعروف بالبربري... وموجه عظيم كالجبال الشواهق وانه موج اعمى يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كاخفض ما يكون من الاودية، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد ككسر امواج سائر البحار، ويزعمون انه موج مجنون وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من اهل عمان عرب من الازد. »[2]

١ - المسعودي، ج ١، ص ٣٠٨.

٢ - نفس المكان، ج ١، ص ٢٣١ - ٢٣٢

الفصل الثامن عشر

رحالو العصور الوسطى

ما اكثر ما شغل الخليج العربي الجغرافيين والرحالين والتجار، وقد وصلت الينا أخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة تدويناً صحيحاً صادقاً دقيقاً. وكم كنا نود ان نتحدث عن جميع هؤلاء ، وعن كل ما خلفوه. ولكن نحن مضطرون الى الاجتزاء بالقليل من ذلك كله. والذي نأمله هو ان يكون في هذا الذي ننقله ونتحدث عنه فائدة ومتعة.

وسنكتفي الان بالحديث عن بعض الرحالين الذين مروا بالخليج في العصور الوسطى وهم ناصري خسرو والمروزي وابن البلخي وبنيامين وياقوت وابن بطوطة. وقد امتدت الفترة التي زار فيها هؤلاء الرحالون الخليج والبلاد المحيطة به نحو ثلاثة قرون من ناصري خسرو في اواسط القرن الحادي عشر الى ابن بطوطة في اواسط القرن الرابع عشر للميلاد. وبعض هذه الصور التي خلفها لنا هؤلاء تنبض بالحياة، خاصة وان الرحالة انفسهم يمثلون اتجاهات ونزعات مختلفة. فناصري خسرو داعية والمروزي تغلب عليه النزعة الجغرافية والنظرة الاقتصادية من حيث الدور الذي كانت تقوم به دول جنوب شرق آسية وابن البلخي وضع رسالة وصف فيها الجزء الجنوبي الغربي من ايران اسمها « فرس نامه » وقد اتمها في اوائل القرن الثاني عشر وبنيامين رحالة تاجر. اما ياقوت فهو رحالة معجمي، وهو الذي وضع لنا هذا التراث الضخم المسمى معجم البلدان. وعندما نصل الى ابن بطوطة نجد العقل النشيط والقلم البليغ والوصف الانيق. وان كنا نأسف لشيء فاننا نأسف لان ابن جبير لم

يزر تلك المناطق. ولذلك فلا مكان له في هذا الحديث.

قضى ناصري خسرو (اواسط القرن الحادي عشر) تسعة اشهر في الاحساء، واتصل بالحياة فيها اتصالاً وثيقاً على ما يؤكد، ولذلك يمكن القول بان الصورة التي تركها لنا صورة ذات قيمة. فهو يقول« ولحسا مدينة في الصحراء، ولبلوغها، عن اي طريق، ينبغي اجتياز صحراء واسعة. والبصرة أقرب البلاد الاسلامية التي بها سلطنة الى لحسا. وبينهما خمسون ومائة فرسخ. ولم يقصد سلطان من البصرة لحسا ابداً.

« ولحسا مدينة وسواد ايضا وبها قلعة، ويحيط اربعة اسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ. وفي المدينة عيون ماء عظيمة، تكفي كل منها لادارة خمس سواق، ويستهلك كل هذا الماء بها، فلا يخرج منها. ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة. وفيها اكثر من عشرين الف محارب... »[1]

« وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون الف عبد زنجي وحبشي، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين وهم لا يأخذون عشورا من الرعية، واذا افتقر انسان او استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله، واذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه باكثر من رأس المال الذي له. وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات ويرد (الى الحكام) ما اخذ حين يشاء. واذا تخرب بيت او طاحون احد الملاك، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح، أمروا جماعة من عبيدهم بان يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل او الطاحون. ولا يطلبون من الملك شيئا. وفي لحسا مطاحن مملوكة للسلطان، تطحن الحبوب للرعية مجاناً، ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها واجور الطحانين. »[1]

---

١ - ناصر خسرو « سفر نامه » ص ٩٢.

٢ - نفس المكان ص ٩٣.

...« وينسجون هناك فوطا جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها....»[1]

« وفي لحسا تباع لحوم الحيوانات كلها، من... بقر وخراف وغيرها، وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري....

« والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من لحسا الى ناحية الشرق، فاذا اجتازه المسافر وجد البحرين، وهي جزيرة طولها خمسة عشر فرسخاً، والبحرين مدينة كبيرة أيضا، بها نخل كثير. ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ، ولسلاطين لحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه. واذا سافر المسافر جنوب لحسا يبلغ عمان، وهي في بلاد العرب. وثلاثة جوانب منها صحراء لا يمكن اجتيازها...»

« وفي لحسا تمر كثير حتى انهم يسمنون به المواشي، ويأتي وقت يباع فيه اكثر من الف مَنّ بدينار واحد. وحين يسير المسافر من لحسا الى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف وهي مدينة كبيرة بها نخل كثير. وقد ذهب امير عربي الى ابواب لحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من اسوارها الاربعة وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من اهلها شيئا...»[2]

وانتقل من الاحساء الى الشواطىء الشمالية والشمالية الشرقية من الخليج فذكر اموراً لطيفة منها العناية الكبيرة التي كانت تبذل لارشاد الملاحين ليتجنبوا الارتطام بقاع الماء الضحل هناك. فيقول « يتكون [المنار] من اربعة اعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق. وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة، ويرتفع عن سطح البحر اربعين ذراعا، وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها شقف ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس. ويقول البعض ان الذي بنى الخشاب هذا تاجر كبير، ويقول آخرون بل بناه احد الملوك. وكان الغرض منه شيئين: احدهما انه بني في جهة ضحلة يضيق البحر عندها، فاذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالارض. ففي الليل

---

١ - نفس المكان ص ٩٣.
٢ - نفس المكان ص ٩٤.

يشعلون سراجا في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون، والثاني ليعرف الملاحون الاتجاه، وليروا القرصان ان وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة. ولما اجتزنا الخشاب، بحيث اصبح لا يرى، رأينا آخر مثله، ولكن ليس على سطحه قبة لانهم لم يستطيعوا اكماله.»

ثم يحدثنا عن مدينة مهروبان التي كانت في ذلك الوقت مركزاً تجاريا ذا قيمة، «ومن هناك بلغنا مدينة مهروبان، وهي مدينة كبيرة على شاطىء البحر الشرقي، بها سوق كبير وجامع جميل، ولكن ماءها من المطر، وليس بها آبار او قنوات من الماء العذب، وقد اتخذ اهلها احواضا ومصانع ليكون الماء متوفراً دائما. وقد بني بها ثلاثة اربطة، كل منها كأنه حصن محكم ومرتفع.... ومأكولات هذه المدينة تحمل اليها من المدن والولايات الاخرى، اذ ليس بها شيء سوى السمك. وفيها تحصل المكوس، فهي ميناء.»[1]

والمروزي من اهل القرن الثاني عشر وقد خلف لنا معلومات قيمة عن الصين والاتراك وغيرهم من شعوب المشرق. والفقرة التي تحدث فيها عن الخليج هي التي تشير الى العلاقات التجارية بين خانفو (كنتون الحالية) في الصين ومدن الخليج قال: «فاما الطريق من الصين من جانب البحر فاول مرفأ من البحر اليه بلد يقال له لوقير ثم مدينة خانفو وهي اعظم من لوقير وهو مرفأ أعظم وبها نهر الماء عذب كبير يخترق البلد وعليه جسور وعلى احد جانبيه اسواق التجار الغرباء وعلى جانبه الآخر اسواق اهل المدينة واكثر من يقصدهم من التجار الفرس والعرب. والفرس يركبون المراكب اليهم من سيراف والعرب من البصرة وفي هذه المدينة صاحب عشر الملك يجمع امتعة التجار ويأخذ منهم العشر. ولاهل هذه المدينة وفاء وامانة وصدق لهجة. وهناك تتخذ العضائر الصينية والكواغذ الحسنة التي يكون احد وجهيها

---

١ - نفس المكان ص ١٠٠ - ١٠١.

ابيض والوجه الآخر اصفر والحرير الصيني الجيد ولباس اهلها الخفاتين. ومن رسمهم ان كل واحد من اهل السوقين يخالط الآخر نهاراً ويتبايعون ويتعاملون فاذا غربت الشمس قرع الطبل في الجانبين فينصرف كل فريق الى مواضعهم فمن وجد بعد ذلك من الفريقين في سوق غيره ادّب وغرّم. »[1]

والذي يمكن ان نحصل عليه من اخبار بنيامين ابن البلخي (القرن الثاني عشر) وياقوت (القرن الثالث عشر) انه كان ثمة تبدل في المركز التجاري الرئيسي في شمال شرق الخليج. ذلك ان سيراف فقدت شيئا كثيراً مما كانت عليه، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة قيس. فبنيامين يصف الجزيرة بقوله:

« ارض هذه الجزيرة شحيحة الماء، ليس فيها غير عين واحدة. وأغلب شرب أهلها من ماء المطر. وهي مركز تجاري مهم، يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والماش والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر أنواع الحبوب والبقول ويأتيها تجار الهند بالعطور والتوابل. وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار... وعلى مسيرة عشرة أيام منها بطريق البحر القطيف. »[2]

وهذا التبدل يبدو جلياً في ما كتبه ابن البلخي. فقد اتم رسالته المسماة « فرس نامه » في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي ووصف فيها ولاية فرس، وهي الجزء الجنوبي الغربي من ايران. فلما وصل الى سيراف قال عنها ما خلاصته: كانت سيراف من قبل مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان كثيرة المتاجر، من الاخشاب والطيوب والافاويه والكافور والحرير. ولكن لما هاجمها حكام جزيرة قيس ووضعوها تحت سلطانهم، فقدت، اهميتها وخلفتها الجزيرة اي

---

١ - المروزي، شرف الزمان طاهر، « ابواب الصين والترك والهند »، لندن، الجمعية الملكية الأسيوية ١٩٤٢ ص ١٠.

٢ - التطيلي، بنيامين، « رحلة بنيامين » (ترجمة عزرا حداد) بغداد، المطبعة الشرقية ١٩٤٥ ص ١٦٤.

قيس اذ اصبحت الميناء الرئيسي في تلك المنطقة. ولذلك فلا تجد اليوم من يقصد سيراف سواء لاصلاح سفينة او للافادة من مينائها، ولا يأتيها أحد من تجار كرمان أو مهروبان أو دورق أو البصرة وليس في اسواقها من البضائع الا مصنوعات جلدية وخزف مما يحتاجه أهل شواطىء « فرس » فقط.(١)

واخبار ياقوت اوضح في الدلالة على هذا التبدل. وها نحن اولا ننقل الى القارىء الكريم ما قاله صاحب « معجم البلدان »: عن سيراف وقيس، ومنه يبدو امر التغيير صريحا. فهو يقول عن سيراف: «وهي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديما فرضة الهند،...وقد رأيتها ، وبها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج، وهي في لحف جبل عال جدا، وليس للمراكب فيها ميناء، فالمراكب اذا قدمت اليها كانت على خطر الى ان تقرب منها الى نحو من فرسخين موضع يسمى نابد هو خليج ضارب بين جبلين، وهو ميناء جيد غاية، واذا حصلت المراكب فيه أمنت من جميع انواع الرياح، وبين سيراف والبصرة اذا طاب الهواء سبعة ايام...فمنذ عمّر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند واليها منقلب التجار، خربت سيراف وغيرها، ولقد رأيتها وليس بها قوم الا صعاليك ما أوجب لهم المقام بها الا حب الوطن.»(٢)
اما قيس « فجزيرة وهي كيش في بحر عمان، دورها اربعة فراسخ، وهي مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين، وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر، ويزعمون ان بينهما اربعة فراسخ، رأيتها مرارا، وشربهم من آبار فيها، ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر، وفيها اسواق وخيرات، ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه، وهو

---

١ – البلخي Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the Fourtienth Century, Translated by G. Le Strange,(London, Royal Asiatic Society, 1912)pp. 41 – 43.

٢ ياقوت، ج ٣ ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

فارسي، شكله ولبسه مثل الدّيلم وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة، وفيها مغاص على اللؤلؤ وفي جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش، ورأيت فيها جماعة من اهل الأدب والفقهَ والفضل، وكان بها رجل صنّف كتاباً جليلا فيما اتفق لفظه وافترق معناه ضخم رأيته بخطه في مجلدين ضخمين ولا اعرف اسمه الآن.»[1]

ومع ان القرن الثالـــث عشر رأى قيس مزدهرة، فان القرن الرابع عشر رأى انحطاط الجزيرة وانتقال التجارة منها الى هرمز على ما يحدثنا ابن بطوطة، وهو الذي عرف المناطق المحيطة بالخليج ودون اخبارها في اواسط القرن الرابع عشر. فنراه يقول عن هرمز « وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان،. وبهذه المدينة سكنى السلطان، والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم واكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني، ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان..»[2]

على ان ابن بطوطة عرف اجزاء اخرى من الخليج وشطآنه ، وتنقل في انحائها كثيراً، وقطعه غير مرة، والواقع ان في بعض ما تركه لنا صوراً حية حرية بان تقرأ كلها. لكن المجال لا يتسع الا للقليل القليل منها. ولنكتف بوصفه لظفار الحموض والبحرين ولمغاص اللؤلؤ.

« مدينة ظفار الحموض – وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح، في شهر كامل. قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء ، وبينها وبين

---

١ – نفس المكان ج ٤ ص ٤٢٢.

٢ – ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٣٠ – ٢٣١.

حضر موت ستة عشر يوما. وبينها وبين عمان عشرون يوما. ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لاقرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهي من أقذر الاسواق وأشدها نتناً، وأكثرها ذبابا، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب ان دوابها انما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم، ولم أرَ ذلك في سواها. وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد. وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها في صهريج يسقون منه. والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو اكثر طعامهم.

«ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها. وهم اهل تجارة لا عيش لهم الا منها. ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في (صنبوق) الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب... وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب... وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء. ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً.»[1]

«مدينة البحرين - وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين وأشجار وأنهار، وماؤها قريب المؤنة، يحفر عليه بالأيدي فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج، ويزرع بها القطن. وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها. وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر.»[2]

---

١ - نفس المكان ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٩.
٢ - نفس المكان ج ٢ ص ٢٤٦.

« مغاص الجوهر - ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، في خور راكد مثل الوادي العظيم. فاذا كان شهر ابريل وشهر مايو تأتي اليه القوارب الكثيرة، فيها الغوّاصون وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم ايضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه، ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه. فاذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه الى القارب، فتؤخذ منه المخلاة. ويفتح الصدف، فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسه، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، واكثرهم له الدين على الغواصين، فيأخذ الجوهر في دينه او ما وجب له منه.»[٣]

---

٣ - نفس المكان ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٦.

الفصل التاسع عشر

الخليج العربي والرحالون الأوربيون

في اواخر العصور الوسطى أخذت المجتمع الاوروبي يقظة ونهضة ، تمثلت في غير ناحية واحدة من نواحي الحياة. ولعل أكثرها روعة وأكبرها مظهراً كانت العناية باكتشاف بلاد وطرق جديدة؛ بقطع النظر عن البواعث والدوافع. والرحالة ماركو بولو في طليعة الاوروبيين الذين زاروا الشرق وعاشوا في اجزائه: ورحلاته ولا شك فيها فائدة ومتعة وطرافة. وماركو بولو زار هرمز في اواخر القرن الثالث عشر، ولعله اول اوروبي وصلت الينا اخباره عنها مدونة. ويقول ماركو بولو عن هذه المدينة: « يأتيها التجار من الهند وسفنهم محملة بالافاويه والحجارة الثمينة واللؤلؤ والاقمشة الحريرية والمذهبة والعاج وغير ذلك من المتاجر. هذه كلها يبتاعها تجار هرمز، الذين يحملونها بدورهم الى اسواق الدنيا. انها في الواقع مدينة عظيمة المتجر، وثمة كثير من المدن والقرى التي تخضع لها، وهي العاصمة... المدينة حارة جدا.»[١]

« ويصنع البعض هنا خمرا من التمر ويضيفون اليه بعض البهارات... يغلب على طعام الناس هنا التمر والسمك والبصل... يزرع القوم هنا القمح والشعير في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ويحصدون الغلال في شهر آذار (مارس)... وليس في هذه الجهات عشب أو حشائش الا القليل بسبب الجفاف.»[٢]

---

١ – Marco polo, Voyage and Travels, (London, Cassell, 1886,) p. 47

٢ – نفس المكان، ص ٤٩.

والراجح ان هرمز التي يتحدث عنها ماركو بولو هي هرمز الجديدة القائمة في جزيرة جيرون، اما هرمز القديمة فكانت على الشاطىء. فلما انتقل القوم الى الجزيرة اطلقوا عليها اسم بلدهم الاولى، فصارت هي الاخرى هرمز. وهذا الانتقال تم قبل مجيء ماركو بولو بمدة قصيرة. والذي نعرفه هو ان حكام هرمز هذه وسعوا سلطانهم بحيث شمل جزيرة قيس (المنافسة القديمة لهم) وما جاورهم من الشاطىء الفارسي، ثم البحرين وعمان ومسقط. والبحرين كانت في غالب الاحيان يقصد بها الجزر والشاطىء المجاور لها في شرق الجزيرة العربية.

وقد استمرت هرمز مركزاً تجارياً هاماً اولاً وهي مستقلة ومسيطرة على هذه المنطقة الواسعة ، وثانيا حتى بعد الاحتلال البرتغالي. ذلك ان البرتغاليين، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، جاءوا المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر فاتحين لانشاء امبراطورية طويلة عريضة، وتم لهم احتلال المناطق المصاقبة لخليج عمان وبعض الخليج العربي وخاصة هرمز في اوائل القرن السادس عشر. وظل هؤلاء البرتغاليون اصحاب الامر والنهي حتى بدأت محاولة الاتراك لاخراجهم في اواسط القرن نفسه، ثم جاء البريطانيون يزاحمونهم في مطلع القرن التالي.

وبسبب هذا الوجود الاوروبي في الخليج كثر المترددون عليه، وخاصة من البرتغاليين ومن جاورهم. وبين ايدينا الكثير الكثير مما كتبه هؤلاء عن اجزاء الخليج وبعض المعارك التي دارت فيه. وها نحن اولا ننقل للقراء الكرام طرفاً مما اتصل بنا.

في اواسط القرن الرابع عشر زار الاب رينال هرمز، الذي وصف البلد وصفا فيه بعض المبالغة. قال: «أصبحت هرمز عاصمة امبراطورية تشمل جزءا كبيرا من بلاد العرب وجزءا آخر من فارس. والمنظر الذي يجده الواحد عند وصول التجار الاجانب الى هرمز اجل ما يمكن ان تقع عليه العين في أي مدينة في الشرق. فالتجار من جميع انحاء العالم يتبادلون سلعهم ويرتبون اشغالهم بمنتهى الادب واللياقة... كانت الشوارع مغطاة بالحصر وفي بعض

الحالات بالبسط، كما ان الاغطية الكتانية المعلقة من السطوح، كانت تقي الناس حر الشمس الشديد. والبيوت تزينها خزائن ومزهريات من الهند والصين، فيها زهور ونباتات عطرية. وفي الساحات العامة كانت الجمال المحملة بماء الشرب (جاهزة لمن يحتاج). وكانت خمور فارس وطيوبها وما يشتهى من المأكل والمشرب موجودة بكثرة.»[1]

والقرن الخامس عشر لم يشهد عناية كثيرة بالمنطقة التي نعني بها الساعة. ولعلّ انصراف الكثيرين من الاوروبيين للبحث عن طريق حول افريقية، عطل، بعض الوقت، الاتجاه المباشر نحو الشرق. حتى اذا اهلّ القرن السادس عشر عاد هؤلاء الرحالون، بكل ما في عملهم من تنوع واختلاف بواعث، الى الظهور بكثرة على المسارح الشرقية. ومن اول هؤلاء لودفيكو دي فارتما، وهو ايطالي، يمثل روح المغامرة والمجازفة في النهضة الاوروبية، كما يمثل الرغبة في التعرف على كل شيء واختبار كل شيء، كما يقول هو عن نفسه، فهو ايطالي من بولونيا هبط الاسكندرية سنة ١٥٠٣ واتجه بعدها نحو القاهرة. لكن المدينتين كانتا معروفتين لكثرة ما كتب عنهما. فلم تطب لفارتما الاقامة في مصر لانه كان يريد ان يتعرف الى شيء جديد. فرحل عن مصر الى بيروت حيث قضى بضعة ايام. ومع انه اعجب بثراء بيروت فانه غادرها الى طرابلس فحلب فحماه فدمشق. ويحدثنا عن مركز حلب التجاري وقيمتها كنقطة تتبادل فيها القوافل الفارسية والتركية والسورية متاجرها. كما يلفت نظره قطن حماه. ويقيم في دمشق بضعة شهور محاولا ان يتعلم اللغة العربية املا ان يحقق حلمه في ان يسوح في بلاد العرب. وتواتيه الفرصة. فان قافلة الحجاج كانت على وشك الرحيل من دمشق، وقد صادق كبير المماليك الذين سيرافقون القافلة. فينضم فارتما اليهم على انه مملوك مسلم ويرحل مع القافلة. ويقضي اربعين يوما بين دمشق ومكة المكرمة. ويهم الحجاج بالعودة، لكن

---

١ Wilson Arnold Talbot, The persian gulf,(Oxford, Clarendon,)1928, pp.- 105 - 106.

فارتما لا يريد ذلك، فيتخلص من المماليك بحيلة ويتخلف ثم يذهب الى جدة. ومن هناك يركب سفينة الى عدن، حيث القي القبض عليه بتهمة التجسس وسجن. لكن الحظ ساعده فافلت. ثم تجول في اليمن واخيراً هرب على سفينة متجهة نحو هرمز(فارس).وقد حملت فارتما اسفاره بعد ذلك الى الحبشة والهند وعاد اخيراً الى ايطالية سنة ١٥٠٨ بعد غياب خمس سنوات.

وقد زار فارتما هرمز ١٥٠٣ او ١٥٠٤، اي قبيل وصول البرتغاليين بمدة قصيرة، فقال يصفها «... وأخيراً وصلنا مدينة جميلة تسمى هرمز التي لا تضاهيها مدينة اخرى من حيث الموقع وكثرة اللؤلؤ. وهي تقع على جزيرة تبعد ١٢ ميلاً عن الشاطىء. ماؤها العذب نزر، وكذلك القمح. لذلك فان المؤن اللازمة لسكانها تحمل اليها من الجهات الاخرى... وقد ترى فيها ثلاثمئة سفينة من مختلف انواع المراكب، التي تأتيها من جهات عديدة وبلاد مختلفة... وفي المدينة ما لا يقل عن اربعمئة تاجر ووكيل يقيمون فيها بصورة دائمة للاهتمام بالسلع المختلفة التي تنقل اليها والتي تشمل الحرير واللؤلؤ والحجارة الكريمة والافاويه وما الى ذلك.»[١] ويقول فارتما ان اهل هرمز يعتبرون الارز غذاء اساسياً، لأنه لا يوجد عندهم قمح. وقد ذكر ماركو بولو ان أهل هرمز لا يستعملون الخبز في غذائهم الا في حالة المرض. ويبدو ان انعدام القمح هو السبب الرئيسي لذلك[١].

في مطلع القرن السادس عشر أخذ البرتغاليون باحتلال مناطق خليج عمان والخليج العربي. ففي سنة ١٥٠٦ استولوا على مسقط وعمان وهرمز. وبذلك ثبتوا اقدامهم في الخليج لمدة قرن تقريباً، وان كانوا قد تعرضوا لثورات كثيرة (قلهات ومسقط ١٥٢٦) والقطيف (١٥٥٠)، كما ان الاتراك اخذوا منذ ١٥٥٠ يقاومون البرتغاليين في تلك الاصقاع بواسطة جماعة من كبار الرجال مثل بيربك الذي هاجم القطيف وهرمز.

---

١ - نفس المكان ص ١٠٦ - ١٠٧.

٢ - Marco Polo, pp. 35, 49.

وهذه الفترة التي شغلت الناس بالحروب كانت غنية أيضاً بالرحالين الذين خلفوا لنا الكثير من الفوائد عن البلاد واهلها. فهناك « التعليقات » التي كتبها القائد البرتغالي البوكيرك الذي قاد الاسطول لفتح هذه المنطقة واحتلالها. وهناك دوراتي بربوزا الذي حظيت البحار والاقطار الشرقية بزيارته والذي كتب وصفاً مفصلاً لجميع المناطق التي زارها في العقد الثاني من القرن السادس عشر. وهناك فريا سوسه الذي مرّ بالبلاد في اواسط القرن. واخيراً عندنا فتش الانكليزي الذي مرّ بالديار في أواخر القرن.

فالبوكيرك يحدثنا عن مسقط التي احتلها سنة ١٥٠٦ بقوله: « مسقط مدينة كبيرة كثيرة السكان، تحيط بها، من الجهة الداخلية، جبال مرتفعة، اما من جهة البحر فهي قريبة جداً من الماء... ميناؤها صغير يشبه نعل الفرس، وفي مأمن من الرياح. ومسقط السوق الرئيسية لمملكة هرمز، اذ يجب ان تمر بها جميع السفن لتتجنب الشاطىء المقابل الصخري. وهي منذ القدم ميناء الخيول والتمر. مدينة جميلة بيوتها انيقة ويأتيها من داخل البلاد القمح والذرة والشعير والتمر. »[١]

اما دوراتي بربوزا فقد وصف عدداً كبيراً من مدن الخليجين - خليج عمان والخليج العربي - بادئاً من الشحر (او شحر) « الميناء الغني بمختلف انواع السلع... مثل الاقمشة القطنية... والارز والسكر والافاوية وغير ذلك من المتاجر... وهذه تبادلها مع القادمين اليها بالبخور والخيول الممتازة التي قد يبلغ ثمن الواحد منها في اسواق الهند نحو ٢٥٠ استرلينية. وبلاد الشحد كثيرة القمح واللحوم والتمر والاعناب. »[٢]

ويعدد بربوزا الاماكن التابعة لمملكة هرمز وبينها قلهات والقريّات

---

١ - Albuquerque, Alphonso d, Indies Adventures, London, Blackei 1936, p. 35.

٢ - Barbosa, Durate, the Book of Druate Barbosa, London, Haklyut Society, 2nd series, No. XLIV, VOL. I, PP. 64 - 65

ومسقط وصحار.[١] ومسقط «واسعة المتجر كثيرة الاسماك التي تملح هناك وتجفف وتنقل الى كثير من البلدان لبيعها.»[٢] اما في الجهة المقابلة، اي على الشاطىء الفارسي، فالظاهر ان نفوذ هرمز كان ايضاً واساعاً اذ ان بربوزا يعد قرابة ١٥ مدينة وقرية، يضاف الى هذا ان الجزر الواقعة بين الشاطئين كانت ايضاً تابعة لهرمز «والبحرين مسكن عدد كبير من التجار والسكان المحترمين... وتكثر حول الجزيرة مغاصات اللؤلؤ. والتجار يربحون ارباحاً طائلة من الغوص على اللؤلؤ، فضلاً عن أنهم يفيدون من تصديره.»[٣]

وتقع «البصرة في نهاية البحر الفارسي... وتأتي اليها سفن عديدة تحمل القطن والتوابل لتمتار من البصرة القمح والسمن والزيت والشعير.»[٤]

وهرمز يسميها بربوزا المدينة االجميلة ويتحدث عنها حديثا طويلاً يمكن تلخيصه فيما يلي: بيوت المدينة جميلة، اما هرمز فحارة جداً وجافة جدا. تجارها عرب وفرس وكلهم يتكلمون العربية (الفرس يتكلمون لغتهم ايضاً)، وجميعهم مسلمون. ولهم ولع بالموسيقى والغناء. وكثير من تجارها اغنياء جداً ويملكون سفناً عديدة، وفي مينائها واسواقها يتبادل الناس سلعا من مختلف الانواع والبلدان. فالافاويه والتوابل - كالفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل وحب الهال والزعفران - وخشب الصندل والنيلة والشمع والحديد والسكر والارز (بكميات كبيرة) وجوز الهند والحجارة الكريمة والفخار والبخور والأقمشة التي تنقل حتى من بلاد البنغال والنحاس والزئبق وماء الورد وقماش البروكاد والتفتا والحرير والمسك والصمغ والخيول والتمور والملح والكبريت. والاثرياء من السكان يلبسون الثياب الحريرية، اما الباقون فيكتفون بالثياب القطنية، وكلها يحتفظ بها نظيفة. وهم اهل آداب حضرية،

---

١ - نفس المكان ص ٧٠.
٢ - نفس المكان ص ٧١.
٣ - نفس المكان ص ٨١.
٤ - نفس المكان، ص ٨٨ - ٨٩.

وشديدو العناية بمآكلهم ويكثرون من استهلاك الثار المجففة والطازجة كالمشمش والتين والتفاح والرمان والدراق واللوز والاعناب والبطيخ. وكل شيء في هرمز مرتفع الثمن لأن المؤن تحمل اليها من خارجها - من بلاد العرب وفارس وغيرهما، اما الجزيرة فليس فيها الا الملح. حتى الماء يحمل اليها من خارجها، تحمله طرادات اي سفن صغيرة.

والقوم يحافظون على الوزن والكيل، وكل من يخالف ذلك يعاقب بشدة، ومن عادتهم ان يبتاع اللحم مطهوا، اما مسلوقا أو مشويا، وكثير من الناس يأكلون في الاسواق[1].

ولما اهتمت تركية بالخليج وما اليه[2]، وقام بيربك يزعج البرتغاليين باسطوله ورجاله، ويحتمل جهات ويثير الثورات في جهات اخرى، اضطربت الحياة بعض الاضطراب في اماكن كثيرة، ولكن المحاولة التركية لم تستمر بحيث تخرج البرتغاليين من المنطقة. وفي اثناء هذه الحوادث زار تلك الجهات فريا سوسه الذي كتب وصفاً لنشاط بيربك في جهات هرمز بعد معركة قرب مسقط كان النصر فيها حليفه ضد البرتغاليين (سنة ١٥٥٠). قال سوسه: « ظهر اسطول الاعداء (اي الاتراك) امام مسقط، التي قاومت لحو شهر لكنها اخيراً وقعت في أيدي المهاجمين، وعندها جعل بير بك الضابط وستين من الرجال يقومون بالتجذيف في سفنه، ولكن بعض هؤلاء افتدوا فيا بعد. ولما انتهى امر مسقط اتجه بير بك لحو هرمز، حيث كان الفارو دو نورونه (قائد الموقع) يقيم في الحصن ومعه تسعمئة رجل... وكان لديه من العتد ما يكفيه لحصار طويل، وكان في الميناء اربعون سفينة... وجاء التركي الى الجزيرة، فانزل المراسي، ونزل الجند وخيموا هناك ثم حفروا الخنادق واقاموا الطوابي ونصبوا المدافع واطلقوا نيرانها شهراً كاملاً دون توقف. فلما وجد ان هذا لم يجده نفعاً نهب ما استطاع من المدينة، ثم انتقل الى جزيرة كشم، حيث كان قد لجأ

١ - نفس المكان ص ٩٠ - ٩٢.

٢ - See Wilon, pp. 124 ff.

الكثيرون من سكان هرمز. هناك غنم كثيراً، ثم انسحب (ليعد نفسه للمعركة من جديد.»[١]

في اواخر القرن السادس عشر جاء الشرق اربعة من الانكليز بينهم رالف فتش. وقد قطع هؤلاء البلاد من طرابلس في لبنان عبر سورية الى الفرات ثم الفلوّجه وبغداد والبصرة ومنها ركبوا البحر الى هرمز، حيث القى البرتغاليون القبض عليهم على انهم جواسيس، ومنها ارسلوا الى غوا في الهند. وقد وصف فتش رحلته فقال عن الطريق من البصرة جنوباً ما يلي: «البصرة مدينة لها تجارة كبيرة في التوابل والعقاقير ومنها ذهبت... في سفينة مصنوعة من الخشب المربوطة ببعضها البعض بحبال مصنوعة من قشر جوز الهند او القنب ومن هنا كان الماء يدخلها كثيراً. وكانت فارس دوماً على يسارنا وشواطىء العربية على يميننا، ومررنا بكثير من الجزر اهمها جزيرة البحرين المشهورة والتي تصدر خير اللؤلؤ... (ووصلنا بعد ذلك) الى هرمز وهي انشف جزيرة في الدنيا، اذ لا ينبت فيها شيء الا الملح... وفي هذه المدينة تجار من جميع الامم، مسلمين وغير مسلمين. وهنا التجار في جميع انواع الافاويه والعقاقير والحرير والسجاد واللؤلؤ والخيول. وملكهم مسلم لكنه خاضع للبرتغال.»[٢]

يبدو من هذا العرض المقتضب ومن هذه الفقرات التي نقلناها عن هؤلاء الرحالين ان المركز الرئيسي لتجارة الخليج كانت هرمز لمدة تقارب ثلاثة قرون وان المدينة ظلت مركزا تجارياً هاماً حتى اثناء الاحتلال البرتغالي. ويبدو ايضاً ان المراكز التجارية الاخرى في عمان والخليج كانت تعتمد على هرمز واسواقها.

لكن مع ذلك كان لا بد من ان تتأثر المنطقة بكاملها من امرين – الاول

---

١ – See Wilson, pp. 125 – 126.

٢ – See Wilson, p. 134

ان الاحتلال البرتغالي كان يريد ان يحصل على اكبر كمية من الفائدة لذويه، وكان الحكام يحاولون الأثراء. وهذا اضعاف للتجارة بطبيعة الحال. والثاني ان فتح طريق جنوب افريقية كان لا بد ان يؤثر في تجارة الخليج، وقد بدأ هذا في السنوات الاولى من القرن السابع عشر.

بعد الفتوحات العربية الاسلامية اصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً هاماً من العمل الاداري للدولة، كما صار وصف الاقاليم والعناية بها جزءاً من أخبار الفتوح والمغازي والتنظيم. وهكذا اصبحت المعرفة الجغرافية للاقاليم وما يحيط بها امراً ضرورياً.

وقد اعتمدت المعرفة الجغرافية الى حد كبير على المشاهدات الشخصية والحس وما نقله الخلف عن السلف. فاعتنى العلماء الجغرافيون والرحالة القدماء بمعرفة المسالك والطرقات والمسافات بسبب ندرة الاحصاءات عندهم.

وهذا الكتاب «رحلة» جغرافية تبدأ منذ القرون الاولى للهجرة. وتعالج باختصار مفيد ما تركه كبار الجغرافيين والرحالة من أمثال ابن فضلان، المسعودي، البغدادي، ابن بطوطه، التيجاني التونسي وسواهم.



١٨ ل.ل. او ما يعادلها.